

قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب بمدارسها

تاريخ العالم العربي وحضارته

في العصور القديمة والعصر الإسلامي
للمؤلف النافى الثانوى "أدبى"

جزء معين التاريخ لأهل التاريخ

تأليف

الدكتور إبراهيم أحمد إدريس
أستاذ التاريخ العام بالجامعة

الدكتور محمد مصطفى زبارة
رئيس قسم التاريخ بالجامعة

الدكتور محمد جمال الدين مختار
مدرس التاريخ بالجامعة

الدكتور أحمد طه
مدرس التاريخ بالجامعة

ملزم النشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

بالقاهرة

قررت وزارة التربية والتعليم تدريس هذا الكتاب بمدارسها

تاريخ العالم العربي

في العصور القديمة والعصر الإسلامي
للصنف الثاني الثانوي "أدب"

تأليف

الدكتور إبراهيم أحمد العبدون
أستاذ التاريخ المساعد بجامعة القاهرة

الدكتور محمد مصطفى زبارة
معيد قسم التاريخ بجامعة القاهرة

الدكتور محمد جمال الدين مختار
مدرس قسم التاريخ بكلية التربية

الدكتور أحمد طه
معيد قسم التاريخ بجامعة القاهرة

ملتزم النشر

مكتبة نهضة مصر بالفجالة

بالقاهرة

مكتبة نهضة مصر
بالقاهرة
رقم التسجيل

(مقدمة)

هذا الكتاب ثمرة من ثمرات النهضة العربية السكبرى فى عصرنا الحاضر ومن أغراضه التعليمية والتربوية كشف الحقائق والمفانى التى تبرهن للمتعلم فى المدارس الثانوية والقارىء الجديد فى الشرق الأوسط أن العالم العربى مجموعاً من الحضارات العريقة التى نشأت فى أطراف الصحارى ووديان الأنهر ومناطق الأمطار المعتدلة (القديم) ، أى فى شبه الجزيرة العربية من أقصى اليمن إلى أقصى بادية الشام ، وفى وادى الرافدين دجلة والفرات ، وفى وادى النيل العظيم ، وفى بقاع الشام ذات المساحات الشاسعة الخضراء الجميلة .

ولذا تعين على المؤلفين لهذا الكتاب أن يبادلوا حضارات هذه الأقاليم المختلفة فى شىء من الإختصار والوضوح فى آن واحد ، وهو عمل يحمل الكتابة فيه من أجل بيان الأسس والطرق والمسالك التى تتركز إليها الحضارة العربية المتوثبة فى العصر الحديث .

ومن هذه الأسس الحضارة المتنوعة انتقل المؤلفون إنتقالاً تاريخياً إلى ظهور الإسلام والدولة العربية الإسلامية فى عصور النبوة والخلافة الصحابية والخلفاء الأمويين والعباسيين . ثم أخذت دول إسلامية تظهر فى أجزاء العالم العربى ، ولاسمهم مصر والشام ومنها دولة صلاح الدين التى جمعت بين الإقليمين المصرى والسورى ، وجعلت منهما دولة قوية متحدة متأسكة تحت الشرق العربى من الأطماع الصليبية الاعتدائية . وورث سلاطين المماليك هذه السياسة العظيمة ، واستطاعوا أن يهدموا مشاريع الصليبيين للاستيلاء على مصر ، كما استطاعوا أن يخرجوا الصليبيين نهائياً من الشرق . وبينما يعمل سلاطين المماليك فى هذا الميدان ظهر الخطر المغولى ، فتصدى له السلاطين كذلك ، بفضل مساعدة المقاومة الشعبية للأمة

(ب)

العربية ، وقذفوا به إلى وراء في وقعة عين جالوت الهامة .
ويتمى هذا الكتاب بفصل ختامى فى الحضارة العربية وأفضالها الشهيرة على
الحضارات الأخرى التى عاشت فى أيامها ، فضلا عن الحضارات الحديثة التى
استمدت الكثير من مقوماتها وأسباب تقدمها من نتائج الحضارة العربية . وسوف
يرى القارئ فى هذا الفصل كيف استمدت الحضارة الأوروبية فى العصور الوسطى
والعصور الحديثة من المجهودات العلمية التى قام بها علماء العرب قبل غيرهم من
العلماء ، وكيف شيد الأوروبيون تقدمهم العلمى الحديث على تراث العلم العربى
وتجاربه الباهرة .

وبرجو المؤلفون أن يحقق هذا الكتاب للقارئ العربى الجديد ما تنصبو إليه
نفسه من معرفة لأجداد أمته فى عصورها القديمة والإسلامية ، وأن يجد فيه كذلك
ما يحفز به إلى الثقة بقوميته العربية ، ويساعده على حمايتها وإعزازها وإعلاء شأنها
المؤلفون

(ج)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

منهج التاريخ

للفص الثاني الأدبي (الثانوي)

تاريخ العالم العربي وحضارته في العصور القديمة

والعصر الإسلامي

« ثلاثة دروس في الأسبوع »

أولاً : الحضارة القديمة في الوطن العربي في مواطنها المختلفة حتى ظهور الإسلام .

مواطن هذه الحضارة (وادي النيل — وادي الرافدين — الشام والجزيرة العربية) والسمات المشتركة بينها .

ثانياً : الوطن العربي قبيل الإسلام :

(١) حالة العرب في الجزيرة العربية .

(٢) النزاع بين الفرس والروم وأثره في الوطن العربي .

ثالثاً : العرب والإسلام :

(١) ظهور الإسلام .

(ب) عرض موجز لتكوين الدولة الإسلامية حتى بلغت أقصى اتساعها

(ج) العرب وتحرير الشعوب التي كانت خاضعة لدولتي الفرس والروم —
ميلاد الأمة العربية الجديدة في الوطن العربي الكبير .

(د) العالم العربي منذ ضعف الدولة العباسية حتى الغزو العثماني .

١ - ضعف الخلافة العباسية حتى للغزو العثماني .

٢ - قيام الدولة المستقلة في الأندلس ومصر والشام .

٣ - الغزو العثماني للبلاد العربية .

رابعاً : الحضارة العربية الاسلامية :

١ - أصول هذه الحضارة : الثقافة العربية الاسلامية وأثر الحضارات الفارسية
والاغريقية والرومانية فيها .

٣ - مظاهرها — الحياة السياسية — الاجتماعية — الاقتصادية — الفكرية
— الفنية .

٣ - أثر هذه الحضارة في غيرها من الحضارات — مقارنة بين هذه الحضارة
والحضارات الأخرى .

الباب الأول

الحضارات القديمة في الوطن العربي

في مواعدها المختلفة حتى ظهور الإسلام

تمهيد : نشأة الحضارة الأولى

إن دراسة تاريخ الحضارة تعطى على أكبر وأهم جانب من التاريخ ، إذ نتناول المجتمع وتنظيمه ، والفكر ونموه ، والحياة المادية والسياسية في تطورها وتفاعلها مع الزمن . وسنحاول فيما يلي أن نبزّ تراث العرب الحضارى الذى قدموه إلى الإنسانية عبر القرون ، ليسجلوا أروع محاولة من المحاولات المتنوعة المستمرة التى أجراها الإنسان للوصول إلى مستوى أفضل من الحياة ، وأرحب وأكثر خيراً ورفاها .

ولم تنشأ الحضارة في كل مناطق الأرض في عصر واحد ، والتاريخ القديم يُنبئنا بأن مطالع الحضارة انحصرت في المنطقة التى نسميها اليوم بالشرق الأدنى العربى وما حوله ، التى تشمل الحوض الشرقى للبحر المتوسط وتنتهى عند جبال آلطاي في آسيا الوسطى . وتمتاز هذه المنطقة بموقعها المتوسط الذى جعلها نقطة تأثيراً مباشراً وقويّاً في الحضارات القديمة التى تقدمت فندت نواة حضارتنا الحديثة . وتمتاز المنطقة التى نشأ فيها مهد الحضارة بتنوع أقاليمها وتوزيع الأمطار في أقاليمها المختلفة ، وطبيعة أرضها التى تدفع الحياة التنقل والرعى ، كما توجد

فيها السهول والأنهار العظيمة التي هي من دواعي الاستقرار والتحضّر . ولاتتوفر هذه الشروط . إلا في منطقة الحوض الشرقي للبحر المتوسط حيث تلتقي على شواطئه خلاصة المؤثرات الحضارية وجماع الإنتاج المادى والمعدوى ، فيندو بحق قطب العالم في الفن والثقافة والدين ، حتى أن بعض الأوروبيين أرادوا أن يكسبوا قارتهم شرف السبق الحضارى فاعتبروا هذا البحر المتوسط بحيرةً داخليةً أوربية تقع وراءها الصحراء الأفريقية الكبرى . ولكن هذا الوهم لا يصمد لأى دليل علمى ، لأن بواكير الحضارة الأولى ظهرت في مناطق حوض البحر المتوسط الشرقى ، وبمباراة أخرى في الشرق الأدنى العربى الذى نمت فيه أكثر الحضارات البشريّة خصوبةً ، وهى الحضارات المصرية والسورية وحضارة بلاد الرافدين من بابلية وآشورية وغيرها . وربما امتدت هذه المنطقة الحضارية إلى أطراف هضبة « پامير » فى أواسط آسيا ، إذ شهد وادى نهر السند قيام حضارات مستقرة . وليس بمستبعد أن يكون ذلك نتيجة الاتصال بالحضارة البابلية ، ذلك أن ما وجد فى مدينة هاربا وبلدة موهنجودارو فى الباكستان الحالية ، من شوارع وآبار وحمامات ومجارٍ مائية وتمائيل وأوانى فخارية بديعة يدل على أن السكان فيها ، وبصح أن نسميهم الهنود السومريين ، كانوا ينعمون بوسائل الحياة المادية العالية . وثمة مناطق حضارية أخرى منعزلة نمت فى أحواض الأنهار الكبرى فى الصين ، وفى أمريكا الوسطى (المكسيك) والجنوبية (بيرو) وأهما حضارة الأزتيك .

ومن المحتمل أن تطورات أخرى للحضارة الإنسانية فى آسيا وأفريقيا وأوروبا سارت متماثلة مع تطور هذه المناطق ، ولكن من المؤكد أن ذلك لم يستمر ولم يتصل بتطور الحضارة العام .

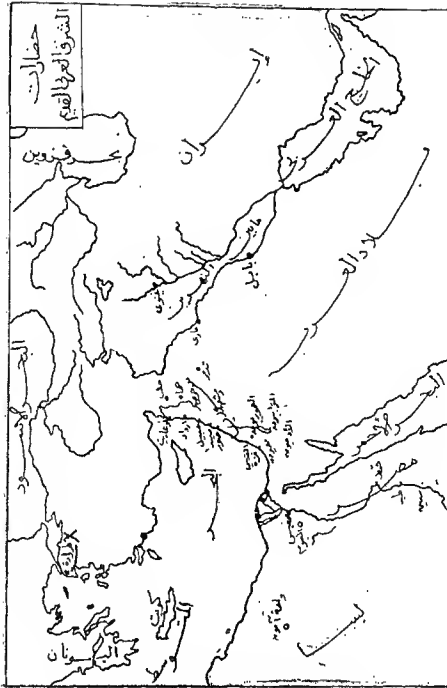
وقد ساعد الموقع الجغرافى على ظهور طرازين من الحضارة فى منطقة الشرق الأدنى العربى :

١ - حياة الاستقرار والزراعة والبناء (حوض النيل ووادى الرافدين)
حيث توفر للانسان من العوامل الطبيعية ما ساعده على التجمع والاستقرار
والتمدن ومعرفة الزراعة ، مما عمق بالتالى مع الزمن لتكوين المدن وبداية التنظيم
الاجتماعى والسياسى .

٢ - حياة التنقل والرعى ، وسادت هذه الحياة فى بوادى جزيرة العرب ، ولم
تسكن أقل شأنًا وأهمية من حياة الاستقرار .

والمجتمعات المنقلة (البدوية) كانت أشدّ مراساً وأوسع نظرة إلى الحياة ،
وأكثر علمًا بأحوال الجو والمرعى بفضل عدم استقرارها فى أرض واحدة . غير
أن العرازل الأولى ، وهم أهل الزراعة كانوا أهنأ عيشًا وأعظم تأثيرًا فى تاريخ العمران
والحضارة . ولهذا نبتت بذور الحضارة العالمية فى الوطن العربى الذى يحتل مكان
الصدارة فى موكب الحضارات الأولى . وأهم بقاع هذه الحضارات العربية تركزت
فى حوض النيل وبلاد الرافدين وما بينهما (خريطة رقم ١) .

ومن المؤكد أن مختلف البوادرى بشبه جزيرة العرب قد أمدّت هذه البقاع
بموجات بشرية متجددة حملت الحضارة والدم الجديد جيلًا بعد جيل حتى العصور
الحديثة . ثم إن موقع الجزيرة العربية بين قارات العالم القديمة ،
آسيا وأفريقيا وأوروبا ، جعلها همزة وصل بين الأمم ، وواسطة العقد بين
الحضارات الأولى . والتقاء طرق التجارة القديمة فيها من بحريه وبريه ،
جعل حضارات الجزيرة يغلب عليها طابع التجارة . وبينما استحال على المؤثرات



(خريطة رقم ١) حضارات الشرق العربي القديم

الخارجية أن تفرض نفسها على بلاد العرب وأهلها فإن العرب فرضوا أنفسهم
وطا بمهم وتاريخهم على معظم البلاد المحيطة بهم . (خريطة رقم ٢)



(خريطة رقم ٢) انتقال الحضارة من الوطن العربي إلى أوروبا :

الموجات والهجرات العربية :

وكان الوطن العربي الكبير بين ٤٠٠٠ - ٣٥٠٠ ق. م مأهولا بشعوب وقبائل متشابهة في الملامح وطراز الحياة ، ومنقاربة خاصة في اللغة التي تتكلمها . ولما كانت صحراء منغوليا مقراً للمغول ، وشواطئ بحر البلطيق موطناً لتحتفر وتكاثر الحرمان ، فإن التاريخ شهد عدة موجات بشرية كان يرسلها قلب الجزيرة العربية في عصور زمنية متفاوتة نحو المناطق الخصيبة في الشمال (الهلال الخصيب) أو نحو الوادي الغني المتاخم للجزيرة (وادي النيل) .

واتخذت الهجرات المنبثقة من الوطن العربي أسماء عديدة ، ومنها الأكاديين والكنعانيين والآراميين الخ . . . وأدرك علماء الآثار واللغات القديمة تشابهاً كبيراً بين هذه الشعوب ، فأطلقوا عليها اسم الشعوب السامية ، على فرض أن لغة سامية كبرى تولدت عنها لغات هذه الأمم جميعاً ، ولكن الأفضل أن تسمى هذه الشعوب لا باسم لغاتها التي اكتسبتها فيما بعد ، بل باسم موطنها الأصلي ، أي الجزيرة العربية ، فتسمى بالشعوب العربية . ومما يؤيد هذا التفضيل أننا نجد اسم العرب في الآثار البابلية - الآشورية وفي العبرية كذلك .

وكانت أعظم هذه الموجات العربية وخاتمها هي الموجة التي حملت العرب المسلمين إلى خارج الجزيرة ، ولذا امتازت هذه الموجة عن سائر الموجات السابقة بسمات فريدة ، هي :

(١) لم تقتصر الموجة الأخيرة على غزو أطراف الجزيرة ، بل امتدت بفضل الإسلام شرقاً إلى أواسط آسيا حتى تركستان والهند والصين ، وغرباً في أفريقيا حتى المغرب الأقصى وإسبانيا وفرنسا ، وحلقت في معظم هذه البقاع دماء وملاحم عربية واضحة ، وكل ذلك في مدة خمسين سنة من بدايتها .

(٢) طبعت هذه الموجة العظيمة جميع الأمم والبلاد التي امتدت إليها
نطاق حضارى قوامه الشريعة الإسلامية واللغة العربية الفصحى .

(٣) رافقت الفتوحات العربية العظيمة نهضة ثقافية وحضارية جبارة
أوصلت العرب إلى أعلى المراتب في العلوم والآداب والصناعات ، ويرجع الفضل
في النهضة الحضارية الإسلامية إلى الشعب العربى الذى انصلت بفضله معارج
الحضارة فى القديم والحديث ، وحفظت بذلك تراث الإنسانية وزادت عليه ،
وحملته سليماً غنياً إلى مختلف الأمم .

وهذا الكتاب يشرح للقارىء كيف كانت أحوال الوطن العربى منذ أقدم
العصور إلى بداية العصر العثمانى حين سيطر الأتراك المسلمون على العرب مدة
أربعة قرون ، ثم لم يابث العرب أن نهضوا نهضتهم الكبرى لإحياء ماضيهم
العظيم فى ميادين الحضارة ، والعزة والكرامة البشرية .

الفصل الأول

الحضارة القديمة في وادي النيل

لمحة تاريخية :

في فجر التاريخ القديم بدأت معالم الحضارة المصرية الأولى . ويمكن المصريين في ذلك الفجر الصادق من الإهتمام إلى الأسس الحضارية التي سار الإنسان في طريقها بمختلف أجزاء العالم حتى العصر الحاضر ، ومن هذه الأسس إقامة الدول ومعرفة الكتابة وممارسة الزراعة .

نم جاء المصباح الذي هو بداية التاريخ المسمى القديم . وقسم المؤرخ مانشيئون هذا التاريخ إلى ثلاثين قسم . من الملوك الفرعون . وقسم الباحثون الحديثون هذه الأسرات إلى ثلاثين أقسام رئيسية هي : الدولة القديمة والدولة الوسطى والدولة الحديثة ، ويضم كل منها عدداً من الأسرات الثلاثين السابقة . (انظر : خريطة رقم ٣)

التدرج نحو الوحدة في فجر التاريخ :

وأدرك المصريون منذ أواخر فجر التاريخ المصري القديم فوائد الوحدة السياسية ، وهدام اعتمادهم على نهر واحد هو النيل العظيم إلى هذا الإدراك العام . واستطاع أحد الأمراء المصريين وأسمه نارمر أن يحقق تلك الوحدة السياسية . وبصور لنا لوح اردوازي من الآثار القديمة الملك نارمر وهو بضرب المناوئين

هكذا ترى أن المصريين هم أول الشعوب العربية التي عرفت معنى الاعتماد لأنه الطريق إلى المجد وبناء الدولة الوطيدة الأركان .

عصر الدولة القديمة (الأسر ٣ — ١)

وافتح « ميذا » عصره العظيم بإقامة قلعة قرب رأس الدلتا عرفت باسم الجدار الأبيض ، وهي التي سماها اليونان مَافيس فيما بعد ، ثم سماها العرب « منف » ، ومكانها الآن قرية ميت رهينة بمحافظة الجيزة على بعد ثلاثين كيلومترا جنوب القاهرة . تم انتقال الحكم في مصر من أسرة مينا وما بعدها إلى أسرة اشتهر فراعنتها باسم بناء الأهرام ، وهم ملوك الأسرة الثالثة ، وأولهم الملك زوسر صاحب القبر العظيم المعروف باسم الهرم المدرج في صقارة قرب منف ، وهو أول بناء حجري ضخم عرفه التاريخ ، يليه أهرامات خوفو وخفرع ومنقرع بقرب الجيزة الحالية التي شيدت في أيام الأسرة الرابعة . وقد تميز عصر الدولة القديمة بقيام الإدارة المنظمة والحكومة الساهرة على سلامة البلاد ، والاتصال بالإقليم المجاورة .

عصر الدولة الوسطى (الأسر من ١١ إلى ١٣)

ثم دارت دورة الزمن في أواخر أيام الأسرة السادسة ولم تنجب الأسرات التالية فرعوناً عظيماً حتى أيام « أمنمحات الأول » مؤسس الأسرة الثمانية عشرة ، وصاحب الفضل الأكبر في بناء النهضة المصرية التي ظهرت أيام الدولة الوسطى . ويعتبر عصر الدولة الوسطى أزهى عصور الرخاء الإقتصادي ، إذ اهتم فراعنتها بتنظيم مياه النيل ببناء أعمال الري العظيمة وخاصة في منطقة الفيوم . وكثرت البعثات الاقتصادية التي بعث بها الفراعنة إلى المناجم والمحاجر ، وخاصة في الصحراء الشرقية وشبه جزيرة سيناء . وأغلب الظن أن الصلة التجارية بين مصر وجزر البحر المتوسط بدأت على مستوى عال .

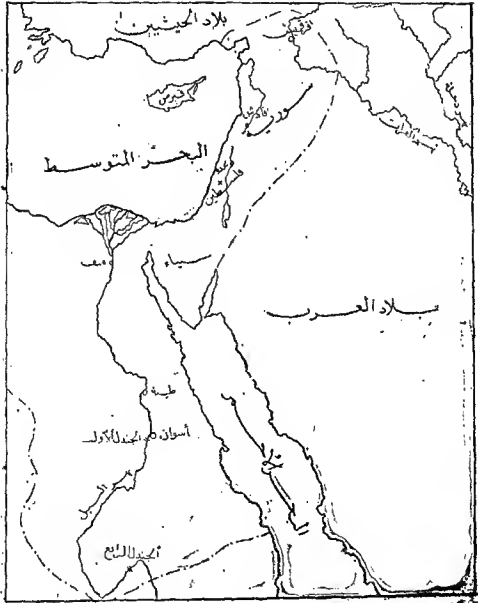
عصر الدولة الحديثة (الأسرة ١٧ - ٢٠)

ثم جاء الهيكسوس، وهم قوم رعاه من فلسطين، إلى مصر بعد أيام الأسرة الثانية عشرة وحكوا فيها مدة طويلة، وظلوا بها حتى استطاع أحد المصريين واسمه أحمس أن يخرجهم منها، ويؤسس الأسرة الثامنة عشرة. وجعل أحمس مدينة طيبة عاصمة لدولته، وكان ذلك عام ١٥٨٠ قبل ميلاد المسيح. وبدأ عهد جديد زاهر هو عصر الدولة الحديثة، ولا سيما حين استعمل الفراعنة المصريون العجلات الحربية التي تجرها الخيول في جيوشهم. ونجح الفرعون تحتمس الثالث في جمع معظم أنحاء الشرق العربي القديم في كتلة واحدة (خريطة رقم ٤). ولكن تلك الدولة بدأت تتداعى بسبب ثورة دينية أوقد نارها إخناتون. فانصرف المصريون إلى الخلافات الدينية، على حين أخذ النفوذ المصري يضعف تدريجياً في الداخل والخارج. ثم جاءت الأسرة التاسعة عشرة، فأخذت مصر تسترجع ما فقدته بفضل فراعنتها، أمثال رمسيس الثاني ثم رمسيس الثالث من الأسرة العشرين الذين أنهضوا البلاد وحووها من الحثييين.

العهد المتأخر (الأسرة من ٢١ إلى ٣٠) :

ثم تكاثرت العلل على مصر في أواخر الأسرة العشرين، وتطرق الفساد إلى البلاد، وضعف نفوذ القراعة، فأخذ السكينة يتطلمون إلى العرش، وتحقق لهم ما أرادوا، ثم انفلت زمام الحكم من أيديهم إلى أيدي الليبيين؛ وجاء النوبيون بعد ذلك إلى مصر، ثم أعقبهم الآشوريون.

وظل الآشوريون في مصر حتى أخرجهم منها (إيسه-اتيك) وهو أمير مصري من سائس (وهي مكان قرية ضاحلحجر الحالية في شمال الوجه البحري)، فأسس إيسماتيك الأسرة السادسة والعشرين وبدأ عهد إصلاح، ثم حاولت



(خريطة رقم ٤٢) الدولة المصرية السورية في عهد تحتمس الثالث

أسرته أن تنهض بالبلاد، فأحيت الآداب والفنون القديمة، وأعادت تنظيم الجيش..
على أن مصر لم تلبث أن وقعت في أيدي الفرس وأضحت جزءاً من إمبراطوريتهم.
ولذا قامت في البلاد المصرية ثورات عديدة، وخرج الفرس أخيراً من مصر
وتولت الحكم أسرات مصرية أهمها الأسرة الثلاثون. على أن الفرس لم
يلبثوا أن عادوا ليحكموا مصر مرة ثانية لبضع سنوات، ثم جاء الإسكندر
إلى مصر سنة ٣٣٢ ق. م فأخرج الفرس منها، وضمها إلى إمبراطوريته.

العصور الجارية
٣٠٣٢ م : تأسيس الدولة

الدولة القديمة

٢٠٦٥ م : تأسيس الدولة

الدولة الوسطى

١٥٨٠ م : تأسيس الدولة

الدولة الحديثة

١٠٩٠ م : تأسيس الدولة

العصر المتأخر

٣٣٢ م : فتح الإسكندرية للدولة
العصر البيزنطي والروماني

(خريطة زمنية رقم ١)
لتاريخ الأقاليم الجنوبية للجمهورية العربية
المتحدة في العصور القديمة

وهكذا ينتهي عهد الفراعنة على يد الإسكندر . وبعد موت الإسكندر صارت مصر لقائده (بطلميوس) ، وهو مؤسس أسرة البطالمة التي حكمت مصر مدة ثلاثة قرون . وقد انتهت تلك الأسرة بمصرع « كليوباترة » سنة ٣٠ ق.م ، فدخلت مصر تحت حكم الرومان إلى أن طردهم العرب منها سنة ٦٤٢ م .

مظاهر الحضارة المصرية القديمة

أولاً : التنظيم السياسي :

لم ينشأ نظام الحكم في مصر دفعة واحدة بل تطوّر في أدوار زمنية طويلة من البساطة إلى التعقيد . وكانت مصر في أيام الفجر من تاريخها قسمة بين حكام الأقاليم المختلفة ، يقوم كل منهم بتسيير شئون إقليمه ويحاول جهده أن يظنّى على ما جاوره من أقاليم . ثم تحققت الوحدة السياسية بين الأقاليم في عهد « مينا » ، وإليه يرجع الفضل في وصول مصر إلى ما وصلت إليه من حضارة وقوة ، وتركزت مقاليد الحكم في ثلاثة عناصر رئيسية :

وأول هذه العناصر فِرْعَوْنُ، وهو في نظر المصريين القدماء رمز الله في هذه الأرض يحكمها بمقتضى الحق الإلهي للوروث، وتركز في يده جميع السلطات .

ولما كان فرعون لا يستطيع الإشراف وحده على جميع شؤون الدولة ، استلزم الأمر أن يجعل من ورائه طائفة من الحكام والمعاونين جمل على رأسهم وزيراً كبيراً .

وكان الوزير هو الرئيس الفعلي للإدارة المركزية ، وهو لذلك العنصر الثانى من عناصر الحكم ، وسيطر الوزير على موظفى الدولة من إداريين وكتابيين . . . وكانت مسؤوليات الوزير ضخمة جسيمة ، فهو الذى يعرض على فرعون شؤون الدولة ويتلقى منه التعليمات والأوامر ، (شكل ١) وهو يشرف على مراقبة الإيراد والمنصرف وما يرد إلى البلاد من كنوز المناجم والحاجر ، كما يشرف على خزائن الدولة . والوزير يبت فى شؤون الدولة الهامة ، ويمثل فرعون فى داخل البلاد وخارجها ، وإليه يرفع حكام الأقاليم وكبار الموظفين التقارير ، وخاصة ما يتصل منها بمذسوب مياه النيل ومقادير الخاصلات والغلات ، وهو كبير القضاة يحكم فى القضايا الكبرى ، ويفصل فى الشكاوى والوصايا والموارث ، ويهيمن على رجال الأمن .

ولما زادت أعباء الوزير فى أيام الدولة الحديثة لم يعد يسكن فى رجل واحد للإشراف على إدارة مصالح البلاد ، فاقضى الأمر أن يكون للدولة وزيران كبيران أحدهما لشئون الجنوب ويقيم فى طيبة ، وغيره لشئون الشمال ويقيم « أون » وهى عين شمس الحالية .

واستعان كل من الوزيرين فى عمله برؤساء للإدارات المركزية كالحزاة



(شكل ١) الوزير يمرض الأوراق على فرعون

والسجلات والأشغال والزراعة^٢ ومخازن الفلال ، التي كانت يعمل بها عدد كبير من السكتبة والموظفين .

أما العنصر الثالث من عناصر الحكم فهو الإدارات المحلية التي حلت محل حكومات الأقاليم الأولى ، ويرأسها حكام الأقاليم التابعون لفرعون والحكومة المركزية . .

ومع أن حكام الأقاليم كانوا يخضعون للحكومة المركزية فإنهم تمتعوا بقدر كبير من السلطة في أقاليمهم ، فكانوا يشرفون على المناصب الدينية ، وعلى فيالق

الجند الخاصة بالأقاليم وعلى شؤون الري والزراعة ، وكانوا يجمعون الضرائب ويقومون بالتعداد، ومسح الأرض وإقامة الجسور وحفر الترعة ، ويتولون القضاء .

ثانياً : العقائد الدينية :

اختصت الديانة المصرية القديمة بخصائص جمعت لها طابعا فريداً بين الديانات القديمة . ومن أوضح هذه الخصائص تعدد الأرباب والآلهة . ويرجع سبب هذا التعدد إلى أيام فجر التاريخ حين كانت مصر مقسمة إلى إمارات صغيرة، لكل منها معبودها الخاص الذي يلتف حوله أهل الإقليم ويلجأون إليه وقت الشدة .

لم ينس أهل كل إقليم معبودهم المحلي القديم بعد أن تحققت الوحدة السياسية للبلاد ، فظلوا على ولائهم له ، وأشاعوا حول عبادته الأساطير . وكانت تلك المعبودات من حي الطبيعة والبيئة ، فشملت ألواناً متعددة من الحيوان والطيور والنبات ، وكذا عناصر السكون كالماء والسماء والأرض والهواء والشمس والقمر .
(خريطة رقم ٥)

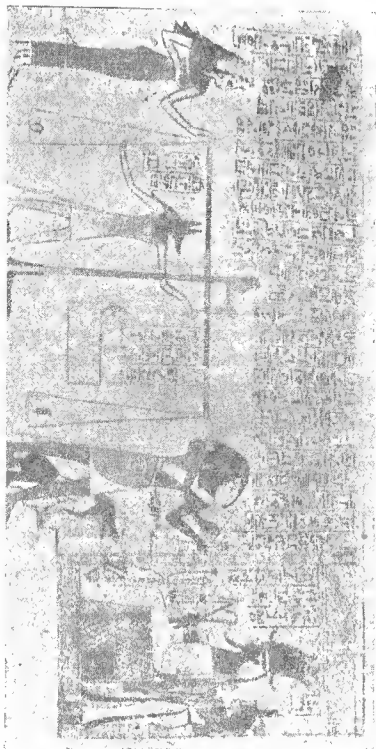
وكان يحدث بين حين وآخر أن تمتد عبادة أحد تلك المعبودات إلى ما وراء إقليمها الأصلي ، وذلك عندما يعظم شأن هذا الإقليم ، كأن يكون مسقط رأس مؤسس الأسرة الحاكمة . ومثال ذلك ما حدث في فجر التاريخ عندما انتشرت عبادة إله « أون » وهو الشمس ، واسمه « رع » إلى كثير من الأقاليم . وفي أيام الدولة القديمة انتشرت عبادة « بتاح » ، وهو إله منف عاصمة البلاد في ذلك الوقت . وفي أيام الدولة الوسطى انتشرت عبادة « أوزوريس » الذي جعلته أسطوريته يحتل مركز الصدارة بين المعبودات المصرية القديمة . وقد تخيل

المصريون القدماء قبر «أوزوريس» في أبيدوس (العرابة المدفونة بمحافظة
سوهاج الحالية) . فكانوا يحجون إلى أبيدوس، ويطوفون حول القبر المزعم
التماساً للبركة . وفي عهد الدولة الحديثة جمل المصريون من «آمون» إله طيبة
ربَّ الأرباب، ورئيس الآلهة جميعاً .

ومن خصائص الديانة المصرية القديمة رسوخ اعتقاد المصريين القدماء في
البعث والخلود بعد الموت، ولذا دفنوا موتاهم منذ فجر التاريخ ومعهم من
أصناف الطعام والشراب والأثاث ما يضمن لهم استئناف الحياة في الآخرة .
واعتقد المصريون كذلك أن النعم بالحيوة في الآخرة يستلزم حفظ الجسم سليماً ،
ولذا حنَّطوا الموتى، ووضعوا جثثهم في قبور حصينة في الصحراء بعيدة عن رشح
الماء وعيث اللصوص، كما زينوا جدران القبر برسوم الميت وبألوان من عصور
حياته، كما أكثروا من ذكر أسمائه وألقابه تأكيداً لعدم الخطأ عند بعثه . واعتقد
المصريون أن الروح بعد أن تنجو من مخاطر كثيرة في رحلتها إلى العالم الآخر
تقابل تجربة قاسية وهى المحاكمة والحساب ، حيث يجرى التحقيق فيما أتاه الميت
في دنياه من الحسنات والسيئات . وتألفت المحكمة المختصة لهذا الغرض من
اثنين وأربعين قاضياً يمثلون أقاليم مصر المعروفة . ويأخذ الميت في سرد أعماله
الحسنة وما قام به في حياته الدنيا من أعمال البر والخير، كما يتبرأ من الآثام المختلفة
كالسرقة والقتل والكذب وأكل مال اليتيم وشهادة الزور ، فإذا انتهى من ذلك
وزن القضاة أعمال الميت بميزان ، يوضع في إحدى كفتيه القلب وفى الكفة
الأخرى ريشة تمثل الصدق، فإذا حنَّقت موازينه دلَّ ذلك على أنه طاهر بريء ،
فيسير في النعيم الأبدى ، وإذا ثقلت موازينه كان ذلك برهاناً على أنه شرير
آثم ، وبعد ذلك يساق إلى عذاب الجحيم (شكل ٢) .

واتجهت الديانة المصرية القديمة زمن الدولة الحديثة نحو الوحدانية، وذلك

٢٠ -



(٢) عاكه البيت والراجل الى يمينها



(شكل ٣)

إخناتون وزوجته يتعبدان لإله الشمس

حين أعلن إخناتون إيمانه بإله واحد لا شريك له، هو خالق الكون وواهب الحياة لكل حي . ورأى إخناتون هذا الإله في قرص الشمس الذي يرسل أشعته بالنور والحياة إلى أرجاء الأرض ، ولكنه لم يرمز له بصورة غير صورة القرص ، ولم ينحت له صنما أو يجعل له زوجة أو ولدا (شكل ٣) .

هكذا مرّ المصريون في حياتهم الدينية في أطوار ثلاثة : طور التعدد ، وكان الناس يتخذون فيه أرباب مختلفة ، فلكل قبيلة رب ولكل إقليم رب ، ثم طور التوحيد ، وفيه أبقى الناس على عبادة أربابهم المختلفة ، وإنما غلبوا عليها أشهرها .

ففي عهد الدولة الحديثة مثلاً رفعوا الإله آمون ، معبود طيبة ، إلى مرتبة الزعامة ، ولكنهم في نفس الوقت لم ينسوا إله الشمس « رع » ، فأسموه « آمون رع » وجعلوه ملك الآلهة جميعاً . والطوبى الثالث هو طور التوحيد ، وهو طور النضج الإجتماعى والدينى والسياسى ، وقد ظهرت هذه النزعة فى إنقلاب إخناتون الدينى .

ثالثاً : الفنون والمعمارة :

أظهر المصريون منذ فجر تاريخهم ميلاً إلى الفنون ، من عمارة وزخرفة وبرسم ، بقدر ما أتاح لهم أحوالهم البدائية . ثم تطورت هذه الفنون وخطت خطوات واسعة فى عصر الأسرات ، سواء فى المعمارة أو البناء أو النحت والتصوير والتلوين وغير ذلك .

وكانت مساكن المصريين القدماء على ترفها وكمال مرافقتها مبنية بالطوب النيبى ، ولذلك لم تستطع أن تقاوم الزمن والحوادث . أما قبورهم ودور عبادتهم فكانت عندهم منازل الخلود ، ولذا بنوها من الحجر ، فبقيت عبر الأجيال تشهد لهم بالفخر وتسطر لهم الخلود .

ولم تكن أمة قديمة أو حديثة بأمر موتها عناية المصريين القدماء ، وكانت القبور هى مساكنهم إلى أن يحين البعث . وتطور بناء المقابر من حفرة عميقة إلى هرم ضخم على البناء من الأحجار (شكل ٤)

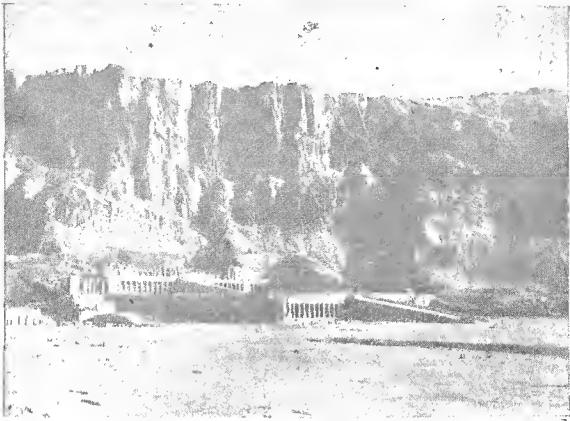
ثم بطل بناء الأهرامات الضخمة حين أدرك الفراعنة ، منذ أواخر أيام الدولة القديمة ، أن تلك القبور الهرمية بشكلها الضخم الظاهر ، تتعرض للنهب والسطو . ففتحوا قبورهم فى صخور صحراء طيبة الغربية ، وفى المسكن المعروف اليوم باسم وادى الملوك .

وشيد المصريون نوعين من المعابد لتأدية طقوسهم الدينية وهى :



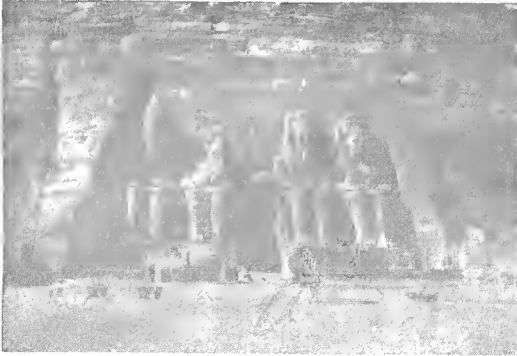
(مبنى) أمسانا ليرة

أولاً: المعابد الجسارية حيث كانت تقام طقوس الجنائز والصلوات على الفرعون الداخل إلى الآخرة . ومن أشهر تلك المعابد ما بناه الملك خفرع قرب هرمه الشهير ، ومعبد حتشبسوت بالدير البحرى ، غرب الأقصر الحالية ، « طيبة القديمة » (شكل ٥) . وكذا معبد الرمسوم الذى أقامه الملك رمسيس الثانى ، وهو كذلك غرب الأقصر .



(شكل ٥) معبد الدير البحرى بطيبة (الأقصر)

ثانياً: معابد الآلهة وهذه هى المعابد الكبرى ، وأشهرها معبد الكبرنك فى الأقصر الشرقية ، وهو أكبر دار للعبادة على وجه الأرض ، واشترك فى بنائه عدد كبير من الفراعنة ، وخصصوه للإله آمون . ومن هذه كذلك معبد الأقصر ومعبد أبو سنبل اللذين نحتهما رمسيس الثانى فى تلال بلاد النوبة (شكل ٦) . وتشير تماثيل المصريين إلى ما كانوا عليه من مهارة فنية وقدرة فى النحت فى أشد الصخور صلابة . ومن أشهر مخلقاتهم فى هذا النوع من الفن البارع تمثال



(شكل ٦) معبد أبوسنبل الكبير بالنوبة

الملك خُفرع، من حجر الديوريت الذى تترامى فيه عظمة صاحبه وأبيه ملكه
(شكل ٧) . ويمثل تحتمس الثالث من حجر الشست الذى أظهر الفنان فيه
نضرة الصبا وجمال الشباب .

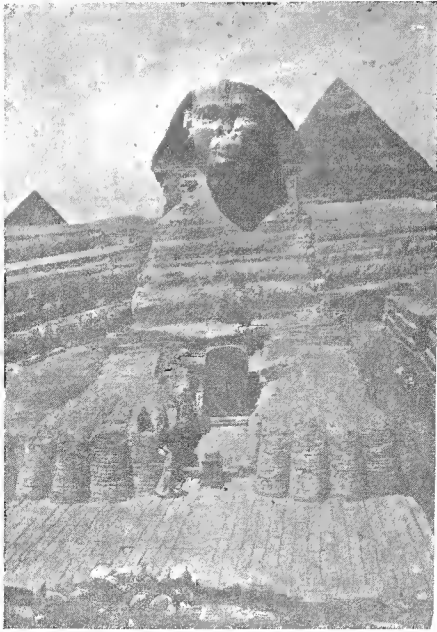
وامتاز الكثير من تماثيل المصريين بالضخامة ، مثل تمثال أنى الهول ، بالقرب
من هرم الملك خُفرع ، وهو على هيئة أسد يرمز إلى قوة الجسد ، أما الرأس فرأس
آدى رمزاً إلى نعمة العقل (شكل ٨) . ويرى المصريون كذلك فى نحت المسلات
الشاهقة ، ونقلوها من محاجر أسوان وأقاموها فى مختلف المدن المصرية الهامة ،
ومنها مسلة عين شمس الحالية فى ضواحي القاهرة . وكانت قم المسلات تكسى
بصفائح من مخلوط الذهب والفضة ، فإذا أشرقت عليها الشمس انعكست عليها
الآشعة الشمسية .

أما النقوش والرسوم المصرية القديمة فكانت على نوعين وهما :

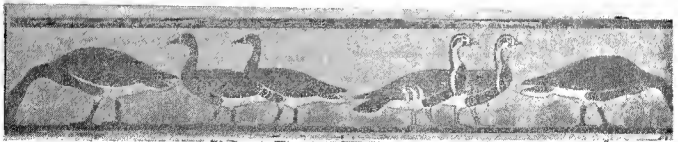
(١) التصوير والتلوين على جدران القبور والقصور .



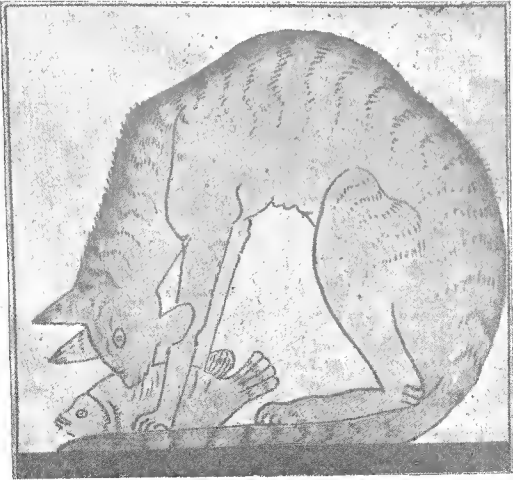
(شکل ۷) تمثال خفرع



(شكل ٨) تمثال أبي الهول



(شكل ٩) نموذج للفن المصري القديم — صورة رائعة للألوان التي مازالت تحتفظ برونقها
منذ آلاف السنين — معروضة في المتحف المصري



(شكل ١٠) رسم لفطة تنلهم سمكة

(٢) والنقوش البارزة والفائرة في المعابد (شكل ٩ ، ١٠)

وتظهر دقة الفنون المصرية القديمة في الآثار التي وجدت في مقبرة توت
عنخ آمون ، وهي تشمل على كراسي وأسرة وصناديق وتمائيل ومساند خشبية
للرأس ، مختلفة الألوان والأشكال ، مصفحة بالذهب ومزينة بال عاج ، وحلي
وصولجانان وأوعية وأكواب من المرمر ، وذلك فضلا عن تابوت من الذهب
الخالص ، وعجلات ملكية ، كلها جميعا آية في الروعة والجمال ، وهي تنطق بمهارة
الفنان المصري ورأعته ودقة صناعته .

رابعاً : الآداب والعلوم :

اهتدى المصريون إلى الكتابة، التي أطلق عليها اليونان فيما بعد الخط الهيرُوغليفي، أي النقش المقدس . واعتمدت هذه الكتابة على مافى الطبيعة من صور الإنسان والنبات والحيوان والطيور والجماد ، وكانت تستخدم في النقش على جدران المعابد والمقابر، وخاصة في تسجيل النصوص الدينية . ونظراً لتعدد استعمال الخط الهيروغليفي في الكتابات اليومية ، اختزله المصريون إلى نوع مبسط عُرف بالخط الهيراطيقي، أي الكهنوتي، للكتابة على أوراق البردى ، وقطع الخبز والخشب ، وبه دُوِّنت أغلب آداب المصريين . وفي العهد المتأخر من تاريخ الفراعنة مال المصريون إلى كتابة لغتهم الدارجة ، فكتبوها بخط أكثر بساطة ، حتى لا تكاد تتضح فيه أصل الأشارات القديمة ، ويعرف هذا الخط الثالث باسم الخط الديموطيقي . ولما وصلت المسيحية إلى مصر عد أتباعها الأولون إلى التخلص من الوثنية بكتابة لغتهم الديموطيقية بحروف يونانية وأصبح ، يطلق عليها في كتب العلماء ، اللغة القبطية .

وكتب المصريون في أوراق وقراطيس صنعوها من سيقان البردى ، وكانوا يكتبون عليها بمداد أسود أو أحمر ، مستخدمين في ذلك أقلاما من البوص . ومن تلك القراطيس نقل التاريخ أكثر ما نعرف من حضارة المصريين ، وما عندهم من أخبار الحروب والبناء ، ومن تراث العلوم والمعارف ، ومن الأساطير والقصص والقصائد الشعرية .

ونحن لا نعرف أمة قديمة من أمم الأرض اهتمت بالعلم والمعرفة والتربية والتعليم إهتمام المصريين بها . وبشعر القاريء الذي ينظر في آداب المصريين .

«بعمق النظرية المصرية إلى هذه النواحي التنقيفية»، وكل ذلك بفضل سيقهم إلى الإسلام بفنون الكتابة .

وللمصريين القدماء تراث زاخر من الأدب ، يمثل حياتهم اليومية أصديق تمثيل ، وهو أدب يرجع تدوينه إلى بناء الأهرام ، ولسكن أروع نماذجه هو ما خلفته لنا أيام الدولة الوسطى . واحتذى المصريون حذو أدب الدولة الوسطى في البلاغة والتصوير وجودة التعبير . ومن أجدر هذه النماذج بالإنجاب الأدب الديني ، إذ تناول الخليفة والحياة الأخرى ، وعقيدة البعث والحساب ، وأكتمها وأرابعها ، كما تضمن عدداً كبيراً من الصلوات والأناشيد والترانيم الدينية .

ومن أقدم أمثلة الأدب الديني « نصوص الأهرام » ، المسجلة على جدران بعض الأهرامات ، تتكون عوناً للميت في الحياة الأخرى . وبلى هذه في الأهمية والروعة ما يعرف باسم « نصوص الأكفان » ، وكانت تدون على جوانب القوالب . أما نصوص « كتاب الموتى » فهي كتابات دينية من نفس الطراز ، كانت تدون على قرطيس البردي ، ثم توضع مع الميت .

وبرع المصريون القدماء كذلك في الأدب القصصي . وكانت بعض القصص واقعية تصويرية لما حدث في أيامهم ، وكان البعض الآخر خرافياً تصدوا منه الموعظة الحسنة .

وثمة نوع ثالث من الأدب وهو الأدب التهذيبي ، الذي تضمن التعاليم أو الحكم والنصائح ، والوصايا السياسية والحقائق . ومن أشهر ذلك النوع نصائح الحكيم « بتاح حُب » التي اتخذها المصريون القدماء أساساً للتربية والسلوك ، وآتى لا تزال نسمع ما يشبهها إلى الآن .

وخلف المصريون القدماء كذلك نوعاً من الأدب هو بين النظم والنثر ، ومعظمه يرمى إلى تمجيد أعمال فرعون والإشادة بفضله وبطولاته .

وقد نبغ المصريون في الفلك ، فقاموا النهار بساعات شمسية ، والليل بساعات مائية (شكل ١١) ، وأخذوا بالتقويم الشمسي في الألف الخامس قبل الميلاد ، وعرفوا مواقع الكثير من الكواكب والنجوم . كما برعوا في الحساب والهندسة والمساحة بوجه خاص . أما الطب المصرى فعرف الكثير من قواعد التشريح بفضل الاهتمام بالتحنيط بعد الموت ، ولكن يُعاب عليه أنه كان مشوباً بانحرافات ، والتعاويز السحرية . ويُعدُّ المصريون أول من عرف الكيمياء ، حتى اشتق العرب هذا اللفظ من الكلمة « كيمية » ، التى سبى بها المصريون ميلادهم ، ومعناها « الأرض السوداء » .



(شكل ١١) ساعة مائية

خامساً : الحياة الاقتصادية :

بذل المصريون جهوداً كبيرة في سبيل ضبط مياه النيل، وتنظيم شئون الري، وتوزيع المياه توزيعاً عادلاً لصيانة مصالح الزراعة والمزارعين ، ولذلك حُفِرَت القنوات وشقت الترعُ وأنشئت الجسورُ وأقيمت السدود لحجز الماء وادخاره . وبلغت محاصيل مصر الزراعية ، وبخاصة الحبوب ، درجةً من الجودة والوفرة أكسبتها شهرةً كبيرةً بين أقطار العالم القديم ، ومن أشهر هذه المحاصيل القمحُ والشعيرُ لعمل الخبز والقطائر والجمعة ، ثم الكتان لصنع الأقمشة ، ثم البقول كالعدس والحمص والترمس والفلول . - وزرع المصريون الكثير من الخضروات كالنخس والبصل والخيار ، وكذلك السمسم والخروع لاستخراج الزيوت . واهتم المصريون بزراعة حدائق الفاكهة، كالنخس والمان والذنب والجميز (فاكهة قريبة الشبه من التين) والبلح . . . كما زرعوا الأزهار في هذه الحدائق . وأحب المصريون القدماء الأزهار ، وزينوا بها بيوتهم وموائدهم ، وصنعوا منها الباقات والتيجان والقلائد التي استخدموها في الاحتفالات والأعياد .

وكان المصريون القدماء يحكم حياتهم الزراعية يهتمون بتربية الحيوانات ، وكان الفلاح يستغل هذه الحيوانات في أعمال الزراعة والنقل ، كما كان ينتفع بأصوافها وأوبارها وجلودها ولحومها . وكان البقر في المكانة الأولى بين أنواع الحيوان التي انتفع بها الفلاحون ، يليها الضأن والماعز والخنازير ، أما الجمل فلم يُعرف في مصر إلا منذ أيام البطالمة (شكل ١٢) .

وإلى جانب الزراعة وتربية الماشية عُنى المصريون بالصناعات ، وأهمها صناعات النخس في الحبر والخشب والمعدن ، وصناعة النسيج . وتعد الصناعات



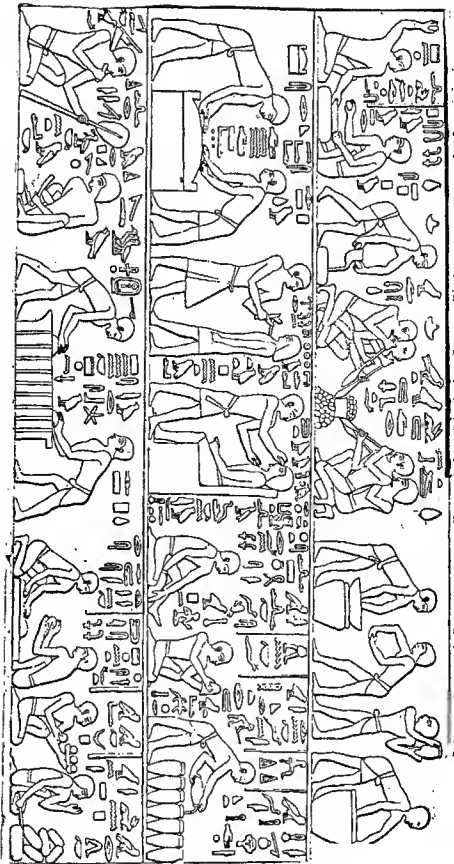
(شكل ١٢) الحث والحداد عند قدماء المصريين

الحجرية على وجه التخصص أقدم صناعة زاو لها الإنسان . فمن الحجر اتخذ سلاحه وأدواته في العصر الحجري القديم ، كما صنع المصريون منه في العصور التاريخية أواني وأوعية وحِراكاً وصحافاً كانت كلها آية في الجمال .

ومهر المصريون القدماء في الصناعات الخزفية والزجاجية . وتدل صناعة تلك الأدوات على ذوق فني رفيع ، ويشير إلى ما بلغه الصانع المصري في العصور القديمة من جودة الإتقان والبراعة في الزخرفة والتلوين . كذلك صنع المصريون الحلى وأدوات الزينة والأواني والأسلحة ، من الذهب والفضة والنحاس والبرونز . وبرع المصريون القدماء كذلك في صناعة الأثاث والسفن والتوابيت ، وذلك فضلاً عن الصناعات الجلدية من النعال والسيور والوسائد وسروج الخليل . (شكل ١٣) .

واشتهل المصريون القدماء بالتجارة منذ أقدم عصورهم ، فمهروا فيها وأتقنوا . أساليبها ، وضبطوا قواعدها وحساباتها ، كما عرفوا عقود البيع والشراء والسجلات والإيصالات ، فكثرت لديهم السكّات والحاسيون . ونشطت حركة التجارة بين المدن المصرية القديمة . وجرت السفن في النيل وفروعه تنقل المحاصيل الزراعية والماشية إلى الأسواق المحلية القريبة ، حيث يتسّاع الفلاحون ويتقاضيون على الأسماك والطيور والخضروات والعطور والزيوت ، وغير ذلك من المنتجات . (شكل ١٤)

وازدهرت حركة التبادل التجاري مع البلاد الخارجية ، إذ لم يجد المصريون في بلادهم ما يكفي حاجتهم من موارد ، فاتصلوا بالبلاد الميطحة بهم منذ أقدم الأزمنة . وسارت السفن المصرية في البحر المتوسط والأحمر تحمل بضائع مصر من حبوب ومنسوجات كتانية وورق وحلى إلى فينيقيا وبلاد بُلْتُ (اليمن) وجزر البحر المتوسط ، ثم تعود مثقلة بمختلف السلع والبضائع . كذلك اتجر



(شكل ١٣) بعض الحرف والصناعات في مصر القديمة

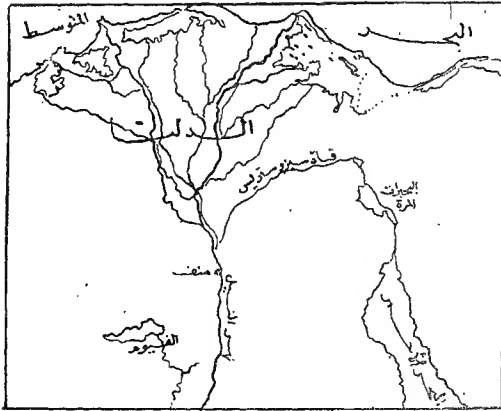


(شكل ١٤) منظر لسوق على

المصريون القدماء مع النوبة والسودان ، وكانت مدينة أسوان سوقاً للتبادل التجاري بين الجنوب والشمال .

ولتسهيل الملاحة في البحر الأحمر شق مُسقِرُ الثالث ، أحد ملوك الدولة الوسطى ، قناة تصل بين النيل وخليج السويس عن طريق وادي الطُمِيْلَات والبحيرات المرّة ، وتعد هذه القناة أقدم طريق مائي وصل بين البحر المتوسط والبحر الأحمر (خريطة رقم ٦) .

وقد نتج عن هذه الصلات التجارية ارتباطُ مصر بالمدن الفينيقية . وكانت مدينة بِنَلُوس ('جبيل') من أوثق المدن الفينيقية صلةً بمصر ، إذ ورد ذكرها في قصة إيزيس وأوزوريس ، ووجد بها كثير من التماثيل المصرية القديمة ، والأحجار التي تحمل أسماء فراعنه مصر . ووصف لنا « وين آمون » ، وكان موظفاً في مصر القديمة ، ما لقيه من أهوال في رحلته إلى رفيعا حوالى سنة ١١٠٠ ق.م . ليجلب بعض الأخشاب . فقص علينا كيف نجا من السفن التي اعترضت طريق عودته تَبغِي سلبه بضاعته ، ثم سرد خبر العاصفة العاتية التي ألقت به إلى جزيرة



(خريطة رقم ٦)
القناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر

مُقبِرُص ، حيث قبض عليه أهلها ، ولم يستطع الخلاصَ منهم إلا بعد
محاولات شاقة عسيرة .

الفصل الثاني

الحضارة القديمة في وادي الرافدين

لمحة جغرافية وتاريخية :

في القسم الشرقي من الهلال الخصيب يقع العراق ، ويسمى وادي الرافدين وما بين النهرين أى دجلة والفرات . وتتألف العراق من سهل منبسطة في الجنوب يأخذ في الارتفاع تدريجياً نحو الوسط والشمال حتى أطراف هضبة الأنضاسول وحدود الجمهورية التركية . وسمى جنوب هذا السهل منذ القديم «سهل شنعار» ، وهو من أخصب بقاع العالم ، وفيه قامت حضارات عظيمة . ولئن كانت مصر هبة النيل ، فالعراق هبة الرافدين ، لولاها لكان جزءاً مهماً من الصحارى في غربه وجنوبه ، وبفضلهما أصبحت الزراعة قوام الحضارة في العراق .

(خريطة رقم ٧)

وأول الأمم التي استقرت في بلاد الرافدين أمّة السومريين الأوّلين التي سكنت جنوبي البلاد (سهل شنعار) ، ولم تلبث أن سيطرت على البلاد . ثم أعقب ذلك مجيء أقوام سامية مختلفة من الأكاديين والأموريين ، الذين أطلق الباحثون عليهم اسم البابليين نسبة إلى عاصمتهم بابل .

وبرغم أن تاريخ العراق الممدون يبدأ من عام (٣٣٠٠ ق.م) تقريباً ، فإننا نستطيع تصوير البدايات الحضارية بالعراق قبل هذا الزمن بوقت طويل . وفي أثناء تلك البدايات الحضارية كان الطوفان العظيم ، حوالي الألف الرابع ق.م . في سهل شنعار فأهلك معظم السكان .



(شكل ١٥) بقايا مدينة أور السومرية

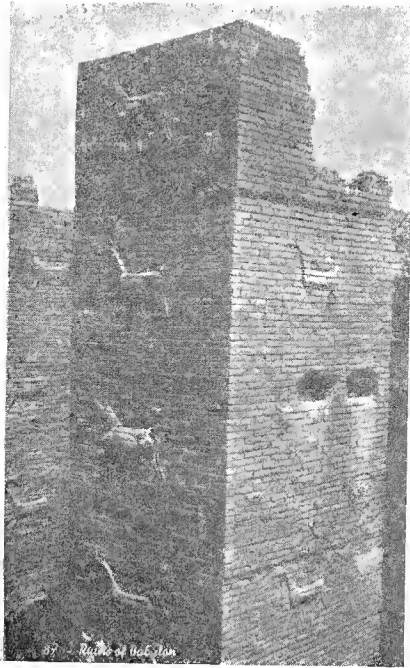
من سهل شِنْعَارْ . والأكاديون من أصل سامي (من الجزيرة العربية) ، نزلوا سهل شِنْعَارْ حوالي (٣٤٠٠ ق . م) ، وتنازعوا على السلطة مع السومريين حتى قام سَارْجُونُ الأول الأَكَّادِي ، وقضى على دولة السُومَرِيِّين . فكان أول قائد سامي عرفه التاريخ ، ومؤسس أول مملكة عظيمة في غربي آسيا بعد أن جعل عاصمتها أَكَّادَ في وسط البلاد ، ووصلت سيطرته إلى بلاد عيلام في الشرق وإلى سُورِيَّةَ في الغرب . وكانت مظاهر العز والنراء في المدن السُومَرِيَّةَ والأَكَّادِيَّةَ حافزاً لطمع الأمم المجاورة في الاستيلاء عليها .

وتم ذلك حين تحالف العيلاميون مع الأموريين في مملكة فارس الواقعة على الفرات قرب البوكمال ، فأخضعوا سُومَرَ وأَكَّاد لحكمهم مدة من الزمان . ثم انفرد الأموريون في السيطرة والتغلب على العيلاميين بعد تدفق الموجات الأمورية (٢٥٠٠ ق . م) من الجزيرة العربية ، حيث أسسوا الدولة البابلية

الأولى التي اتخذت من مدينة بابل عاصمة (شكل ١٦) ، والتي يعد «سُحُورَ ابى» من أعظم ملوكها ، إذ وَحَّدَ البلادَ ونظمها ، وقام بوضع القوانين والتشريعات وتدريبها ، وبذلك سجل عمله أولَ تشريع خطير عرفه تاريخ البشر . ولكن هذه الحال لم تظل طويلا ، بل ضعفت مملكة بابل بعد سُحُورَ ابى . وشهدت البلاد فترة من الفوضى والانحلال حتى أقام الأَشُورِيون الساميون دولتهم على الجرد الحربى الذى بلغ أَوْجَهه فى القرن الثامن ق . م .

واشتهر من ملوك الأَشُوريين سَارْجُونُ الثانى . وسنحارب ، وآشُورُ بَارْئِبَالٍ وهم الذين تغابوا على البابليين والعميلانيين ، فضلا عن الممالك الفينيقية والآرامية . ثم لم تلبث الأمم التى خضعت للأَشُوريين وحكمهم القلبي أن ثارت ضدهم وعتت الإضطرابات أركان الدولة الأَشُورية ، واضطربت الميديون وقضوا عليها واقتسموها . فسيطر البابليون على بلاد الرافدين وسورية ، على حين استولى الميديون على بلاد الأناضول . وبذلك كان الميديون فى سُلْطَانٍ مستمر ضد جيرانهم الفرس كانت الفرصة سانحة لكذلك إثنين الساميين لبيسط نفوذهم على «الهلل الخصب» كله ، حيث أقاموا الدولة البابلية الثانية وشيدوا حضارة رائعة . واشتهر من ملوكهم بُحْتُنُصَر (٦٠٤ - ٥٦١ ق . م) وهو الذى شرد بنى إسرائيل ، وحملهم أسرى إلى بابل بعد أن استولى على أورشليم (القدس) . ثم أعاد بُحْتُنُصَر إلى بابل مجددا القديم وجعل منها عروس الشرق فى ذلك العصر .

وكان الملوك البابليون الذين سَخَلُوهُ على درجة ملحوظة من الضعف ، فسقطت الدولة البابلية الثانية عندما هاجتها جيوش كُورَش ملك الفرس وذلك عام ٥٣٩ ق . م . وبذلك انتقلت السيطرة فى الشرق من الساميين إلى يد الآريين ، وَرَدَّ حَتَّ بلاد الرافدين تحت حكم الفرس إلى أن جاء الإسكندر



(شكل ١٦) بقايا مدينة بابل

الْمَقْدُونِي وَانْتَصَرَ عَلَى الْجَيْشِ الْفَارِسِيِّ بِقِيَادَةِ دَارَا الثَّالِثِ (٣٣١ ق م .) ،
وَدَخَلَ بَابِلَ وَأَعْلَنَ نَفْسَهُ مَلِكًا عَلَيْهَا . وَلَمَّا تَمَسَّكَتْ أُمَةُ الْفَرَسِ الْبَارْتِيَّةُ مِنْ
مِنْ أَجْلَاءِ السَّلُوقِيِّينَ ، حُلِقَ الْإِسْكَندَرُ ، عَنْ إِيرَانَ وَبِلَادِ الرَّافِدِيِّينَ ، عَادَتْ هَذِهِ
الْبِلَادُ إِلَى حُكْمِ الْفَرَسِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي ق . م . وَفِي عَهْدِ الْفَرَسِ السَّاسَانِيِّينَ الَّذِينَ
خَلَفُوا الْبَارْتِيِّينَ دَخَلَتْ مَوْجَةٌ مِنَ اللَّخْمِيِّينَ الْعَرَبِ ، وَمَعَهُمُ الْمَنَازِيرَةُ ، إِلَى أَوَاسِطِ
الْعِرَاقِ ، وَكَانُوا فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَحْيَانِ عَوْنًا لِلْسَّاسَانِيِّينَ ضِدَّ الْبِيْزَنْطِيِّينَ وَأَعْوَانِهِمْ مِنْ
عَرَبِ الْفَسَّاسَةِ فِي الشَّامِ قُبَيْلَ ظَهْوَرِ الْإِسْلَامِ : وَفِي سَنَوَاتِ الضَّعْفِ الَّتِي
انْتَابَتِ الدَّوْلَةَ السَّاسَانِيَّةَ أَوَّخِرَ أَيَّامِهَا حَاطَتْ الْقَضَاءُ عَلَى حُكْمِ الْمَنَازِيرَةِ فِي
الْحَيْرَةِ ، وَقَامَتْ قِبَائِلُ الْعَرَبِ مُتَّحِدَةً جَبَرَوْتَ الْفَرَسَ السَّاسَانِيِّينَ ، وَنَالَتْ
نَصْرًا مُؤَزَّرًا فِي وَاقِعَةِ ذِي قَارِ (٦٠٤ — ٦١١ م) .

مظاهر الحضارة في وادي الرافدين

أولاً : الحياة السياسية — تأسيس حكومات المدن

لم تسكن الحياة في بلاد الرافدين آمنة مطمئنة في البداية ، لأن المنازعة والغلبة كانت من الأمور المألوفة في ضياع السومريين ومزارعهم الصغيرة . ومن هنا بدأ كثير من السكان ينزعون إلى المعيشة الجماعية ، فأسسوا المدن وأحاطوها بالسدود ضد الفيضانات المفاجئة ، وأقاموا الأسوار حول المدن للدفاع عنها . وظهر أول نوع من حكومات المدن عند مقام بعض الأفراد من الأسر القوية في المدينة واهتموا بالحفاظ على سلامة أهاليها وأموالها ضد المعتصبين المجاورين ، حتى إذا سيطرت بعض المدن الكبيرة على غيرها من المدن نجم عن ذلك دويلات صغيرة عمل ملوكها للسيطرة على الدويلات الأخرى ، فهضمت الدول الكبيرة ، ثم تفككت وانهارت في أعقاب موت ملوكها الأقوياء . وكانت السلطة كلها بيد الملك وهو نائب الإله المعبود في المدينة ، ووكيله المختار بين الناس للحكم والنظر في شئون الدين . ولما كان الإله المعبود مطلق التصرف كان نائبه الملك كذلك ، وبما أن الملكية هبة من الإله فمن الممكن أن لا يتكون وراثية . ولذا عمد رجال البلاط أو قادة الجيش في بعض الأحيان إلى اختيار رجل يزعمون أن الإله اختاره للحكم ، ويباركونه بالخفلات الدينية التقليدية . والملك لا يفعل شيئاً إلا بعد استشارة الإله ، فلا تعلن الحرب ولا يبرم الصلح ولا يبنى معبد أو تحفر قناة إلا بإعاز منه . ويشرف الملك على طقوس العبادة بنفسه ، ويرأس الاحتفالات الدينية ويمجد المعابد ويوسمها حتى ينصره الإله على أعدائه .

وربما يحدث أن يرفع بعض الملوك أنفسهم إلى مرتبة الآلهة ، ولكن هذا الأمر لم يكن قويا في بلاد الرافدين كما كان في مصر القديمة . بل اعترف الملك دائما بخضوعه للاله دون أن يمنعه ذلك من اتخاذ شارات أو ألقاب الآلهة . ومثال ذلك أن الملك حمورابي كان يدعو نفسه أحيانا حمورابي الإله ، مع أنه كان يضيف أنه عابد الآلهة وأنه يخشاها .

وبمساعدة الملك رجال الإدارة، ويوجد منهم في قصره عدد كبير من أفراد أسرته وكبار الموظفين والمستشارين والسكتبة والمهندسين والقضاة . وكان يوجد في كل مدينة مجلس للشيخ يتأهه الملك ويجمعه عند الحاجة . واعتنى الملوك وموظفهم بالزراعة واستثمار الأراضي والعناية بفتح الترع وتنظيف القنوات وشق الطرق وتعبيدها .

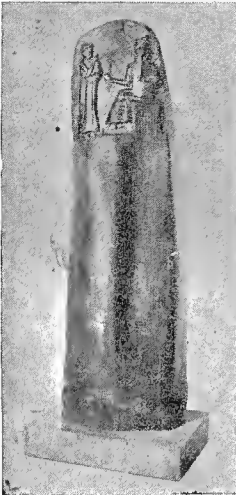
وتولى الملك قيادة الجيش ؛ وتألف الجيش زمن السومريين من المشاة ، وسلاحهم المقاليع والفؤوس والحراب والرماح ، واتخذ الجنود من أدوات الحماية الخوذات والدروع . وأضاف الأكاديون إلى الأسلحة السابقة الأقواس والسهام . وأما الآشوريون فأنشأوا جيشا ثابتا ، وحددوا عدد الجنود الذين يتحتم على كل مقاطعة أن تقدمهم للملك ، وأكثروا من استخدام الخيل في جيشهم . بعد أن تعلموا استخدام الحصان في الحروب . وأوجد الآشوريون فرق الخيالة . وفرق المركبات الحربية ، كما أتقنوا فن الحصار وحرب الحصون . واشتهر الآشوريون بالتنكيل بأعدائهم، فكان النهب والاحراق والهدم والنفي والسبي . والتمثل بالأعداء من الأمور المألوفة إذا استولوا على مدينة ما .

ولم يوجد لدى سكان بلاد الرافدين قوة بحرية إلا بعد أن سيطر

الأشوريون على سورية، وجاؤوا بالبحارة الفينيقيين، واستخدموهم في صناعة أسطول نهري بحري يسير بالمجاديف والأشرعة .

القانون :

عثر علماء الآثار على كثير من الرُّقُم تتضمن بعضَ المعاملات التجارية والإدارية ، والقواعد القانونية منذ عهد فجر السالات والدولة السومرية الأولى في موضع مدينة سُوْرَا عاصمة العيلاميين .



وفي أوائل القرن الحالي وجد نَصَبٌ من الحجر الأسود ، ويحتوى على صورة الإله — الشمس — جالساً على عرشه وهو يقدم ألواح الشريعة إلى الملك «سُخُورَابِي» . وأما القسم السفلى من النصب فقد نقش عليه بالخط المسماري (الاسفني) ، وباللغة البابلية مجموعة قوانين هذه الشريعة . ويبدو أن النصب نُقِلَ فيما نُقِلَ من غنائم الحرب عند انتصار أحد ملوك العيلاميين على البابليين في آخر عهد دولتهم (شكل ١٧) .

(شكل ١٧)

لوح القوانين من عهد الملك سُخُورَابِي

ولم يبتدع حُورابى قواعد تشريعية ، وإنما أفاد من القوانين القديمة في سُوْمَرُ وأصلحها وهذا ، حتى أصبحت نموذجاً اقتبست منه الامبراطوريات الآشورية وغيرها فيما بعد . وتتألف شريعة حورابى من ٢٧٢ مادة لتنظيم شؤون : الملكية الخاصة ، المقارات ، التجارة ، العمل ، العائلة ، الجرائم والعقوبات . ويقسم قانون حورابى الهيئـة الاجتماعية إلى ثلاث طبقات وهم : الأحرار ، والعبيد ، وطبقة متوسطة ، يعتبر الفرد فيها أرفع قيمة من العبد ، إذ يحق له امتلاك العبيد والأرض وتزوج بنات الأحرار ، ولكنه لم يكن مساوياً للأحرار أمام القانون . والمبدأ العام فى شريعة حوررابى هو مبدأ المعاملة بالمثل ، فإذا تسبب أحد الأحرار فى كسر ذراع آخر من طبقة فـعقابه كسر ذراعه أو دفع غرامة مُحددة ، وتضاعف قيمة الذراع إذا كان مُسبب الكسر من طبقة أدنى . وإذا أخطأ مهندس فى بناء دار وتهدمت على رؤوس أصحابها عوقب بالموت .

وتشبه القوانين الآشورية فى صيغتها مواد شريعة حورابى ، وإن كانت أشد فى أحكامها وأوسع ، وخاصة فيما يتعلق بالمرأة . فمثلاً أجازت القوانين الآشورية قتل الزوجة التى تأخذ متاعاً خاصاً ببيت الزوجية وتعطيه لآخر ، كما أعطت الزوج حق صلِّم أذى زوجته أو جـدع أنفها إذا ارتكبت سرقة . ووجه الأهمية فى شريعة حورابى هو دلالتها على درجة التطور الفكرى والتنظيم الاجتماعى الذى وصل إليه الإنسان فى مثل هذا الزمن المـوغل فى القدم .

ثانياً - الحياة الاقتصادية :

الزراعة :

كان أهم الأعمال الزراعية التي قام بها سكان الرافدين في العصور القديمة هي تجفيف الأراضي الواسعة للنبسطة ، وإعدادها للحراث والبذر في الأوقات المناسبة . ولذا استطاعت بلاد الرافدين أن تعطى كميات هائلة من القمح والحبوب الغذائية . وكان من الطبيعي أن تنظم العلاقات بين أصحاب الأراضي والمزارعين ، ولذا حدد قانون حمورابي هذه العلاقات ، وأوجب على الملاك أن يعتنوا بالترع والنواظم المائية والسدود ، فإذا أهملوا وألحقت الفيضانات الضرر بحيرانهم دفعوا غرامات كبيرة قد تؤدي إلى بيعهم المزارعين ببيع الرقيق . وكانت الحارث تصنع من الحجارة ، ثم تحسنت حتى أوجد السومريون محراثاً تتصل به قصبية جوفاء لبذر البذور . وكانوا يدرسون المحاصيل بعربات كبيرة من الخشب رُكبت فيها أسنان من حجر الصوان لتفتيت القش ، ليسكون عافاً للماشية ، وللفصل الحب ، ليكون طعاماً للناس .

الصناعة :

وتدل الآثار على أن السومريين صنعوا أسلحتهم وحليهم وأدواتهم من معادن النحاس والفضة والذهب . وبرعت منهم طوائفٌ اشتهرت بصناعة الحلي من الذهب والفضة منذ أقدم العصور ، ومنهم طوائف الصابئة في العصر الحاضر (شكل ١٨) :

وتدل المكتشفات التي أخرجت من مقابر أور ، في جنوب العراق على



(شكل ١٨) حلى سومرية فوق تمثال حديث

درجة عالية من الإتقان والدق الفنى . واستورد أهل بلاد الرافدين الفضة والذهب من فارس وآسيا الصغرى . أما البرونز فاستخدمه السكان فى صناعة الأسلحة والأدوات والتماثيل لصلايته بدلا من النحاس، ويبدو أن الحديد كان من المعادن الثمينة النادرة . وكانت صناعة النّطعيم بالمعادن الثمينة والصدف والعاج راقية، كما انتشرت صناعة الفسيفساج حتى صار رجال الطبقة العليا يلبسون الأردية الصوفية المزركشة الحواشى بخيوط الذهب والفضة . واشتهر أهل الرافدين القدماء بصناء البسط

والآجر الأبيض المنقوش، والخزف الملون، كما اشتهروا بالصباغة والحداة
والعجّارة وصناعة القوارب من الخوص المطلى بالقار.

التجارة وطرق المواصلات:

كانت مبادلة سلع التجارة الداخلية تتم في السوق والمدينة، حيث تباع
الحبوب ومستلزمات الحياة اليومية. وكانت المبادلة تتم عتياً بادیء الأمر أمقابل
أيام عمل. وبدأ استعمال النقود عندما صارت المبادلات تتم في عهد الدولة
الأشورية بواسطة سبائك معدنية مختومة بخاتم الدولة.

وفي شريعته حمورابي نصوص خاصة بالمعاملات التجارية وعقود التوكيل
وموقع الشهود. وحُلف الممين، ومَنع الربّ الفاحش... الخ.

أما التجارة الخارجية فكانت تُحمل على ظهور الجمال تسير بها في قوافل،
وكان معظم تجارة بلاد الرافدين مع بلاد آسيا الصغرى وسورية والجزيرة العربية،
فوصلت قوافلها إلى مصر والهند والقوقاز. والتزمت طرق المواصلات شواطئ
دجلة والفرات، فاتجه طريق رئيس إلى حرّان وحلب والأناضول، واتجه طريق
آخر إلى تدمر ودمشق وبلاد الشام الجنوبية.

ثالثاً: الحياة الدينية :

تعددت الآلهة والمعبودات لدى أهل بلاد الرافدين في العصور القديمة، فكان
لكل مدينة ولكل ولاية إلهٌ يحميها. ومن هذه الآلهة تنجرسو إله الرى، ثم
سين إله القمر. وشيدت مدينة نبور معبدًا كبيراً للآله أنليد إله الجو والهواء،
أما إله الشمس (نور الآلهة) فنشأت عبادته في بلاد سومر. واعتقد السومريون

أن هذا الإله يقضى الليل في الأعماق الشمالية حتى يفتح له الفجر أبوابه فيصعد في السماء ويضرب بعربته في أعماق القبة الزرقاء . وعند ما تأسست الدولة البابلية الأولى على يد الساميين العرب لم ينته عهد الآلهة السومرية ، وإنما عبيد البابليون معها آلهتهم الخاصة ، ثم لم يلبث أن أصبح الإله مردوخ في زمن حورابى كبير الآلهة البابلية . وكان رأس الدولة الآشورية من الوجهة الرسمية هو الإله آشور ، وكانت الأوامر الرسمية تصدر باسمه والضرائب تجمع لخزائنه ، وكان في العادة هو الإله شمس (الشمس) مُحَسَّمًا . وآشور ذو روح حرية لا يشفق على أعدائه ، وكانت عشتار إلى جانبه ربة السماء والمعارك .

وبعد انهيار الدولة الآشورية عاد مردوخ كبير الآلهة في بابل في عهد الأباطورية السكندانية . واعتقد سكان بلاد الرافدين أن الإنسان يُجزى على عمله في الحياة الدنيا ، وأن العبادة والتقرب من الآلهة مما يطيل هذه الحياة ومما يجعلها سعيدة . وكانت عقيدة أهل العراق في العصور القديمة عن الحياة بعد الموت غامضة ، إذ كانوا يتصورون أن الموتي سوف يعيشون في مكان تحت الأرض هو عالم الأموات ، يتساوى فيه الناس ويذهب إليه الجميع الخير منهم والشرير . واعتقدوا أن الميت سيحتاج في الحياة الأخرى إلى أهله ومن يحيط به من الخدم ، ولذا وجدت في جبانة الأمراء بمدينة (أور) جثث الخرس والخدم وكذلك الثيران مشدودة إلى عجلات . وكانوا يزودون المقابر بشئ أنواع الطعام ، واعتقدوا بالحاجة إلى استعمالها في العالم الآخر .

رابعاً : الحياة الفكرية :

الآداب :

إقتصرت لغة سومر على المعابد بعد أن تساط الآكاديون الساميون على بلاد الرافدين . وكان السومريون يكتبون على ألواح طينية يرجع تاريخ أوائلها إلى ٣٢٠٠ ق.م ، وكانت الكتابة المسمارية أروع ما خلفه السومريون في التراث الحضارى العام . وسميت هذه الكتابة بهذا الاسم ، لأنها كانت تنقش على ألواح من الطين اللين (الطرى) بمنشار أو آلة حادة ، من اليمين إلى اليسار ، وكانت هذه الكتابة فى بادئ الأمر تتكون من صور كالكتابة الهيروغليفية ، تحولت إلى رموز فيما بعد . واستطاع العلماء أن يتوصلوا إلى قراءة الكتابة المسمارية نهائياً فى منتصف القرن الماضى . وقد كتب الأكاديون والبابليون والأشوريون لغاتهم بالخط المسمارى كذلك .

ويبدو أن استعمال الكتابة فى تدوين الآداب استغرق مئات من السنين ، لأن الكتابة ظلت قروناً قاصرة على تحرير المعاهدات والمراسلات الملكية والعقود والصكوك التجارية والإيصالات ونحوها ، وتسجيل الشؤون الدينية والصلاوات والأفاصيص المقدسة . ومنذ البداية ، فى الألف الثانية ق. م ، شرع السومريون فى تدوين أيامهم التاريخية . وكان الكتاب عادةً من كبار رجال الدولة والسكينة ، بحيث كان يوجد فى المعابد فضول خاصة لتعليم الكتابة على ألواح الطين .

وقد تأثر الأدب البابلي والأشورى بالأدب السومرى وتنوع كذلك ، فحوى نقوشاً تاريخية ونصوصاً دينية ، وقصصاً وأساطير وأبحاثاً علمية ونصوصاً

قانونية وعقود معاملات ومراسلات وقوائم جغرافية وجداول حسابية وفلكية وشؤوننا طيبة .

وأعظم مكتبه عثر عليها الأثرِيُون هي مكتبة آشور بانيبال في خرائب (نينوى) عاصمة آشور . ولا يزال العلماء حتى الآن يعملون للكشف عن العلوم والآداب القديمة التي سجلها هذا الملك الأشوري . وتحتوى بعض هذه الألواح الطينية على قطع أدبية . وفي هذه الآثار ترى النشأة الدينية للأدب في الأغاني والمرثى التي كان يرددها السكينة ، إذ لم تكن القصائد الأولى بما فيها من أساطير وملاحم ، أو أراجيز أو أناشيد غزلية ، بل كانت صلوات وأدعية دينية .

العلوم :

ومن الواضح أن أعمال العمران وكذا أعمال السكينة التجارية وأعمال التجار تطلبت موازين ومقاييس رسميه ثابتة . فكانت وحدة الوزن (المينا) وتنقسم إلى ٦٠ (شاقلا) والشاقل هو أصل المثلث في اللغة العربية ، أما وحدة القياس فكانت الذراع ، ووُجِدَ من المناسب أن يكون الذراع من الأضعاف البسيطة « للأصبع » ، (٢٤ أو ٣٠ حسب المناطق) . واضطرتهم أعمال الزراعة والبناء لوضع المكاييل ، وقسموا الليل والنهار إلى اثنتى عشرة ساعة مزدوجة ، واخترعوا آلات لقياس الزمن واتبعوا في الحساب السنوى التقويم القمري ، وقسموا السنة بمقتضاه إلى اثنى عشر قرأ .

واستندت علوم البابليين الرياضية إلى تقسيم الدائرة إلى ٣٦٠ درجة ، وتقسم السنة إلى ٣٦٠ يوماً . وعلى هذا الأساس وضعوا نظاماً ستينياً للعد والحساب بالسنين .

ولذا امتساز البابليون بعلم الفلك ، ورصدوا النجوم واستخدموا الخرائط البحرية لمعاونة السفن والقوافل ، وللتنبؤ بمستقبل الناس ومصائرهم ، وعرف البابليون الخسوف والكسوف ، وعينوا مسارات الكواكب وميزوا بين النجوم الثابتة والكواكب السيارة بدقة . وكانوا يرصدون النجوم بواسطة الأبراج المدرجة التي يبنونها ، والتي تسمى (زقورات) .

وقد علا شأن الطب عند سكان الرافدين ، فكل لكل داء دواء خاص . ومن أيام خورابی خرج علاج المرضى من أيدي الكهنة الذين استأثروا بمدارس الطب والعلوم . ونشأت مهنة منتظمة للأطباء ذات أجور وعقوبات يحددها القانون .

خامساً - الحياة الفنية :

العمارة :

كان الآجر مادة البناء الوحيدة في بلاد الرافدين الغربية ، كان هذا الآجر الأبيض إما لبناً أو مطبوخاً بالنار ، بيد أن السومري كان يشيد بهذا الآجر للبناء الكبيرة . وكانت البيوت تبنى من الطين أو من الآجر النيء ، فلما كان لها نوافذ . أما الهيكل فكان بناء ضخماً من الآجر مشيداً حول فناء تقام فيه معظم الحفلات الدينية . ويقوم إلى جوار المعبد غالباً برج عال مدرج يسمى بلقهم (زقورة) ، ومعناها مكان عال ، تتكون من طبقات مكعبة الشكل بعضها فوق بعض ، وتتناقص كلما علت ويحيط بها سلم من خارجها ، وتستعمل إما كمنار للإله صاحب الهيكل أو لأغراض الفلك والتنجيم .

وبقى فن العمارة البابلي فناً ثقيلاً خالياً من الجمال والأناقة ، لأن الآجر لا يعين على السمو والجمال اللذين هما روح العمارة . ومع أن الحجارة كانت متوفرة في شمال بلاد الرافدين غير أن الآشوريين لم يستعملوها إلا قليلاً في مبانيهم .

وقد ترك لنا البابليون والآشوريون بعض الصور البارزة التي يبدو فيها
أعمدة تيجان زهرية تستند على رؤوس حيوانات ، كالأسد وغيره ، مما يدل على
استعمالها أيضاً في المباني . واشتهرت بابل بالحدائق المعلقة المتدرجة على هيئة
(زقورات) .

فن النحت :

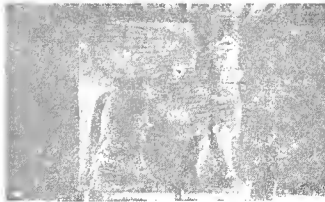
لم يصل فن النحت في بلاد الرافدين إلى درجة عالية بسبب قلة الصخور
المالحة للنحت ، ولذا لجأ أهل البلاد إلى استخدام المعادن وخاصة النحاس في هذا
الغرض . وأشهر ما تركه لنا السوميريون من آيات النحت صورة الملك «أورنأ نشه»
وعائلته أثناء القيام بعبادة أحد المعابد ، وكذلك بعض التماثيل الملصقة القيمة ،
والخلى الرائعة . وقد استخدم البابليون طوباً خزفياً لتزيين المباني .

أما الآثار الآشورية المنجوتة فهي أهم نماذج النحت في بلاد الرافدين ، نعتز
عليها في قصور الآشوريين ومعابدهم كالثيران المجنحة والأسود التي كانت توضع
في مدخل القصر لتحميه من الأرواح . وما من شك في أن الفن القديم لم ينبج
في نحت الحيوانات نجاح الفن الآشوري ، فالعين لا تمل من النظر إلى حركات
الحيوانات القوية ونفورها العاصي ، وهل هناك ما هو أروع من نقوش اللبوة
الجريئة التي عثر عليها في قصر سنحاريب في نينوى ، أو مناظر الصيد في
بعض القصور !! (شكل ١٩ ، ٢٠)



(شکل ۱۹)

رأس تنال حجری لاک سومری



(شکل ۲۰)

نور مجنح من عهد الاشوریین

الفصل الثالث

الحضارة القديمة في الشام

لمحة جغرافية تاريخية :

لبلاد الشام مقامٌ فريد في الجغرافيا والتاريخ ، فهي تقع في قلب الشرق الأدنى بين هضبة الأناضول شمالاً ومصر والجزيرة العربية جنوباً ، وبلاد الرافدين شرقاً . فكانت الشام وسيلة الاتصال بين حضارات الشرق القديم ، أي بين مصر من جهة ، وبلاد الرافدين من جهة أخرى . وكانت الشام تجمع من حضارة هذه وتلك وتوحد بينهما ، وتضيف إليهما من حضارتها الأصلية وتجعل من ذلك مزيجاً حضارياً جديداً . ومن أوضح الأمثلة على ذلك اختراع الحروف الأبجدية لأول مرة في تاريخ البشرية . اخترعتها الشام بعد مدة من اختراع مصر القديمة للحروف التصويرية الهيروغليفية .

وعُرِفَت بلاد الشام بأسماء مختلفة لدى الأمم المجاورة ، للدلالة على مناطق معينة منها . ومنذ العصر اليوناني استُعمل اسم سوريا للدلالة على بلاد الشام كلها من طوروس حتى أطراف مصر . والامل الجغرافي أحد العوامل الفعالة في تاريخ بلاد الشام . فوجود سهول ساحلية صغيرة تفصل بينها جبال عالية ، وصعوبة المواصلات عبر الجبال آنذاك ، ووجود أخدود كبير يمتد من الشمال إلى الجنوب حتى خليج العقبة ، كل ذلك سبب انفصال الداخل عن الساحل ، وساعد على

قيام ممالك متعددة في سورية. وثمة عامل آخر في تاريخ الشام هو موقعها المتوسط بين القارات الثلاث ، مما جعلها عرضة أولاً وقبل كل شيء لنزوح الأمم الجاورة لها . وقد دلت التنقيبات الأثرية على أن بلاد الشام شهدت بواكير الحضارات البشرية في عصور ما قبل التاريخ . ومنها آثار بشرية عثر عليها الباحثون في مواضع متعددة ، وهي ترجع إلى العصر الحجري القديم . وتشهد هذه الآثار الأخيرة على بدء ممارسة الزراعة في الشام بواسطة مناجل من العظم لها نصال من الصوان . أما آثار العصر الحجري الحديث ، فهي تدل على بداية الإنسان في الشام في تدجين الحيوانات وسكنى الأكواخ واستعمال الخزف الفخاري ، ومحاولات للتصوير والنحت ، كما تدل على انتشار استعمال المعادن كالنحاس والبرونز في عمل الأدوات الزراعية والمنزلية .

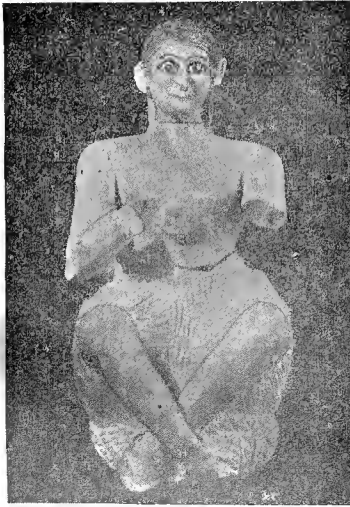
وبدیهی أن جماعات عربية سامية وافدة من جزيرة العرب كانت أول من استوطن بلاد الشام وهم :

(١) العموريون : هاجروا إلى شمال سورية حوالي عام ٢٥٠٠ ق . م . وأسسوا دويلاتٍ أهمّها حَلَبٌ ومَاری (على الفرات مكان تل الحيرى الحالية) ، كما أسسوا في بلاد الرافدين الدولة البابلية التي تقدمت الإشارة إليها ، (شكل ٢١) . (خريطة رقم ٨)

(٢) الكنعانيون : الذين هاجروا من الجزيرة العربية إلى الشام في نفس هذه الموجة البشرية الأولى واستوطنوا بلاد سورية الجنوبية ، هم كإخوانهم العموريين لم يتمكنوا من تأسيس دولة قوية موحدة نظراً لموقعهم بين الدول الكبرى في مصر والرافدين وآسيا الصغرى . فانتظموا بممالك صغيرة في مدن



(خريطة رقم ٨)



(شكل ٢١)

تمثال من العاج لامرأة ، عثر عليه في مدينة مارى

مستقلة بعضها عن بعض ، وأشهرها ريت شان (ريسانت) وميجو
(تل المتسلم) وأريحا ، ويوحس (القدس) .

واعتنى الكنعانيون خاصة بصناعة المركبات الخربية ، وذلك فضلا عن
الزراعة التى اعتمد عليها استقرارهم فى دويلاتهم الجديدة ، ونشأت بينهم
وبين مصر صلات وثيقة ، وأخذوا عن مصر وبلاد الرافدين جزءاً من
حضارتهم .

الفينيقيون :

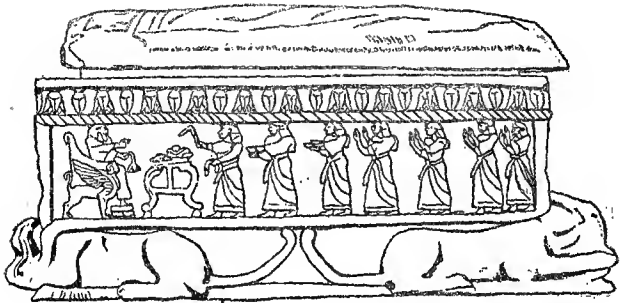
وهم السكنعانيون الذين سكنوا الساحل السوري ، والسهل الضيق الواقع بين البحر والسلسلة الجبلية العالية ذات الأشجار الخشبية . وهذه الخصائص الساحلية ، وتلك الأشجار التي تصلح أخشابها لصنع السفن من العوامل التي قررت مستقبل الفينيقيين ، وجعلت حضارتهم تجارية بحرية ذات موانئ ، ومحطات للسفن .

والمدن الفينيقية ، أهمها أوغاريت (رأس الشجرة) التي اكتشفت بين (١٩٢٩ — ١٩٣٩) على مسافة أحد عشر كيلو متراً شمالاً اللاذقية ، حيث عثر الباحثون على آثار حضارة رائعة تأثرت بالفنون البابلية والميتانية والمصرية والإيجية اليونانية .

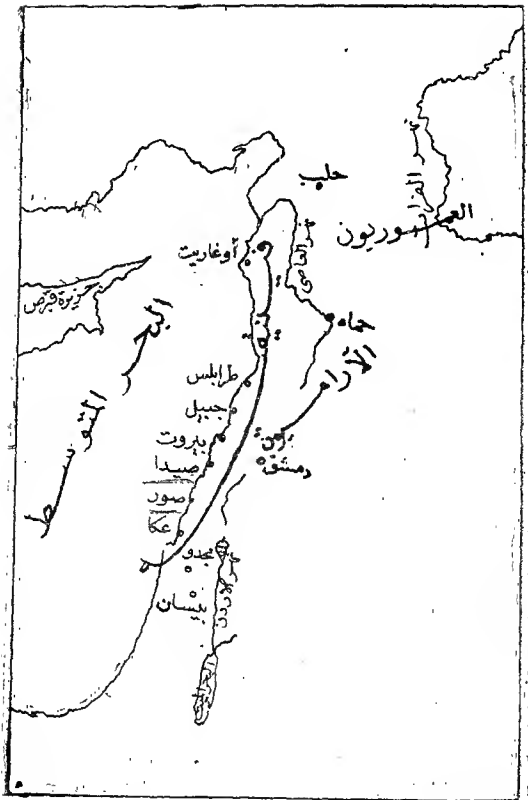
ومن أهم هذه الموانئ والمحطات الفينيقية جبيل وصيدا وصور . أما جبيل (بيبيكوس) فسكانت المركز الديني الفينيقي ، وتدل الآثار والقصص على مدى العلاقات الوثيقة بين جبيل ومصر (شكل ٢٢ ، ٢٣) . وأما صيدا فكانت في بداية أمرها ميناء لإيواء السفن الرائجة والغادية بين مصر وسورية ، ثم نمت وازدهرت حتى غدت زعيمة مدن الساحل السوري فيما بين (١٥٠٠ — ١٢٠٠ ق.م) (خريطة رقم ٩) ، وامتد نشاطها التجاري إلى شواطئ البحر الأسود ومدن اليونان . ثم حلت صور محل صيدا في زعامة المدن الفينيقية بعد أن وصل الفينيقيون إلى غرب البحر المتوسط بين (١٠٠٠ — ٥٠٠ ق.م) ، ولذا كان معظم النشاط التجاري في صور نحو بلاد غربي البحر المتوسط ، فوصل تجارها إلى موانئ إيطاليا وفرنسا وأفريقيا الشمالية وأسبانيا وشواطئ جنوب إنجلترا ، وأنشأوا في تلك الموانئ محطات للتبادل التجاري ، ولم تلبث تلك المحطات أن أصبحت المراكز الأولى للاشعاع الحضاري في أوروبا . وأوغلت مراكب



(شكل ٢٢) نقش فينيقي على المايج متأثر بالفن المصري



(شكل ٢٣) تابوت من مدينة بيلوس



(خريطة رقم ٩)

فيلق

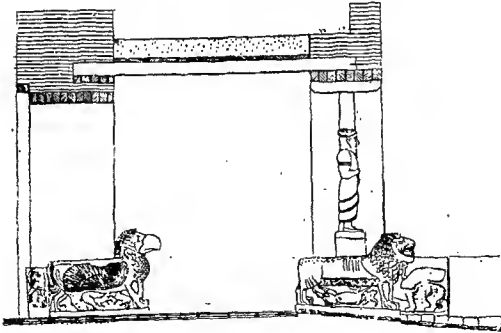
الفينيقيين كذلك في البحر الأحمر ، وبحر العرب حتى الهند ، وما زالت فينيقة
على نشاطها وتجارها الواسعة حتى استولى الكلذانيون على مدنها وجعلوها
عاصمة لهم .

وأهم الموانئ التي أنشأها الفينيقيون لتأمين سفنهم ومتاجرهم في البحر المتوسط
ميناء قرطاجنة ، وتقع في طرف الخليج الذي تقوم عليه مدينة تونس الحالية .
وقرطاجنة ورثة صور وترجع نشأتها إلى عام ٨١٤ ق م .

ثم بلغت قرطاجنة من القوة والعظمة والرفاء الاقتصادي ما جعلها عاصمة دولة
هانيبال ، وهي الدولة التي صارت روما وقاومت حركاتها التوسعية ، حتى
أواسط القرن الثاني ق م .

(٣) الأراميون : وبينما تصارع قرطاجنة دولة الرومان في البحر المتوسط ،
كانت الموجة العربية السامية الثالثة تستقر في مواطنها النهائية بالشام . وكانت
طلائع هذه الموجة حوالي عام ١٥٠٠ ق م . وقد مرت في طريقها ببلاد الرافدين ،
ثم تركزت بعد مدة طويلة في الربوع السورية الداخلية أي من دمشق حتى جبال
طوروس ، وأوائلهم الأراميون . ولم يعرف الأراميون الوحدة السياسية للأسباب
الجغرافية التي تقدمت الإشارة إليها ، وإنما أنشأوا ممالك في مدن مستقلة تسمى
الواحدة منها « المدينة الدولة » وأهمها مملكة دمشق التي امتدت أراضيها في أواخر
القرن الحادي عشر ق م . إلى نهر الفرات شمالا ، وإلى نهر اليرموك جنوبا .
واشتهر من ملوكها « رصين » وهو من أشد أعداء العبرانيين ، ثم « بنحدد الأول » وهو
الذي استولى على اورشليم من العبرانيين ، ثم « حزائيل » الذي ارتقت المملكة
الدمشقية في عهده . ثم تلاشت هذه المملكة تدريجيا أمام الغزو الأجنبي الطويل

وسقطت هي وغيرها من الدويلات الآرامية الأخرى في أيدي الآشوريين
(٧٣٢ ق.م. ٠). (شكل ٢٤)



(شكل ٢٤) منظر تسكوبي داخل قصر آرامي

يتبقى من ذلك مجيء أمم غير سامية خالصة وهم العبرانيون وغيرهم ، ولم يكن هؤلاء الوافدون المتأخرون من نفس الأجناس السامية التي سبقتهم إلى الشام .
والواقع أن العبرانيين سُمُّوا باسمهم هذا لعبورهم نهر الأردن (حوالي ١٢٥٠ ق.م.) ،
وتدل هذه التسمية وحدها على أنهم دخلوا غرباء عن الأجناس السامية بالشام .
ولم يهتم الساميون السابقون بالعبرانيين وغزواتهم الضئيلة المتقطعة ، بل استمروا
يزاولون حياتهم في المدن والقرى والمزارع . ولم يتعد الأمر قيام حكم أجنبي
طارىء سرعان ما انفسكت عراه بعد وفاة الملك سليمان . ثم انقسم العبرانيون
إلى قسمين متناحرين ، سقطا في أيدي الآشوريين والسكلدانيين . وهذا السقوط
المزدوج هو الذي أدى إلى تشريد اليهود لأول مرة في تاريخهم في بابل
بالعراق ، ويسمى تاريخهم هناك باسم الأسر البابلي .



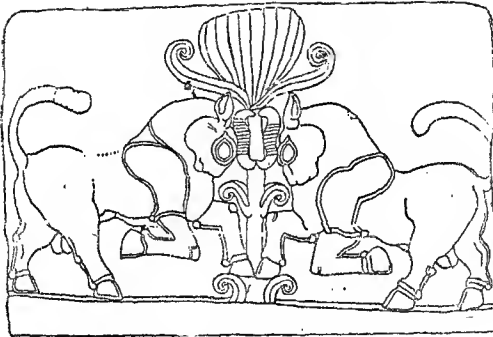
(خريطة رقم ١٠) التوسع الفينيقي في البحر المتوسط.

الحثييون :

يرجح العلماء أن الحثيين ينتمون إلى الجنس الهندي — الأوربي (الآري)، وأنهم هاجروا من سهول الهند إلى روسيا ، ومنها إلى البلقان ، ثم عبروا المضائق إلى الأناضول حيث أسسوا دولة امتد نفوذها في منتصف الألف الثاني ق. م . إلى شمالي سورية . وبعد اصطدام الحثيين بحيوش مصر القديمة بقيادة رمسيس الثاني رأى الطرفان أن المصلحة تتطلب تحالفاً ضد التهديد الآشوري . ثم لم تلبث الامبراطورية الحثية أن انهارت وحلت محلها في سورية إمارات أو حكومات المدن الحثية المستقلة، وأشهرها قرقيش (شكل ٢٥) .

الحوريون والميتانيون :

جاءت هذه الأجناس الصغيرة من جنوب آسيا ، وأقامت في أرض الجزيرة ما بين الدجلة والفرات ، وعلا شأن الحوريين والميتانيين في منتصف الألف الثاني ق. م .



(شكل ٢٥) نقش من مدينة قرميش يبدو عليه الطابع المصري

ثم حدث في عام ٥٣٩ ق م . أن احتل الفرس بلاد الشام وأقاموا
بها حكومة فارسية قاسية ظالمة ، ولذا فتحت معظم مدن الشام أبوابها أمام
الأسكندر المقدوني بعد وقعة إيسوس شمالى سورية (٣٣٣ ق م .) .

وبعد وفاة الإسكندر انقسم قادة امبراطوريته الواسعة ، فتناسلت الدولة
الساقية على يد القائد سالوقس في الشام . وفي العهد السلوقي المتأخر تحرك العرب
مرة أخرى في موجة بشرية كانت خاتمة الموجات العربية إلى سوريا في العصور
القديمة ، ومن هؤلاء العرب الأنباط الذين امتد نفوذهم إلى حوران ودمشق .
ثم وقعت بلاد الشام تحت سيطرة الرومان عام ٦٤ ق م . « خريطة رقم ١١ » .
وظلت كذلك حتى انقسمت الدولة الرومانية إلى قسمين عام ٣٩٥ ق م . ،
فأصبحت سورية ولاية تابعة للقسم الشرقى من الدولة الرومانية ، وهو القسم الذى
اشتهر فيما بعد باسم الدولة البيزنطية .



(خريطة رقم ١١) الامبراطورية الرومانية

هجرة الآموريين إلى سورية	١٢٥٠٠ ق م
الكنعانيون والفينيقيون في سورية	١٥٠٠ ق م
هجرة الآراميين إلى سورية	١٢٠٠ ق م
سقوط دمشق في يد الآشوريين	٧٢٢ ق م
زحف الإسكندر إلى سورية	٣٣٣ ق م
السلوقيون في سورية	
استيلاء الرومان على سورية	٦٤ ق م
ظهور المسيحية	٣٠ ق م
بدا العمل لفظ الإسلام	٦٤٠ م

خريطة زمنية لتاريخ سورية القديمة

(خريطة زمنية رقم ٢) لتاريخ سورية القديمة

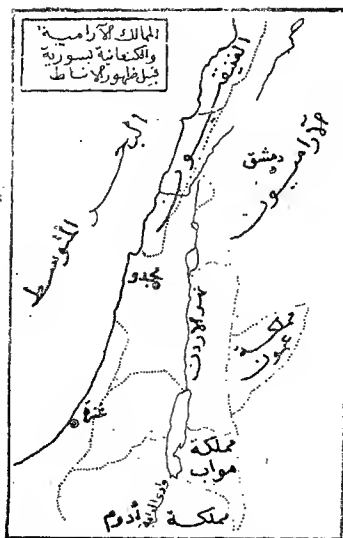
دول العرب في الشام قبل الإسلام

قامت في بلاد الشام قبل الإسلام ثلاث دول عربية وهي : دولة الأنباط في الجنوب ، ودولة تدمر في الشمال ، ودولة الفسافسة بينهما ، ويرجع أصل هذه الدول إلى تحضر القبائل البدوية أو المتنقلة ، كما يرجع إزدهارها إلى تجارة المرور .

(١) — دولة الأنباط :

ظهر الأنباط لأول مرة في القرن السادس ق.م. في الصحراء الممتدة شرق الأردن ، وكانوا وقتذاك قبائل بدوية تعيش على الرعى على حدود الدويلات السككانية والآرامية القائمة في أجزاء من بلاد الشام الجنوبية (خريطة رقم ١٢) . ثم أخذ الأنباط في التكتل والتمسك على هذه الدويلات حتى قضوا عليها ، وأقاموا بدلا منها دولة عربية تحت اسم القصة الصخرية المطبوعة على وادي العربى وخليج العقبة . واتخذ الأنباط بطرا (الرقيم) عاصمة لهم ، ولا تزال أطلالها في شفاف الجبال بشمال غرب عمان (في الأردن) على قمة صخرية ارتفاعها ألف متر .

وتنفرد بطرا بموقع تجارى ممتاز على مفترق طرق القوافل المتجهة من جنوب بلاد العرب إلى شمال بلاد الشام ، ومن الخليج العربى إلى سواحل فلسطين . وقد احتفظ الأنباط بحريتهم واستقلالهم بفضل طبيعة بلادهم الصخرية المنيعه ، وبفضل شجاعتهم وقوة تحماهم واتحادهم . وقد حاربوا اليهود والفرس ، ووقفوا بين الدولتين ، السوقية (في سورية) والبطلمية (في مصر) عامل توازن . ولكن الرومان بعد فتح سوريا أزهبوا هذه الدولة وتصدوا لها ، فقارمتهم



(خريطة رقم ١٢) الممالك الآرامية والكنعانية بسورية

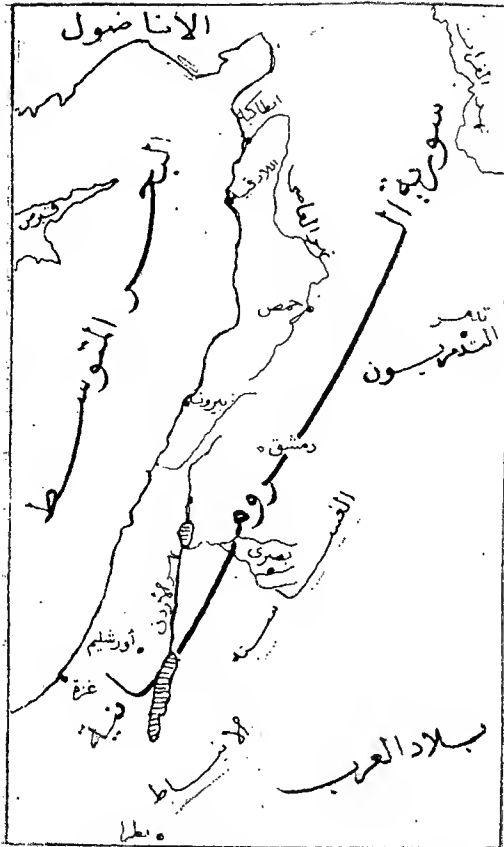
بشدة، حتى تسرب الضعف إليها بسبب كساد التجارة الناجم عن تحول معظم متاجر الشرق عن طريق بطرا إلى طريق مصر وتدمير . ولم تلبث الأطماع الإستعمارية الرومانية أن قضت على دولة الأنباط. عام ١٠٦ م. وهذه الدولة العربية التي أضادت مشعل الحضارة فيما حولها من البلاد الصحراوية عدة قرون ، تركت وراءها آثار مدينية ناضجة أقيمت بصبر وأناة ، بالمطرقة والأزميل في الصخر الأحمر المش. وأهم آثارها في مخزنه فرعون، وهو اسم محلي لأروع أثر في بطرا، ربما كان قبر أحد ملوك الأنباط. ، والذير وهو معبد تبطلى اكتسب اسمه هذا

بمسد دخول المسيحية إلى بطرا في القرنين الرابع والخامس للميلاد (شكل ٢٦). أما مَرَاى القُبُور فهو جدار منحوت يشبه واجهة بعض القصور الرومانية ، تنحدر ورائه غرف ضخمة ربما كانت مقبرة لملوك الأنباط . وتتمج بطرا بالكهوف الطبيعية والصناعية ، لأن قوانين الأنباط كانت تحرم البناء والزراعة ، هذا إلى جانب الأبنية والحمامات والحمامة الكبيرة والخزانات ، التي تُغطى بإحكام زائده نظراً لقيمة الماء البالغة في برج بطرا الصخرى العالى (خريطة ١٣) .

ودين الأنباط يحتوى على عناصر بابلية وأخرى آرامية سورية ، وعلى عناصر بدوية حملها الأنباط معهم من مواطنهم الأولى الصحراوية . ولغة الأنباط هى اللغة العربية مع شئ من الاختلاف الذى جرى به ناموس الارتقاء . أما الخط النبطى فقد اقتبس عن الآرامى ، ثم تطور حتى اشتق من آخر صورة له خطنا العربى القديم . (شكل ٢٧) .

(٢) دولة تَدْمُر :

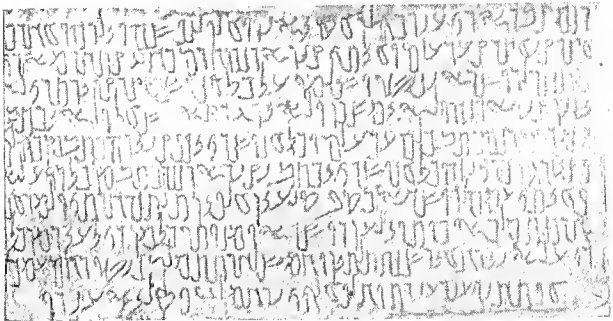
حين بدأت بطراً فى الاضمحلال لمع اسم تدمر كمدينة أخرى للقوافل ، هياً لها موقعها الجغرافى فى قلب بادية الشام مركزاً فريداً كمحطة رئيسية تمر بها التجارة عند تقاطع الطرق التى تعبر الصحراء من الشمال إلى الجنوب ، ومن الشرق إلى الغرب . كذلك وقعت تدمر بين الدولتين السكبيرتين ، دولة الفرس التى سيطرت على العراق ، والدولة الرومانية التى سيطرت على الشام . وساعد موقع تدمر المنعزل على تمتعها بقدر كبير . من الاستقلال ، وأفادت من موقعها المتوسط ، فكانت تنضم تارة إلى الفرس وتارة إلى الرومان ، وتارة أخرى تقف على الحياد وتحفظ التوازن بين الدولتين وتصل تجارتها .



(خريطة رقم ١٣) الدول العربية في سورية قبل الاسلام



شكل ٢٦ : واجهة معبد بطرا



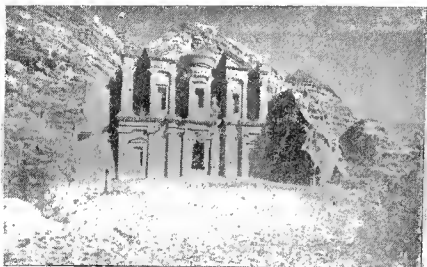
شكل ٢٧ : الخط النبطي

وحين زادت أهمية تدمير التجارية وارتفعت إلى مكانة باهرة من الفنى والسلطة طمع الرومان فى الاستيلاء عليها ، حتى صار لهم لون من السيادة فيها أوائل القرن الميلادى الأول . وقد حاولت تدمير التحرر والاستقلال ، فقامت أسرة عربية (أذينة) وزوجته زينب وابنهما وهب اللات) بمحاولة ناجحة لإبعاد الرومان ، وتأسيس دولة كبيرة امتدت ما بين مصر وآسيا الصغرى . ولم تلبث جيوش الرومان أن أسرت زينب (زنوبيا) الباسلة وتدهورت تدمير ، وعادت محطة تجارية عادية بعد أن وضل عمرانها إلى درجة أنكر العرب مثلها على بشر ، حتى نسبوا بناءها إلى الجن .

وآثار تدمير بالغة حد الروعة ، وأهمها المعبد بل ، والمسرح ، وساحة اجتماع الشعب الفخمة ، وهى ساحة مربعة ذات أروقة وعمد فيها ، قرابة مائتى قاعدة . تمثال لكبار رجال الجيش والإدارة والتجارة فى تدمير . وقيمة هذا العمران العريض ليست فى أنه نشأ فى الصحراء فقط ، ولكن فى أنه أصبح فى بعض أبنية مثالا للقصور الأموية فيما بعد ، وبعض زخارفها وتزييناتها وصورها كانت ملأى ومقدمات للفن البيزنطى المقبل وللفن العربى (شكل ٢٨) .

(٣) . دولة الغساسنة :

وحين أخذت دولة تدمير فى الزوال كانت إحدى القبائل العربية تشق طريقها جنوب شبه الجزيرة العربية قادمة إلى حوران حيث استقرت حول بئر يقال له غسان . ولم يمض غير قليل حتى انتشرت المسيحية بين الغساسنة ، فتركوا حياة البداوة وعاشوا فى القصور ، كذلك فعل المناذرة نظراؤهم فى الحيرة مع تأثر أقل بحضارة الفرس .



(شكل ٢٨)

بقايا معبد في تدمر

وأسس الفُساسنة لأنفسهم إمارة قوية سيطرت على القبائل العربية النازلة في حوران وفي أطراف الدولة البيزنطية . ولم يكن لهذه الإمارة عاصمة ثابتة ، فتارة كانت بُصْرَى ، وتارة أخرى كانت الجابية جنوبي دمشق . ولم يستطع البيزنطيون بعد زوال بطرا وتدمير حماية الأطراف الصحراوية للبلاد من غزوات القبائل العربية ، كما عجز الساسانيون الفرس عن دفع غارات البدو على مُحُومهم . ووجدت بزنطة في إمارة الفُساسنة وتآلف القبائل الموالية لها ما يضمن حماية أطرافها من غارات القبائل البدوية . كذلك وجدت في هذه الإمارة العربية عوناً لها في حروبها ضد أعدائها الفرس ، ولذا شجعتها على القيام ، وصرفت لأمرائها إعانة سنوية . وقل مثل ذلك عن إمارة المناذرة مع الفرس . وبلغت الإماراتان العربيتان أوج ازدهارهما في منتصف القرن السادس الميلادي عندما كان الحارث بن جبلة يحكم غسان ، والمُنذر بن ماء السماء يحكم الحيرة . وامتدت

إمارة غسان بين الجولان وتدمر في الشام ، واتسعت إمارة المناذرة في الحيرة بين شط العرب إلى بلدة هيت على الفرات في العراق . وقد اشتركت الإماراتان في الصراع البيزنطي الفارسي ، فامتدلاً تاريخهما بالحروب . ولم يقد من هذا الانقسام والعداء بين الأشقاء العرب سوى الأجانب من الفرس والروم . وجنما شعرت الدولة البيزنطية بازدياد نفوذ الفساسنة سعت إلى تشتيت شملهم ، فانقسمت دولتهم إلى أقسام صغيرة ، على كل منها أمير ضعيف ، حتى إذا استولى الفرس على بلاد الشام عام ٦١٤ م ، لم نعد نسمع شيئاً عن أمراء غسان ، على الرغم من استرداد الروم للشام عام ٦٢٨ م . (خريطة رقم ١٤) .

وما زالت بلاد الشام تعاني من الاضطرابات المذهبية ، وترزح تحت وطأة ثقل الضرائب البيزنطية ، حتى أخذت القبائل العربية تنهال على أطراف الشام مؤذنةً بالبلالاج خير جديد للعرب ، ومبشرةً بالزحف العربي الكبير الذي أتم فتح الشام عام ١٥ هـ — ٦٣٦ م ، وجعلها جزء من الدولة العربية الكبرى .

وترك الفساسنة آثاراً لها طابع خاص ، إذ أن أصولها ترجع إلى الفن الميني والفن البيزنطي ، مع تأثيرات من الفن السوري الذي ترعرع في البلاد خلال تاريخها الطويل واتصالها بحضارات مصر والرافدين . وأقام الفساسنة قصوراً وكنائس ، وبنوا السدود والحمائم وأقواس النصر ، ومنها القصر الأبيض الذي بنى على منبسط من الأرض جنوب شرق دمشق ، وتميز بنقوشه الجميلة وزخارفه الرائعة (شكل ٢٩) . ولم يبق من آثارهم سوى القليل ، على حين تأثر المناذرة غالباً بالفن الفارسي ، ونظموا دولتهم على الطراز الفارسي . ويبدو أن الكتابة



(شكل ٢٩) نقوش من القصر الأبيض

كانت شائعة في أوساط الحيرة ، وأقدم من تعلم الكتابة في العرب إنما تعلمها
بواسطة الاتصال التجاري . وأقدم الخطوط العربية التي سبقت عصر النبوة ،
كانت تنسب للحيرة والأنبار ، والخط الحيرى هو ما نعرفه اليوم بالكوفي
القديم ؛

مظاهر الحضارة في بلاد الشام

أولاً - الحياة السياسية :

لم تقم في بلاد الشام خلال العصور القديمة وحدة سياسية تحكم البلاد حقبةً طويلةً على نحو ما حدث في مصر وبلاد الرافدين . ويرجع ذلك إلى العوامل الجغرافية التي حالت دون قيام دولة سورية واحدة شاملة لجميع الأقليم ، كما يرجع إلى تعرض البلاد لمجرات سامية وغير سامية متعاقبة . كما أن قيام دول قوية في مصر وبلاد الرافدين وآسيا الصغرى جعل قيام دولة كبيرة متمسكة الأجزاء في سوريا عملياً بعيدة عن التحقيق في العصور القديمة . ولذلك انتشرت في أنحاء الشام دويلات صغيرة تتشغل في المدينة وضواحيها التي تمونها فحسب . وكانت المصالح المشتركة الطارئة تتطلب الاتحاد أحياناً بين هذه المدن المستقلة ، فتميز زعامة إحداهما على سائر المدن مؤقتاً ، فصارت مثل هذه الزعامة إلى أوغاريت في أواخر القرن السادس عشر ق . م وإلى جبيل في القرن الرابع عشر ق . م .

وتربعت صيدا ، ثم صور بعد ذلك على كرسى هذه الزعامة المؤقتة ، وكان الحكم ملكياً في المدن العمورية والكنعانية والفينيقية ، وكذلك في الدولة الأرامية والعبرانية . وكان اسمُ المملكة يشتق من اسم المدينة الرئيسية التي تحكمها ، وأشهرها مملكة مارى العمورية ، ودمشق الأرامية ، وصور الفينيقية ومجدو الكنعانية ، وكانت هذه الممالك تختلف في الاتساع والقوة .

ونحن نلم من تاريخ المدن الفينيقية ، أن سلطة الملك كان يقيدها أحياناً مجلس من شيوخ المدينة ، وهو يتألف من الملاك وأصحاب المصالح التجارية ،

وكان لكل مدينة بعلمها (أى سيدها) أو إلهها الخاص ، وهو فى اعتقاد سكانها جدٌ ملوكها ومخصب أرضها ومنتج أرزاقها .

وكان انصرافُ ممالك المدف السورىة للزراعة والتجارة قد جعل طبقة الاقطاعيين هى المسيطرة على الحكم فيها ، أما صغار التجار وأصحاب المهن والصناعات فقد شكّلوا الطبقة المتوسطة التى تآتى بعدها الطبقة الدنيا المؤلفة من الخدم والعبيد . وعلى الرغم من مظاهر العظمة والأبهة التى كان الملوك يحيطون بها أنفسهم فمئالك مايدل على سهر حكومات المدن على شؤون الرعية ، والاهتمام بإصلاح المرافق العامة وإقامة العدل .

ثانياً : الحياة الاقتصادية :

كانت الزراعة أهم نواحى نشاط السوريين وغيرهم من الأمم القديمة ، وربما دخل الحراثتُ إلى البلاد السورىة من مصر . واستعمل السوريون فى الحصاد منجلاً أسنانه من الصوان ، حتى حل محله المنجل المصنوع من الحديد زمن الحثيين . وتدل الزراعة والأعياد والتقاليد والأساطير على أهمية الحصاد ، وتربية المواشى . أما فى مضمار الصناعة فاشتهرت فينيقيا بالصباغة . واشتهرت صورُ خاصة بصنع الصبغة الأرجوانية ، أما صيدا فبرعت فى صنع الأوانى الزجاجية سواء للحاجات المنزلية أو للكماليات والزينة . وعثر الباحثون على كميات من الأوانى الخزفية المزخرفة فى جميع المدن السورىة إلى جانب التماثيل الصغيرة من العاج والخزف البراق . كذلك عرف السوريون صناعة المعادن كالنحاس والبرنز ، فصنعوا الحلى من الذهب والأحجار الكريمة والفضة (شكل ٣٠) ، كما برعوا فى صناعة الغزل والنسيج ، وصنعوا أقمشة من الصوف والحبر والقطن والسكتان ،



(شكل ٣٠)

صدرية بتدعيه الصنع

وصكوا نقوداً معدنية منذ القرن الرابع ق . م . ونقشوا عليها ما يمثل لحياتهم الدينية والتجارية ، كالسفن وأمواج البحار . لكن الفينيقيين اشتهروا بتجاريتهم ونبوغهم في الأسفار البحرية . وبفضل هذه الأسفاراتقن الفينيقيون فنون الملاحة ، واكتشفوا النجم القطبي ، وتمكنوا بسفائنهم التي تسيرها الأثربة والجاذيف أن يتوغلوا في المحيط الأطلسي ، وأن يطوفوا آخر الأمر حول أفريقيا . وبهذا أصبح الفينيقيون هم الوسطاء الطبيعيين لتوزيع بضائع الشرق في الغرب ، وبضائع الغرب في الشرق . وبرع الفينيقيون في بناء السفن ، ومهروا في رسم الخرائط البرية وتعيين المواقع وقياس المسافات وتوقيت المد والجزر .

وكما اشتهر الفينيقيون بالتجارة والبحرية ، اشتهر الآراميون في التجارة البرية ، لوقوع مدنهم على الطرق التجارية المتجهة إلى داخل آسيا حتى الهند .

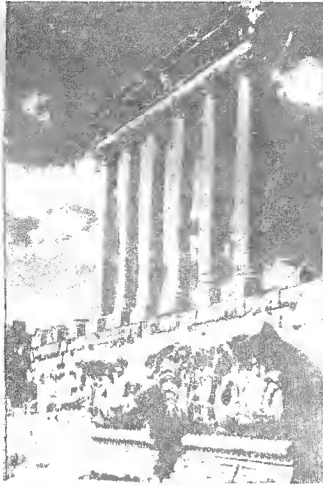
وأصبح الآراميون وسطاء في تبادل السلع ، وترتب على ذلك انتشار اللغة الآرامية في العالم المتمدن منذ الألف الأول قبل الميلاد لعدة قرون . ولذا تمتع الآراميون العرب بنفوذ سياسى واسع ، وتدخلوا في شؤون بابل وآشور وفارس واليونان والرومان . ولم يقلل سقوط الممالك الآرامية من نفوذهم وانتشار حضارتهم ولغتهم بين الأمم .

ثالثاً - الحياة الدينية :

قامت الديانة في بلاد الشام على عبادة القوى الطبيعية التى ينبع منها الخصب والنماء والتوالد ، كالشمس والقمر والكواكب والأرض ، والمياه . وصوّر أهل بلاد الشام القدماء هذه القوى في هيئة آلهة ذات صفات بشرية ، وهى تشبه في ذلك ديانة بلاد الرافدين ، مما يدل على أن السوريين تبادلوا العبادات والطقوس مع جيرانهم في بابل ومصر . وقد لاحظت الديانات السورية نعمة المطر وخطر الجفاف ، وفي أسطورة المعبود الفينيقي « أودونيس » الذى يمثل القوة المتجددة فى الشمس بعد هزيمة الشتاء ما يخص معظم الديانات السورية القديمة أحسن تلخيص . ففي الربيع ينمو النبات ثم يحف فى الصيف ، وينتظر الناس عودة أودونيس بقلق ، ويشتركون مع الآلهة فى حزنها على موت إله النبات ، ويقومون بالصلوات والطقوس لتمكيته من الفوز على خصمه (إله الموت) ، حتى يضمّنوا كمية المطر الكافية لإنتاج موسم العام الجديد . والأسطورة تشبه قصة أوزوريس ، إذ يخرج أودونيس ويُقتل (كما يقتل أوزوريس) أثناء الصيد فتحزن أمّه عليه حزناً شديداً ، وتذبل بسبب موته النباتات وتظلم السماء ويستحيل الماء فى الأنهار إل لون أحمر كالدم . ولكن الإلهة عشتار (أشهر المعبودات السورية ، وربه الخصب) تضمد جراحه (كما

فعلت إيزيس) وأعيده من العالم الآخر، فتعود للدنيا بهجتها وللأرض خضرتها.
وربما استمدت إحدى الاسطورتين من الأخرى ، لأن العلاقات بين مصر
وجبيل قديمة ترجع إلى الألف الثالث ق . م .

وقد بنى الفينيقيون الكثير من المعابد للآلهة تميزت بروعة الفن وجمال العبارة ،
كأندل على ذلك آثار معبد بعلبك . (شكل ٣١)



(شكل ٣١) بقايا معبد بعلبك

ولم تختلف عقائد الآراميين الدينية عن عقائد العموريين والفينيقيين وإخوانهم.
الكنعانيين ، ماعدا المعبود الآرامي الأسامي واسمه حُدُدُ ، وكان إله المطر

والزوابع والرعد ، فهو إذا رضى أرسل المطر غزيراً ، وإذا غضب أثار العواصف والسيول . ويوجد أعظم معبد لهذا الإله في هيرابوليس (منبج الحالية) ، وفي دمشق كذلك . وعبد السوريون قرينة هذا الإله واسمها أنارجانس . وفي العصر الروماني تحول اسمُ الإله حدد الدمشقي فأصبح يسمى جوبيتر الدمشقي .

أما عادة دفن أواني الطعام والشراب مع الميت ، فعدل على وجود اعتقاد غامض لدى السوريين بأن الميت تروقه المعيشة التي ألغها في الحياة الدنيا ، وكانوا يوجهون اللعنات ضد ازعاج الميت أو نبش قبره .

أما العبرانيون فعبدوا الصخور والمناشية قبل أيام موسى ، ثم عرفوا اسم الكائن الأعظم (يهوه) من جيرانهم العرب ، فأصبح يهوه إلههم الوحيد ، ومع هذا يعتبر اليهود أنفسهم الشعب المختار ، ويعتقدون أنه يساعدهم في حرب أعدائهم ويضمن لهم خصوبة الأرض .

رابعا: الحياة الأدبية - الكتابة وأصول الأبجدية :

وعرف السوريون استعمال الأبجدية حوالى القرن الخامس عشر ق . م . والدليل على ذلك لوحة اكتُشفت في رأس الشَّمرَة (أو غاريت) في السنوات الأخيرة ، عليها الحروف الأبجدية التي كتبت بها نصوص خاصة بتلك المدينة ، وتعود هذه اللوحة إلى القرن الخامس عشر ق . م . ولم يترك هذا الكشف مجالا للشك في أن الأبجدية بدأت في سورية ، وأن هذه الأبجدية تأثرت بعدة تأثيرات مصدرها الكتابة في مصر وبابل .

وعدد حروف الأبجدية إثنان وعشرون حرفاً ، وليست العبرة في اختراع

العلامات والرموز الدالة على الحروف ، بل المهم إيجاد نظام أبجدي تدل فيه علامة واحدة على كل صوت ، ولم يوجد شيء من هذا في أى بلد من بلدان العالم قبل أبجدية رأس الشمرة وجبيل .

وأهم مميزات هذه الأبجدية أنها لا تتضمن حروفاً صوتية وإنما كلها ساكنة.

وأخذ الآراميون الأبجدية الفينيقية وعدلوها ، وأخرجوا منها أبجديتهم الآرامية التي كتبوها على ورق البردي في القرن التاسع قبل الميلاد ، وقد حلت هذه الكتابة محل المسمارية في بلاد الشام والعراق وإيران لسهولة وبساطتها .

وصكبت اللغة العربية بخط من أصل آرامي ، ومنذ القرن الثالث الميلادي تطورت هذه الكتابة إلى الخط العربي المألوف لدينا اليوم .

آثار الأدب القديم في سورية :

ترك لنا العموريون والآراميون كتابات أثرية قيمة . فقد عثر الباحثون في بقايا القصر العموري المسمى في « ماري » على آلاف الألواح المكتوبة بالخط المسماري . أما أقدم الكتابات الأثرية الآرامية فقد وجدت في شمالي سورية .

وقبل اكتشاف آثار رأس الشمرة عام ١٩٢٩ ، كان أهم الموجود من الأدب الكنعاني الفينيقى نقوشاً على الأضرحة . وبعد قراءة النصوص المكتشفة ثبت وجود أدب كنعاني لا يقل أهمية عن الأدب البابلي في قصائده وملاحمه . وتدور بعض القصائد حول النزاع السنوى بين الخير والشر في قصة الإله « بعل » وخصمه الإله « موت » ، وهى قصة تشبه في مفراها قصة

«أوزوريس» و«يسْت». ونكاهى الخال فى قصة «أوزوريس» ينتصر
إله الموت والشر فى بادية الأُمر. وهذا مألوف فى بلاد يضع فيها الجفاف حداً
لحياة النباتات .

ولكن عندما تتجدد الأمطار فى الخريف سرعان ما ترجع كفة إله الخير،
فينتصر على إله الشر أعظم انتصار، ويتزوج «بَقْل» من إلهة الخصب «عشتار»
وتسكن الأرض الخضراء.

الفصل الرابع

الحضارة القديمة في الأقاليم الجنوبية من الجزيرة العربية (اليمن)

لمحة تاريخية :

أظهرت الكشوف الأثرية في جنوب الجزيرة العربية وشمالها أن ماضي العرب قبل الإسلام فيه من الروعة والقيمة الحضارية ما يستحق كل تقدير ، مع العلم بأن عامة العرب حققوا بالإسلام فيما بعد أرفع القيم الحضارية وأسماها في تاريخ البشرية جميعاً .

قامت في اليمن دول ذات أنظمة اقتصادية متصلة بالتجارة العالمية ، وأثرت فيها تأثيراً بعيداً . فبلاد العرب الجنوبية (اليمن) كانت تصدر البخور والعطور العربية ، كما كانت مركزاً هاماً للاتصال التجاري بين المحيط الهندي والبلاد الواقعة شرقي البحر المتوسط . ووضح ذلك في حضارتها ، فأصبحت صلة الوصل بين الحضارات القديمة في مصر وبلاد الرافدين والشام والحبشة واليونان .

أطلق اليونان القدماء على الأقليم الذي قامت فيه الدول العربية الجنوبية اسم بلاد العرب السعيدة ، نظراً لخصوبة أرضها ووفرة محصولاتها وثروتها التجارية الواسعة . ويلاحظ أن أهم تلك الدول قامت في أعلى هضبة اليمن ، أي في المناطق الداخلية والسفوح المنحدرة نحو الشرق . واستخرج العلماء أخبار مدن الجنوب ودوله من النقوش التاريخية ، ولم يلبثوا أن عرفوا من هذه النقوش أن

حضارة اليمن بدأت قبل الميلاد بخمسة عشر قرناً ، ونهضت فيها دولٌ أهمها مايتى :

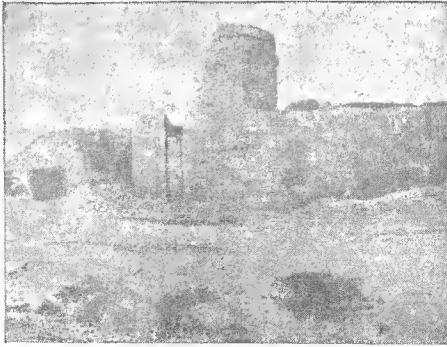
دولة معين :

المعينيون فرع من الأمة العربية القديمة في جنوب بلاد العرب ، وانتشرت من المعينين جاليات في البلاد المجاورة مثل مصر وبعض الجزر اليونانية . وتبين من بعض النقوش أن الجالية للمعينية في مصر كانت تتجبر في البخور والعطور المستعملة وقتذاك في المعابد ، ويعود تاريخ دولة معين على الأرجح إلى عام ١٢٠٠ ق.م . ولما كانت قوة معين تعتمد إلى حد كبير على ثروتها التجارية ، فإنها أقامت محطات للتجارة على طول الطرق التي تتفرق بلاد العرب من الجنوب إلى الشمال حتى بلاد الشام . وأمدت هذه المحطات مختلف القوافل التجارية بما تحتاج إليه من حراسة ومؤونة . وحكم ملوك معين دولتهم حكماً دستورياً ، فقام مجلس عام إلى جانب الملوك ، وقامت في المدن حكومات محلية ، وكان حكام هذه المدن يعينون بالانتخاب ، ويعاون الحاكم منهم مجلس مؤلف من شيوخ المدينة . وكان نظام الحكم في مملكة معين^١ وراثياً ، وعاصمتها تسمى قرناً وهي معين الحالية .

دولة سبأ :

ثم انهارت دولة معين نهائياً حوالي عام ٦٠٠ ق.م بسبب نشأة دولة منافسة لها منذ القرن التاسع ق.م ، وهي مملكة سبأ . وسبأ أشهر ممالك اليمن ، ورد ذكرها في القرآن الكريم ، واشتهر عصرها بالرخاء والعمران بفضل بناء سد مأرب ، وهو أكبر عمل هندسي للرى عرفته الجزيرة العربية في تاريخها .

ويرجع بناؤه إلى المدة الواقعة بين ٦٥٠ — ٦٣٠ ق م . وزاد هذا السد الكبير وغيره من السدود القديمة التي لم يسجل التاريخ مواقع بعضها مساحة الأرض المزروعة ، حتى استطاعت اليمن أن تزرع المنخفض والمرتفع من الأراضي (شكل ٣٣) .



(شكل ٣٣) بقايا سد مأرب

ولا عجب أن أصبحت مدينة مأرب عاصمة سبأ ، وأن يتسع نفوذ سبأ حتى يشمل البلاد الممتدة بين الخليج العربي والبحر الأحمر ، وأن يسيطر ملوكها على عرب الجنوب جميعاً . وكان للمملكة سبأ جاليات تجارية على طول طريق الشام حتى غزة والساحل الأفريقي ، ثم لم يلبث نفوذ سبأ أن تدهور بسبب قيام دولة الأنباط العربية في شمال الجزيرة بدور الوساطة التجارية بين المحيط الهندي والبحر المتوسط . وفي عام ١١٥ ق م . سحقت الفرسة لقرع من سبأ وهم الحثيريون لتأسيس دولة جديدة ، هي دولة حثير في إقليم ظفار جنوبي مدينة

مأرب : وظل نفوذ هذه الدولة الجديدة قويا حتى سنة ٥٢٥ م ، أى إلى ما قبل البعثة النبوية بقرن من الزمان تقريبا .

دولة حمير :

ونحن لا نعرف الكثير عن دولة حمير ماعدا أنها كانت دولة تجارية إلى جانب كونها دولة تجارية ، وأنشأت دولة حمير صلات سياسية متنوعة مع جيرانها الأفريين والأبمدين من الأحباش والرومان . وفى سنة ٢٤ ق.م. أرسل الرومان القائد أبليوس جالوس فى حملة ضد بلاد العرب الجنوبية ، فلم تلق نجاحا بل عادت بخفى حنين . وأعتبر البيزنطيون بهد الرومان بمصير حملة جالوس ، وفكروا فى وسائل أخرى للقضاء على سيطرة العرب على شرايين الملاحة الدولية فى البحر الأحمر والمحيط الهندى ، فاستعانوا بالأحباش مرة بعد مرة للاستيلاء على بعض أجزاء اليمن ونشر الديانة المسيحية الجديدة فيها . على حين استطاع اليهود الذين طردوا من فلسطين أن يحملوا كثيرا من أهل اليمن على اعتناق اليهودية ، ومن أولئك (يوسف ذونواس) ملك حمير . وسنرى فيما بعد أن بيزنطة استغلت ما تولد من النزاع بين بقايا المسيحية واليهودية فى اليمن ، فاستعانت بالأحباش لتمد نفوذها على جنوبى بلاد العرب من جديد . (خريطة رقم ١٥) .



(خريطة رقم ١٥)
حضارات اليمن القديمة

مظاهر الحضارة اليمنية عامة

من المعلوم أن الكتابات التي نقشها عرب الجنوب على عمارتهم القديمة كانت بالخط المعروف باسم الخط المسند . وأطلق العلماء المسلمون هذا الاسم على حروف نقوشهم هذه لأنها أشبه شيء بالصفوف المتساندة . وأدى حل رموز هذا الخط إلى الكشف عن بعض نواحي الحضارة العربية القديمة ، وذلك بفضل التشابه بين هذه الرموز وبين الخط الفينيقي الكنعاني الذي هو أصل الخطوط والحروف في جميع اللغات .

وقد ثبت أن اللغة العربية الجنوبية لهجة سامية قريبة جداً من اللغة العربية الشمالية أي (لغة الحجاز) ، ولكن كثيراً من نصوصها وخاصة النصوص المعينية لم تقرأ بعد ، نظراً لأنها وصلت ناقصة إلى الباحثين في تلك اللغات . ثم اندثرت لغة عرب الجنوب بالتدريج ، وحلت محلها لغة الحجاز ، منذ أواخر العصر الجاهلي ، لما نزل القرآن الكريم بلغة قريش في الحجاز زالت جميع اللهجات المغايرة لها ، بما فيها العربية الجنوبية .

الدولة والمجتمع :

قام المجتمع المتحضر في جنوب الجزيرة العربية أول الأمر على أساس زراعي ، شأن كل المجتمعات العربية القديمة في مصر وبلاد الرافدين ، فكان معتمداً على جماعات المزارعين الذين تحولوا من حياة التنقل والرعى إلى حياة الاستقرار والزراعة . ولذا ظل المجتمع اليمني يأخذ بنظام القبيلة والأنساب وعوائد الغزو وتربية الماشية . كان رئيس القبيلة أكبر رجالها سناً وقدرًا ، والأرض التابعة للقبيلة يوزع

إنتاجها بين الأفراد . ولكن بعد أن أصبحت التجارة تؤثر في حياة الناس وأنظمة دول عرب الجنوب ، ظهرت طبقة التجار بين صفوف المجتمع اليمنى الأولى ، وكانت الدولة تشرف على بطون القبيلة المختلفة لكي تعاملها بما يتفق مع مركزها ومقامها . وتتكون من هذه البطون والقبائل مجموعة الأمة التي أنشأت لها الدولة نظاماً خاصة لا تعتمد عليها بحيث بدأ النظام الإجتماعى والإقتصادى فى شكل هرم مدرج قمته الملكُ رسمياً ، وقاعدته رقيقُ الأرض .

وتخبرنا النقوش أن البيئة اليمنية كانت مقسومة إلى إقطاعات زراعية ، يسمى كل منها (مَحْفَدًا) ويسمى سيدها (ذو) أى صاحب . ويجتمع عدد من المحفدات بيد أحد (الأدواء) فتؤلف (مخلافًا) ويعطى سيدها لقب (قَيْلٌ) . ولما كانت البذرة الأولى لتكوين الدولة تتمثل فى القبائل ، فإن الأدواء والأقيال انتسبوا غالباً إلى القبيلة الأقوى ، وهى المركز الذى تتركز فيه القوى الإدارية والسياسية والاقتصادية للدولة .

وتألفت الدولة العربية الجنوبية من عدة طبقات، وهى : طبقة الاشراف الغنية ، وطبقة الفلاحين الذين يقومون على إستصلاح الارض واستغلالها ، وطبقة الصناع الذين يكلفون بتمهيد الطرق وتطهير الترع وأعمال الفحت والبناء الخ ، وطبقة الجند لحراسة المدن والقوافل والمعابد فضلاً عن أطراف البلاد ، وأخيراً طبقة العبيد . وبقدر ما كان يوجد من تفاوت بين القبائل فى الدولة الواحدة من الناحية السياسية أو الإجتماعية ، كان يوجد تفاوت كذلك بين أفراد القبيلة الواحدة فى الوظائف والمهن والحرف . ولم تكن القبائل التى تتمتع بالزعامة فى الدولة مُستثناة من هذه الاوضاع الاجتماعية ، فقبيلة سبأ مثلاً التى أطلق اسمها على الدولة السبئية كلها لم تتكون من أشراف فقط ، بل

من طبقات أخرى تختلف مكانتها الاجتماعية بعضها عن بعض، وينقسم أفرادها حسب وظائفهم إلى طبقات أدناها طبقة العبيد .

ولم يعرف الحاكم القديم في دولة معين سوى لقب (ملك) ، أما ملوك سبأ الأوائل فكان لقيهم (مكرب) ، ثم أصبحوا يلقبون بلقب ملك (سبأ) ، ثم صار اسمهم في العهد الحيرى (ملك سبأ وذو ريدان وحضرموت) دلالة على اتساع ملكهم . وأخيرا حمل ملك اليمن في العصر الحبشى وما قبله بقليل لقب (تُبْع) ومعناها بالحبشية القادر ، وهذا هو أصل كلمة التبابعة . وكان نظام وراثته الملك لدى اليمتين ينتقل من الابن إلى الابن . وقد يرث الأخ عرش أخيه ، كما كان للنساء حق وراثته ، وهكذا ملكت كل من (بلقيس) و (شمسية) . وضرب ملوك اليمن النقود باسمهم ، ونقشوا عليها صورهم أو مهرها بأسماء المدن ، أو بصور حية من الطبيعة كالبرص والصقر أو الثور ، وكلها رموز سياسية وزراعية ودينية ، وبظهر من نقودهم أنهم كانوا يخلقون شوارعهم ولحاهم ويرسلون شعورهم جدائل .

وفرض نظام التجنيد في اليمن على الفلاحين أن يقضوا حقة معينة في الجيش ، ولوحظ أن كثيرين من أصحاب الأملاك كانوا يقطعون للجنودية ويتزعمون فرق الجيش .

العمران ونظام الرى والسدود :

وصلنا الكثير من الروايات في كتب العرب واليونان عن عظمة بلاد اليمن وعمرانها العجيب . وأفرد الهمداني (المتوفى عام ٩٤٥ م في صنعاء) الجزء الثامن من كتابه الإكليل المشهور لوصف عمارة اليمن . وكانت معابدها وقصورها

قائمة في عصره تشهد على عظمة الماضي وقوة السلطان ، ورد في القرآن الكريم ما كان لسبأ من طيب العيش وفسيح الجنات وكريم الثمار . ولا غرابة في ذلك فطبيعة بلاد اليمن سخية جداً بمادة البناء من الأحجار والأخشاب ، بحيث ساعدت على تشييد العدد الكبير من المدن الصغيرة والكبيرة وأهمها مأرب ، ومعين وصرواح وصنعاء وبحران وسبوة وغلفار ولم يبق من معظم هذه المدن الفاخرة سوى أنماؤها أو آثارها المخربة ، بعد أن كانت عامرة بالقصور والأبراج والهياكل . ولم تقل براعة عرب الجنوب في البناء عن براعة إخوانهم في بلاد الرافدين والشام ومصر ، بل توجد عدة وجوه للشبه في فن العمارة بينهما .

وكان العربي الجنوبي يفتح الصخور الرخامية الكبيرة بإتقان وبينهما بمهارة كذلك ، بحيث لا يتبين الرائي الفواصل بين الأحجار . وكان يهتم بزخرفة السقوف والحيطان والأبواب ويمعن في ترصيعها بالعاج والذهب والفضة والجواهر ، أما الأعمدة فزينها بصفايح من الذهب والفضة . وقصر غمدان معجزة الصنعة ، ويدل عليها أن واجهاته الأربع مزدانة بأحجار من الأبيض والأسود والاحضر والاحمر . ويروى عن الفصر أنه كان عشرين سقفاً يرتفع السقف عن الآخر بمشرة أذرع . ولم تظهر عبقرية عرب الجنوب في المعابد والقصور فحسب ، بل تجلت كذلك في الفنون وفي إقامة السدود ونظم الري . فسد مأرب الذي نسجت حوله الاساطير والقصص ، وخزانات المياه والصحاريح التي مازالت تستعمل إلى اليوم دليل على هذه العبقرية وإن مدينة مأرب التي ينسب إليها السد العظيم تبعده مسافة ١٦٥ كم عن شمال شرقي صنعاء الحالية ، وبلغ طولها ١٧٠ م ، وعرضها ٧٠ م ، يحيط بها سور حجري ضخيم لا يزال قسمه الشمالى ظاهرة الأساس . وبتوسط المدينة ميدان بيضاوى الشكل تدل أطلاله وأعمدته القسامة من حوله على أنه كان حياً ارستوقراطياً أو ملكياً . وفي أطراف المدينة يوجد معبد الإله (المله) وكذلك المعبد المعروف باسم (محرم بلقيس) .

ومما دعا عرب الجنوب إلى إقامة السدود أن الأمطار الموسمية تهطل صيفاً على مرتفعات اليمن ، ولا ينتفع بها في الشتاء وهو فصل الجفاف فيها . ولذا عملوا على إيجاد نظام للرى يقوم على ادخار ماء الصيف للشتاء ، وذلك في منافذ الأودية لحجز الماء خلفها ليصرف بحساب عند الحاجة .

ويرجع سد مأرب إلى المدة الواقعة بين (٦٥٠ — ٦٠٠ ق . م) . وأقيم بناؤه عند فم وادى « أذنة » بالقرب من مدينة مأرب ، وهو سد حجري ضخيم طوله ٣٠٠ ذراعاً وعرضه ١٥٠ ذراعاً ، يوجد عند طرفيه مصرفان ؛ الجنوبي منهما يسمى ما يسمى (بالجنة اليمنية « الجنوبية ») عن طريق ست جدول ، والشمالى يمرى فيه الماء بواسطة قناتين إلى مسيل بطول ١ كيلو ، وعرض ٢٨ م ، وعمق ٧ م .

وأفاد السد فى رى الأراضى المرتفعة حتى وجدت فيها . « جنتان عن يمين وشمال . . » كما جاء فى القرآن الكريم . وأوجد عرب الجنوب تشريعاً خاصاً لضمان ترميم السدود والإفادة منها والسهل على حسن توزيع مياهها وحراسة سواقيها ، مما أدى إلى زراعة مساحات شاسعة بالحبوب والثمار والبخور والعطور والنخيل .

وهكذا قامت فى الجنوب العربى حضارة اتخذت الزراعة أساساً إلى جانب التجارة ، تماماً كما كان الحال فى بقية مراكز الحضارة فى الشرق العربى .

الديانة اليمنية :

يشارك عرب الجنوب مع سائر القبائل العربية في عمق شعورهم الديني ، ويدل على ذلك كثرة الهياكل والمعابد في بقاع اليمن ، وغلبة المسحة الدينية على النقوش والآثار . واقتبس عرب الجنوب ديانتهم عن البابليين . وتقوم الديانة في اليمن على أساس ثلاث من السكواكب ، فكان الإله الأب هو القمر (المقه) والالهة الأم هي الشمس (عشتار) ، أما الإله الإبن فـ و كوكب الزهرة (ود) .

وكان بجانب هذا الثلاث آلهة أخرى محلية ، وثمة معبودات للمطر وللمحاصيل وما إليها .

وكان كل إله من الآلهة هو الـ يد المطلق في معبده المسيطر على أملاك المعبد . وكان السكينة ذوى نفوذ كبير وامتيازات خاصة .



(شكل ٣٣) أحد معابد معين باليمن

وتسكاد المعابد اليمنية لا تقل في ضخامة البناء وروعة الفن عن مثيلاتها في مصر .

وظلت الوثنية دين اليمن حتى تسربت اليهودية والمسيحية إليها في القرنين الثالث والرابع للميلاد . ولم يلبث الإسلام أن انتشر في اليمن وأصبحت البلاد جزءاً من الدولة العربية الإسلامية الموحدة .

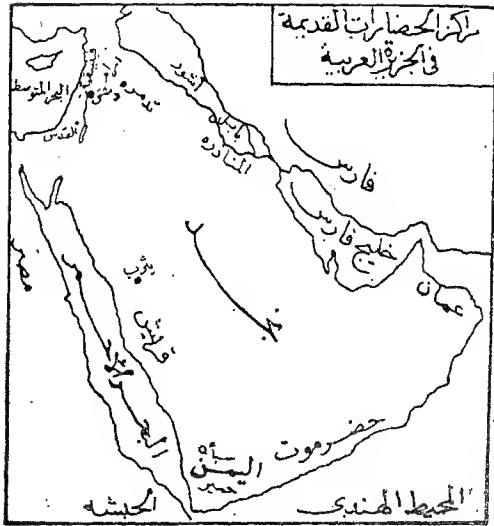
العلاقات بين اليمن والحضارات القديمة

تدل الخرائط الجغرافية للحضارات القديمة على أن شبه جزيرة العرب وصحرائها وبحرها الأحمر كانت الواسطة بين مصر وبلاد الرافدين والشام ووادي السند . ونلاحظ أن بلاد العرب قسمان جغرافيان مختلفان ، الأول في الشمال ويشمل الحجاز ونجد وتهامة ، وأكثر سكانها بدو يعتمدون في حياتهم على عدم الاستقرار طويلا في مكان واحد والتنقل والرعى . ولذا لم يستطيع سكان هذا القسم أن يؤسسوا كيانا مستقرا منتظما إلا بعد أن غير الإسلام بعض ما في قلوبهم من صفات البداوة . أما القسم الثاني فهو الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية ، والسكان في هذا القسم الجنوبي أهل حضر ومدن وسهول خصراء ، ويختلفون عن إخوانهم الشماليين في الملامح البشرية وفي درجة الحضارة (قبل الإسلام) . ويتضح هذا الاختلاف في التنافس القديم بين العدنانيين سكان الشمال ، وهم العرب (المستعربة) ، وبين القحطانيين سكان الجنوب وهم العرب (العاربة)

والمثل الأعلى لسكان الجنوب هم اليمنيون ، الذين مارسوا التجارة بين الأنظار المتباعدة ، وأسسوا محطات تجارية كان يقيم فيها جاليات من اليمنيين على طريق القوافل في أنحاء الجزيرة وشمالها ، مثل مأرب ومكة ويثرب (والمدينة المنورة) والعلامة ومان والبراء وغزة ، وغيرها من مدن الشام ومصر وأفريقية . وعادت القوافل اليمنية بسلع تلك البلاد لبيعها في طريق عودتها أو لتتجر بها مع الهنود وسكان جنوب آسيا . وسلكت بعض هذه القوافل طريقها أحيانا إلى بابل عن طريق حضرموت وعمان ، ومنها إلى سائر بلاد العراق . وتكشف الآثار المصرية والبابلية

كذلك عن صلات مبكرة واسعة بين مصر وبابل عن طريق البحر الأحمر والخليج العربي . لذلك نرى دولة حمير وهى آخر دولة كبرى ظهرت فى الجنوب تتوسع فى اتجاه البحر الأحمر والجنوب الشرقى ، ولم يمض عليها زمن طويل حتى أصبحت هذه الدولة صاحبة السلطان فى معظم البلاد الواقعة فى طريق تجارتها . ومثال ذلك أنه عندما أغار الملك شلمنصر الآشورى على دمشق عام ٨٥٩ ق.م ، وقف له زعيمان من زعماء القبائل العربية اليمنية الواردة من حمير إلى الشام ، وأعلنوا لملك دمشق وقتذاك استعدادهما للحرب دفاعاً عنه .

والواقع أن علاقات اليمنيين بالشام تعود إلى ما قبل أيام دولة حمير ، وكانت التجارة مزدهرة بين البلدين برغم ما تقلب على الشام من دول وممالك مختلفة من الفينيقيين والآراميين والعبرانيين ، ثم السلوقيين والأنباط والرومان . ولما كان الجزء الجنوبي من الشام نهايةً مطاف القوافل القادمة من الشرق الأقصى وشرق أفريقيا إلى البحر المتوسط ، احتفظ المعينيون والسبأيون بصلاتهم مع هذه الدول كلها ، وكانت قوافلهم تعود محملة ببضائع الشام من الحبوب والزيت والأوانى . وقد هدفت زيارة بلقيس ملكة سبأ لسلطان الحكيم ملك العبرانيين إلى غرض إقتصادي ، نظراً لأن كل دولة كانت تقوى فى منطقة سورية الجنوبية (فلسطين) كانت تهدد تجارة اليمنيين ، فيتوودد اليمنيون إلى هذه الدولة بالذهب والهدايا . ويبدو أن سليمان اتفق مع أحبارم الفينيقي ملك صور على جلب السلع والذهب من مصادرها بواسطة أسطول يتولى قيادته نوتية أحبارم الماهرة ، وأمام هذا التهديد اضطرت بلقيس أن تزور أورشليم ومعها كميات من الذهب والهدايا ، وبفضل الهدايا تم الاتفاق لابقاء تجارة الجنوب بأيدي سبأ (خريطة رقم ١٦) .



(خريطة رقم ١٦)

علاقات اليمن باليونان والرومان :

بعد هزيمة الفرس على يد الإسكندر المقدوني أسرعت الدول المجاورة بإرسال الهدايا عربونا لولائها لآخ اليوناني . ولكن سكان الجزيرة العربية أنفوا من ذلك فتوعدهم الإسكندر بالغزو ، ولكنه مات قبل أن ينفذ وعيده . واهتم البطالمة الأغريق بتشجيع التجارة في البحر الأحمر والمحيط الهندي . وحاول البطالمة تركيز تجارة الشرق في مصر ، وذلك بيسط سلطانهم على هذا الطريق البحري .

وعند ما أثبت الرومان مركزهم في مصر والشام حاولوا كذلك نقل حاصلات الهند عبر البحر الأحمر ، فصادفوا منافسة قوية من عرب الجنوب الذين كانوا يتحكمون في التجارة بالطريق البري . وعزم إيلوس جالوس حاكم مصر الروماني على غزو بلاد العرب (٢٤ ق م) ، ويحدثنا الجغرافي اليوناني ستراتون عن الصعاب التي واجهت الجنود في الطريق ، فأت معظمتهم قبل أن يحتملوا نجران ، وذلك بعد مسيرة ستة شهور . وعندما وصلت الجنود إلى مأرب مزقهم العرب شرمزق ، وعاد من بقي حيا منهم إلى مصر كاسف البال ، ولم يخضع العرب يوماً لليونان أو الرومان ..

اليمن والحبشة :

منذ القرن الأول للميلاد عبر بعض المهاجرين اليمنيين والحضارة إلى الشاطئ الإفريقي المقابل حيث رضعوا أساس الحضارة الحبشية ، وأرسوا قواعد مملكة أكسوم في الحبشة .

وانصلت علاقات الحبشة باليمن حتى أن لغة الحبش وكتابتهم ، ماها الا الكتابة والالغة الحيرية السائدة وقتذاك في اليمن .

وعندما احتل أبرهة بلاد اليمن باسم حكومة أكسوم بنى كنيسة عظيمة في صنعاء ، ذكرها العرب باسم القليس (من السكامة اليونانية إكليريا) ، وحاول أن يدخل العرب جميعا في النصرانية ولا يغيب عن بالنا أن اهتمام البيزنطيين حلفاء الحبشة بشئون اليمن ، وغزو الأحباش لتلك البلاد بتشجيع البيزنطيين كان يهدف إلى الاستيلاء على أهم طريق تجارى بين الهند والبحر المتوسط .

السمات المشتركة بين الحضارات القديمة

في الوطن العربي

وحدة الطبيعة :

يكون الوطن العربي وحدة جغرافية متكاملة جعلت حضاراته القديمة تشترك في سمات ومظاهر معينة ، فالإقليم الجغرافي للوطن العربي يشمل على أراضى زراعية تروىها مياه من الأنهار مثل وادى النيل ووادى الرافدين وبلاد الشام حيث يجرى بردى والعاص ، أو من الأمطار الموسمية المنتظمة على نحو ما تتمتع به بلاد اليمن ، وأجزاء من سورية حيث يسمى المطر بأسم « الديم » . ثم إن تلك الأراضى الخصبة يحيط بها مساحات شاسعة من الصحراوات والبحار . وساعد هذا التوزيع الجغرافي أهل الحضارات القديمة على التعاون وتبادل المنافع ، فالأراضى الخصبة صارت مراكز ذات جاذبية عند سكان الصحارى والبحار ، حيث وفدوا عليها يلتمسون عندها العيش ويسهمون مع أهلها فى بناء حضارة زاهرة تجمع شملهم جميعاً .

وترتب على تجمع السكان فى الأراضى ذات المياه الجارية والأمطار الوفيرة أن اشتركت حضارات الوطن العربي فى قيامها على أساس الزراعة ، وما تتطلبه الأعمال الزراعية من أدوات للحراث والفلاحة وتنظيم المساحات ، مصنوعة من الحجر أولاً ثم من المعادن بعد اكتشافها ، من النحاس والبرنز والحديد .

ومن السمات المشتركة التى جاءت نتيجة وحدة الطبيعة للتقاويم الزمنية ، التى ابتسكرها أهل الحضارات القديمة فى الوطن العربي لضبط مواعيد التغييرات

الجوية ولخدمة الأغراض الزراعية . فوضع المصريون مثلاً التقويم الشمسي ، الذي قسم السنة إلى اثني عشر شهراً ، وإلى خمسة وستين وثلثمائة يوم . ووضع البابليون التقويم الذي قسم السنة إلى شهور على أساس القمر ، وقسم الأسبوع إلى سبعة أيام

ثم إن تلك الحضارات القديمة تشابهت في أن العوامل الطبيعية ساعدت على قيام الوحدات السياسية فيها ، والتي تمثلت في بناء القرى والمدن من أجل استغلال الأرض ، وما ترتب على ذلك من تبادل العلاقات التجارية الداخلية والخارجية ، مما مهد السبيل للوحدة السياسية الكبرى للوطن العربي .

وحدة الجنس البشري (العربي)

ارتبط أهل الحضارات القديمة في الوطن العربي بروابط قرى وثيقة الأواصر . فهم جميعاً ينتمون إلى أرومة واحدة أصلها ثابت في الجزيرة العربية ، وامتدت فروعها في الوطن العربي عن طريق الهجرات البشرية التي خرجت من تلك الجزيرة العربية . ف منذ سنة ٣٥٠٠ ق.م خرجت هجرة من بلاد العرب اندفعت شعبة منها إلى أهل مصر والأخرى إلى السومريين أهل بابل . وتتابع تلك الهجرات بعد ذلك بحيث تزيد من أواصر القرى في الوطن العربي ، وتسهم في تقدم الحضارى . وأيدت الدراسات الحديثة قوة الصلة والقرى بين أهل الحضارات القديمة ، وتشابه ملامحهم الجثمانية ، وكذلك صفاتهم الاجتماعية وانطقية ، وما اشتهروا به من حب للسلام والعمل على تدعيم قواعده .

ومهدت تلك القرابة الجنسية السبيل أمام الهجرة العربية التاريخية الكبرى

التي حملت الإسلام إلى شتى مواطن الحضارات القديمة في الوطن العربي ، وصارت وحدة الجنس العربي رباطاً وثيقاً يجمع بين أبناء الوطن العربي ، ويحافظ على سلامة تلك الوحدة .

وحدة اللغة

وكشفت الدراسات الأثرية الحديثة ، الخاصة بفك طلاسم الخطوط السامرية والهيروغليفية ، عن وجود قرابة لغوية بين لغات أهل الحضارات القديمة في الوطن العربي ، وهي المصرية القديمة والأشورية والبابلية والآرامية والحيرية . فكل تلك اللغات ترجع إلى أصل واحد ، إذ الأصل الفعلي فيها جميعاً ثلاثي ، والزمن له صيغتان فقط ماضٍ وحاضر ، وتصريف الفعل فيها جميعاً واحد . وهناك تشابهاً يكاد يكون تاماً في أصول الكلمات في تلك اللغات القديمة ، بما في ذلك الضمائر الشخصية والأسماء التي تدل على صلة العربي (صلة الدم) ، وكذلك بعض الأسماء التي تطلق على أعضاء الجسم . وكل ذلك ينهض دليلاً قوياً على الروابط المشتركة بين الحضارات القديمة للوطن العربي .

وتفسّر تلك القرابة اللغوية بين أهل الوطن العربي سرعة اعتناقهم اللسان العربي الفصيح ، الذي نزل به القرآن الكريم ، والذي يعمل اليوم على تدهيم أو اصر الروابط بينهم ، ويحميهم من الفرقة .

التوحيد في الديانات

واشترك أهل الحضارات القديمة في الوطن العربي في أنهم أصحاب غريزة دينية قوية ، ولهم خيال رائع . فعلى الرغم من تعدد الآلهة التي عبدها أهل تلك

الحضارات القديمة فإنه ظهر بينهم دعاة التوحيد في الديانات ، مثل إخناتون في مصر وحامورابي في وادي الرافدين . وتدل النصوص الدينية التي تركها أهل الديانات القديمة في الوطن العربي على شدة ميلهم للتوحيد . وصارت الأقوال المأثورة عنهم ثرائاً مشتركاً ، يؤلف بين دياناتهم على الرغم من اتخاذهم لبعض الآلهة المحلية الخاصة .

وظلت نزعة التوحيد تنمو وتبرعرج بين أهل الحضارات القديمة في الوطن العربي ، حتى ظهرت بينهم الديانات السماوية ، التي حملت إلى الناس أجمع أصدق صورة عن التوحيد ، وعبادة الله الفرد الصمد ، على نحو ما جاءت به المسيحية والإسلام خاتم الأديان .

أُسْئَلَةٌ وَتَدْرِيبَاتٌ عَلَى الْبَابِ الْأَوَّلِ

١ - « اختص الوطن العربي الكبير بمهاد الحضارات البشرية القديمة »
إشرح هذه العبارة موضحاً العوامل التي ساعدت على قيام تلك الحضارات .

٢ - قارن بين النظم السياسية والاجتماعية في حضارات وادي النيل ووادي
الرافدين وبلاد الشام ثم رضح ما بينهما من مظاهر التشابه والاتصال .

٣ - استعرض نشأة الكتابة في الحضارات القديمة بالوطن العربي ، موضحاً مكانة
الأبجدية السورية بين تلك الكتابات .

٤ - إلى أى حد تأثرت المظاهر الحضارية في الجنوب الجزيرة العربية (بلاد
اليمن) بالبيئة الجغرافية ، وبالعلاقة تلك البلاد بالقوى الخارجية التي
اتصلت بها .

٥ - (أ) « قام التبادل التجارى بين مواطن الحضارات القديمة في الوطن العربي
على أسس اقتصادية طبيعية سليمة » . نأش تلك الأسس ، موضحاً بعض
مظاهر ذلك التبادل التجارى .

(ب) يظن البعض أن وحدة العالم العربي مجرد فكرة حديثة ، انقد هذه العبارة
مع شرح السمات المشتركة بين حضارات العالم العربي القديم .

الباب الثاني

الوطن العربي

قبيل الإسلام

الفصل الأول

أحوال العرب في الجزيرة العربية قبيل الإسلام

أولا : الأحوال السياسية

سكان بلاد العرب وأقسامهم :

ينقسم تاريخ العرب قبل الإسلام إلى قسمين :

أولا : عصر سبأ وحير ، وينتهي عند بداية القرن السادس الميلادي ،

ثانياً : عصر الجاهلية ، ويشمل معظم القرن السادس الميلادي إلى مولد النبي عليه الصلاة والسلام سنة ٥٧١ م .

ونشأ هذا التقسيم التاريخي من الخواص الجغرافية الطبيعية لبلاد العرب . فشبه الجزيرة العربية لا تحتوى على صحراوات وجبال وهضاب غصب ، بل اشتملت كذلك على ديان خضراء عظيمة الخصوبة . وازدهرت هذه الوديان الخضراء منذ آلاف السنين . وكثرت بها القرى الزراعية والمدن التجارية الزاهرة . وتقع هذه الوديان الخضراء بصفة خاصة حول أطراف شبه الجزيرة العربية . ففي الجنوب الغربي تقع اليمن التي عرفتها العصور القديمة باسم « بلاد العرب السعيدة » ، وفي الجنوب الشرقي توجد بلاد حضرموت ، وهي بلاد البخور والعطور الغالية

في العصور القديمة . وفي الشرق أرض الحسا الساحلية المطلّة على الخليج العربي ،
وهي أرض مشهورة بمحسوبيتها وكثرة حاصلاتها من الفلال والتخيل . وكذلك
أرض الطائف شمالي مكة وهي مشهورة بالفواكه وكذلك التخيل .

أما المساحات الصحراوية والمضيبة والجبلية فهي معظم شبه الجزيرة العربية .
وهي مجدبة مقفرة ، لا تصاح للمعيشة لانعدام الماء فيها تقريباً ، وهي التي تخطر
على البال دائماً حينما نذكر بلاد العرب . ومن سوء الحظ أن تلك المساحات
الصحراوية تمتد في بلاد العرب بحيث تطل على الديار الخضراء الخصبة بعضها عن
بعض تمام الانفصال . **مجلد أن أوسع الصحاري العربية ، وأشدّها جذبا ،**
وهي الربع الخالي ، تطلّ على السكان إلى التجمّع على الساحل الجنوبي الشرقي
والجنوبي وكذلك الساحل الغربي ، وتحول بينهم وبين الإتصال بسائر بلاد
العرب . وترتب على ذلك أن عرب الجنوب الشرقي في عمان ، وكذلك عرب
الجنوب في مملكة ساروا حسب منهج حضاري قائم بذاته دون أن تؤثر فيهم
حضارات البلاد العربية الداخلية .

وتتبع عن هذه الطبيعة المزدوجة في جغرافية شبه جزيرة بلاد العرب أن
انقسم سكانها قسمين ، أي حضر وبدو . وتركز الحضر في المناطق الجنوبية
الخصبة ، وعرفوا لذلك باسم عرب الجنوب . أما البدو فانتشرت مضاربهم في
المساحات الصحراوية الوسطى والشالية ، وعرفوا لذلك باسم عرب الشمال .

ووضعت هذه الصفات الخاصة في أنساب العرب في الشمال والجنوب ،
إذ يقسمون أنفسهم منذ أقدم العصور إلى عرب بائدة ، وهي مناطق نمود وعاد
التي وردتا في القرآن الكريم ، ثم عرب باقية ، وهم سائر العرب . ثم يعود

علماء الأنساب فيقسمون العرب الباقية قسمين كذلك ، وهم العرب العاربة والعرب المستعربة . والعاربة هم أهل اليمن الذين تسلسلوا من قحطان ، والمستعربة هم أهل الحجاز ونجد . وانتسب هؤلاء جميعاً إلى عدنان ، من سلالة اسماعيل عليه السلام :

ومن المعروف أن عرب الجنوب أسسوا الدول القديمة ، وأشهرها دولة سبأ (٩٥٠ — ١١٥ ق . م) ، ودولة حمير (١١٥ ق . م — ٥٢٥ م) . ونال عرب الجنوب قصب السبق في ميدان الحصار بفضل العوامل التي توفرت لهم في بلاد اليمن ، على نحو ما تقدم تفصيله في الباب السابق .

أما عرب الشمال فلم تظهر بينهم دولٌ مشابهة إلا في عصر متأخر ، عندما استقرت بعض قبائلهم على أطراف الهلال الخصيب . فشيدت الأنباط دولة في جنوب الشام ، واتخذت من بطرا عاصمةً لها في القرن الأول الميلادي . وعندما انهارت تلك الدولة العربية القديمة أقام العرب الضاربون حول مدينة تدمر وأطراف الفرات دولةً سميت باسم تلك المدينة ، وعلا شأنها في القرن السادس الميلادي .

انهيار الممالك القديمة

في بلاد العرب

أسباب سقوط بطرا وتدمير قبل الإسلام :

الظاهرة الكبرى في تاريخ بلاد العرب قبل الإسلام هو افتقار شبه الجزيرة إلى وحدة سياسية تجمع شمل سكانها تحت راية دولة قوية واحدة . ولذا ظلت عوامل التفرقة باقية بين عرب الجنوب وعرب الشمال ، كما أخذت الدول التي شيدها كل منهما تفقد سلطانها تدريجياً ، حتى صار التفكك هو الطابع المسيطر على بلاد العرب في العصر الجاهلي كله .

وظهرت بوادر هذا التفكك في انهيار الدول التي أقامها عرب الشمال على أطراف الهلال الخصيب . فلم تستطع دولة الأنباط مقاومة مدافع أباطرة الدولة الرومانية الذين أخضعوا الأنباط لإمبراطوريتهم ، وأدخلوا القبائل النبطية في التبعية لهم . ففي سنة ١٠٥ م استولى الإمبراطور تراجان على بطرا نفسها . ودأب الأباطرة الرومان على تطبيق سياسة الانحسار نحو دولة تدمر التي خلفت دولة الأنباط ، لأن أولئك الأباطرة خشوا أن تزدهر تدمر كما ازدهرت بطرا من قبل ، ففي القرن الثالث الميلادي خافت الملكة الزباء (زنوبيا) زوجها أذينة على العرش التدمري ، ونادت بنفسها ملكة على الشرق كله ، وأعلنت سيادتها على سبعة من آسيا الصغرى فضلاً عن الشام ومصر .

ولهذا عبأ الإمبراطور الروماني أورليان قواته للقضاء على تلك الدولة العربية قبل أن يستفحل شأنها ، وهجم على تدمر سنة ٢٧٢ م واستولى عليها وسقطت

الزباء أسيرةً في يده ، وأمر بنقلها ضمن الأسرى إلى روما . وخرَّب الإمبراطور مدينة تدمر بعد أن أمر بنقل كنوزها كذلك إلى روما . وبذلك انتهت الفولة التي شيدها العرب عند أحد طرفي الهلال الخصيب ، وتبعثرت قبائلها الباسلة في بادية الشام والصحراء الشمالية بشبه الجزيرة العربية .

سقوط دولة حمير :

وأخذ الضعف يدب كذلك بين عرب الجنوب الذين نشأت بينهم الدولة الحميرية ، لأن تلك الدولة اعتمدت في رخائها و ثروتها على التجارة الشرقية وأسرار الملاحة البحرية في المحيط الهندي بين اليمن والهند . وتفصيل ذلك أن البحارة الحميريين عرفوا مواعيد الرياح الموسمية التي تدفع السفن من اليمن إلى الهند صيفاً ، ومن الهند إلى اليمن شتاء . غير أن البحارة الرومان في البحر الأحمر اكتسبوا لأنفسهم هذه المواعيد ، وأخذت سفنهم تحصل المتاجر والتجار مباشرة إلى الهند دون حاجة إلى الاستعانة بالسفن الحميرية كما كان الحال سابقاً . وبهذا فقدت حمير سيطرتها على التجارة في المحيط الهندي ، وانهيار الأساس المتين الذي قام عليه مجدها ، وأخذت عوامل الضعف تفخر في بنائها السياسي . ثم لم يلبث هذا الضعف أن وضع في امتداد الأطماع الحبشية إلى أرض حمير . فغزا الأحباش بلاد اليمن غزوتين كبيرتين في القرنين الثاني والثالث الميلاديين ، ونجحوا في بسط نفوذهم على بعض أجزائها . ثم استطاع الأحباش إرسال غزوة ثالثة إلى بلاد اليمن بقيادة قائدهم أبرهة ، فقضت هذه الغزوة الثالثة على دولة حمير سنة ٥٢٥ م . واضطر آخر ملوك حمير واسمه ذو نواس إلى مبارحة بلاده ، وتركها طعمة مؤقتة للغزاة ، وصار ملك الحبشة يلقب باسم « ملك أكسوم وحمير

وريدان وحبشة وسمع وتهامة » ، دلالة على تبعية جميع عرب الجنوب تقريباً
السلطانة وإرادته .

واقترن بسمادة الأحباش على بلاد اليمن كارثة انهيار سد مأرب العظيم ،
وهي الحادثة المشهورة في الأدب العربي باسم « سيل العرم » ، إذ أصاب
الإهمال هذا السد الحيوى بسبب استمرار الفقر الاقتصادي الذى تقدمت الإشارة
إليه ، وأخذ التصدع يعمل فى بنائه تدريجياً ، دون أى أمل فى الحصول على
الأموال اللازمة لأصلاحه .

ولذا سحب ضعف الدولة الحيرية رحيل كثير من القبائل عن اليمن والأقاليم
الجنوبية من شبه الجزيرة العربية شمالاً ، فهاجر بنو غسان إلى منطقة حوران فى
الشام ، وبنو نهم إلى منطقة الحيرة غربى الفرات ، كما هاجر غيرها من القبائل
إلى مناطق أقل شهرة فى التاريخ . ونتج عن تلك الهجرات أن شهد إقليم
الحجاز أحداثاً تاريخية كبيرة مدة القرون المعروفة فى مجرعتها باسم العصر الجاهلى ،
وهو العصر السابق مباشرة لظهور الإسلام .

الحجاز قبيل الإسلام (العصر الجاهلي)

الحجاز هو الإقليم الجبلي الذي يحجز ويفضل جغرافيا بين إقليمي نجد وتهامة . والعصر الجاهلي لا يعنى الجهل نقيض العلم أو السقاة نقيض العقل ، بل يعنى العصر الذى لم يكن فيه لبلاد العرب عموماً قوانين جامعة أو نبى مرسل موحى إليه من الله ، ولا قرآن فيه من الآيات ما يكفل السعادة والخير العام لأى مجتمع بشرى فى أى عصر من العصور .

الحياة القبلية :

وأهم ظواهر الحياة البشرية فى بلاد الحجاز فى العصر الجاهلي هى غلبة الحياة القبلية على جميع السكان ، لأن المناطق الزراعية الصالحة لاستقرار الحضر فى بلاد الحجاز قليلة ، لا تعد وبضع مدن أو قرى ، على حين انتشرت الصحارى والبادى الشاسعة ، الملائمة للحياة القبلية البدوية . والواقع أن النظام القبلى خير نموذج للحياة السياسية فى البادية . فكل خيمة تمثل الأسرة ، وكل مجموعة من الخيام تجمعها روابط أمرية تسمى الحى . ويطلق على أفرادها كذلك اسم القوم ، ومن مجموعة الأقوام تتكون القبيلة . واقتضى نظام القبيلة اختيار أحد أفرادها لرئاستها ، وهو « الشيخ » الذى يكون اختياره لقوة شخصيته وسمو أخلاقه ، مع شجاعته فى الدفاع عن القبيلة . وظلت صلة الدم (القربى) لا الخضوع لشيخ هى العامل الهام فى الاحتفاظ بوحدة القبيلة .

ولذا حرص الشيخ على الابتعاد عن مظاهر الاستبداد ، ودأب على استشارة مجلس القبيلة المكون من زعماء الأقوام أو الأسر .

واشتهرت الحياة القبلية العربية عامة بحب الديمقراطية ، فترى العربي يقابل شيخه على قدم المساواة في الحقوق . ولم يعرف العربي طاعة إلا لقبيلته التي تمصب لها ، وصارت العصبية للقبيلة بمثابة الروح من الجسد ، كما اعتبر البدوي قبيلته وحدة ذات « حمى » يزود عنه . ويشتمل الحمى على الأرض التي تقوم عليها مضارب القبيلة ، وكذلك مناطق السكلا التي ترعى فيها دوابها . وبذلك تأصل الشعوب بالفردية في نفوس أبناء القبيلة ، حتى أنهم نظروا إلى القبائل المجاورة على أنها وحدات منافسة أو معادية . ولذا كثرت حوادث الصراع والحروب بين القبائل ، ولا سيما حصول امتلاك ينابيع المياه ومناطق السكلا ، وهي مصدر الحياة للبدو .

أيام العرب :

وتعرف أشهر حوادث الصراع بين القبائل في العصر الجاهلي باسم أيام العرب . وتشابهت أيام العرب وحروبهم ، فبدأت كل حرب بصراع بين أفراد قلائل ، ثم لم يابث الصراع أن يتسع نطاقه ، فيندمى فيه سائر أبناء القبائل المتنازعة . واستمرت بعض تلك الحروب سنوات طويلة ، لم تسكن كلها معارك أو وقائع حربية عامة ، بل تخللتها هدنات مؤقتة . وكان مما أدى إلى استمرار تلك الحروب عادة الثأر عند البدوي . فساكن أفراد القبيلة يهبون لنصرة كل فرد منهم ظلماً أو مظلوماً .

حرب البَسُوس :

ومن أشهر أيام العرب وأقدمها حرب البسوس ، التي دارت رحاها قرب نهاية القرن الخامس الميلادي بين بني بَكْرَ وبني تَغْلِبَ ، وهما من سلالة وائل . وجرت أحداث النزاع في مضارب هاتين القبيلتين بالشمال الشرقي من بلاد العرب . وسبب الخلاف بينهما أن شيخ بني تغلب وأمه كليبُ جرح ناقة للبسوس عمة جساس بن مرة شيخ بني بكر . فقتل جساس كليبا غدرا ، من باب الثأر لكرامة البسوس .

ولذا اشتعلت الحرب بين الفريقين ، واستغرقت زمنا طويلا . واشتهر من الفريقين أبطال عمدوا إلى الانتقام بعضهم من بعض . وظهر من أبطال قبيلة تغلب كليب بن أبي ربيعة وأخوه الشاعر الهميل ، الذي خلد الكثير من أحداث ذلك النزاع في قصائده . ثم انتهت تلك الحرب سنة ٥٥٥ م ، عندما توسط المُنذر الثالث ملك الحيرة وعقد صلحا بين الفريقين .

يوم داحس :

واشتهر من أيام العرب أيضاً يوم داحس ، ودارت معاركه بين قبيلة كَبَسَ وأختها قبيلة ذُبَيَّان بأواسط جزيرة العرب . وامتدت هاتان القبيلتان إلى جدٍ مشترك هو غَطَفَان . ونشبت الحرب بينهما لأن ذبيان أساءت إلى بني عبس أثناء سباق جرى بين جواد لشيخ عبس أممه داحس ، وفرس لشيخ ذبيان أسما الغبراء . فبينما داحس على وشك الفوز في السباق اعترضه رجل من ذبيان ، وهياً الفرصة لفوز الغبراء . واندلعت نيران الحرب بين الفريقين

بسبب الزمان ، وتأجج أوارها في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي ،
بعد إنتهاء حرب البسوس بزمان قصير . وظهر من أبطال بني عبس عنقرة
بن شداد ، المشهور بقصائده الحربية الرنانة . وانتهت تلك الحرب بتوسط بعض كبار
رجال القبائل ، الذين مدحهم الشاعر زهير بن أبي سلمى من أجل وساطتهم
بقصائد رائعة ، هي من روائع المعانيات في الشعر العربي القديم .

قبيلة قريش في مكة

تنظيمات قُصَيِّ بنِ كِلَابٍ :

بينما تفاحرت قبائل عرب الشمال استطاعت إحدى هذه القبائل وهي قريش في مكة وقراها أن تُنظِّمَ نفسها ، بحيث أصبحت سيدة الحجاز كله ، ثم بلاد العرب ، وذلك بفضل عدة عوامل تنبئ معرفتها بوضوح .

وذلك أن مكة انفردت عن سائر مواطن الحضر في الحجاز بوجود السكينة المكرمة في وسط البيت العتيق ، الذي وضع قواعده سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام .

ولذا غدت مكة على الرغم من وجودها في وادٍ بنيردى ذرع مركزاً للحج العربي السنوي العام قبل الإسلام . وساعد وقوع مكة عند منتصف الطريق التجارى العظيم بين اليمن والشام ، ووجودها على مسافة خمسين ميلا من ساحل البحر الأحمر ، على تطور هذه العاصمة القرشية ، بحيث أصبحت تسمى «أم القرى» في الحجاز ، وصار هذا الاسم علما عليها في التاريخ . وقامت في الحجاز مراكز حضرية أخرى ، وأهمها يثرب (المدينة المنورة فيما بعد) ، والطائف .

ولكن هاتين المدينتين لم تتمتعاً بما نالته مكة من مميزات دينية وتجارية . وإلى جانب ذلك انغمست قبيلتا الأوس والخزرج ، وهما سكان يثرب ، في عداوات قهلية شديدة صرقتها عن خدمة مدينتهم .

وأول من سكن مكة وما جاورها من البلاد أقوام اسمهم « العَمَالِقَة » ، نسبة إلى ضخامه أجسامهم واستطاعتهم الإقامة في بلاد صحراوية جافة . ثم خلفتهم بعد ذلك قبيلة جُرُهم ، اليمنية . ثم جاءت قبيلة يمنية أخرى اسمها « خَزَاعَة » ، فتغلبت على « جرهم » . وظل الأمر بمكة بيد خزاعة حتى ظهر قصي بن كلاب في قريش التي كانت تسكن قابِ تهامة . وناصب قصي قبيلة خزاعة العداء حتى تمكن من إخراجها عن مكة (في القرن الخامس الميلادي) ، واستولت قريش مرة أخرى على مقاليد الحكم بها ، ولا سيما حق الاشراف على البيت العتيق والحج العربي السنوي العام إلى الكعبة .

ثم وضع قصي للدولة المكية في عهده نظاماً إدارياً كفل لها الاستقرار السياسي ، والتقدم بها في سبيل الوصول إلى مركز الزعامة على بلاد العرب كلها قبيل الإسلام . وأول أركان ذلك النظام أنه جمع أحياء قريش وبطونها المبعثرة في الشعاب المكية إلى مكة نفسها ، وأكسبه ذلك العملُ اسمَ « المجمع » ، إذ جعل لكل بطن من بطون قريش حياً خاصاً على مقربة من الكعبة لجلايتها من أية عادية مستقبلية ، كما شيد لنفسه داراً يؤدي بابها إلى الكعبة مباشرة ، وسماها « دار الندوة » ، إشارة إلى اجتماع زعماء قريش في تلك الدار للتشاور والاتفاق على الخطط والمشروعات الواجب القيام بها . ولم يسمح قصي بن كلاب بدخول هذه الدار إلا لزعماء قريش ، ولمن بلغ منهم الأربعين من العمر ، أو اشتهر بالحكمة وقول الصواب . وتولى قصي رئاسة هذه الندوة ، ودأب على عقد جلساتها للنظر في المصالح القرشية العامة .

وفرض قصي على قريش ضريبة سنوية اسمها « الرقادة » ، لأن قريشا ترافدت بهذه الضريبة ، أي تعاونت على إخراج مال فيما بينها لتشتري به طعاماً

للحجاج الفقراء وغيرهم ممن يهبطون مسكة . ثم نظم قصى ما يعرف باسم السقاية ،
وهي تدبير الماء وحمله من آبار مسكة المجاورة بالمزاود والقرب ، ووضعه في
أحواض لسقاية الحاج . واحتفظ قصى لنفسه بالحجابة أو السدانة ، وهي حراسة
الكعبة وحفظ مفاتيحها ، لا يفتحها إلا هو ، ولا تبتدىء الشعائر المدينية رسمياً إلا
بإذنه . وبذلك جمع قصى في شخصه كل الوظائف الرئيسية في مكة ، مدنية كانت
أم دينية ، وجعل لقبيلة قريش وفروعها مجدا وزعامة على سائر عرب
الحجاز ، وذلك بعد أن برهنت الحوادث على أن تنظيمات الزعم قصى برغم
بساطتها اشتملت على روح تعاونية ، جعلت زعماء قريش جميعاً يقدمون المصالح
للعمامة على مصالحهم الشخصية . وهذه التنظيمات هي أهم ما كان من أحوال
بلاد العرب السياسية قبيل الإسلام ؛

ثانياً : أحوال العرب الاجتماعية قبيل الإسلام

عادة التنقل :

تشابهت أحوال العرب من بدو وحضر في كثير من النواحي الاجتماعية ، ومن الأدلة على ذلك أنه لم توجد فوارق واضحة تفصل بين الرُّحَّل والمقيمين من السكان ، إذ اصطلحت حياة الحضر بصفات عديدة ، تكشف عن نشاطهم الرعوية المتجولة ، وتجعلهم يشتركون مع البدو في بعض طبائعهم وتقاليدهم .

الواقع أن أهل الحضر من العرب لم يتخلَّوا تماماً عن عادة الترحُّل والارتحال من مكان إلى آخر ، كلما ساءت الأحوال في موطن من مواطنهم ، أو لسوا نفعاً في الهجرة إلى أرجاء جديدة تكفل لهم حياة أكثر استقراراً ورخاء . ولم يكن البدو من ناحية أخرى جوالين منتشرين في مناكب الأرض حباً في التنقل من إقليم إلى إقليم ، بل اختاروا الجهات الكفيلة بأطعامهم وبقطعانهم وفق أوقات معينة من السنة .

ولذا تنقلوا حسب فصول السنة ، فإذا وجدوا عين ماء يتلاقى عندها الرعاة قامت القرية من القرى أو المدينة من المدن حول تلك العين .

بساطة المعيشة :

ظل العرب يحتفظون بكثير من الروابط القبلية ، وما تستلزمه من تقاليد ونظم تكون موضع الاحترام والاعتبار دون حاجة إلى تسجيلها في قوانين مكتوبة .

وأول الصفات الاجتماعية المشتركة بين العرب هى بساطة المعيشة . فظلت الأسرة نواة المجتمع ، ولم يفتن العربى لنفسه سوى أمتعته الشخصية ، أما ينافيع الماء والمرعى والأراضى الزراعية فكانت ملكاً مشاعاً بين أفراد القبيلة كلها ، حسب نظام معين .

واشتمل طعامُ العربى اليومى على النمر ومزيج من الدقيق ، أو الحنطة المحصنة مع الماء أو اللبن ، وكان اللحم طعامَ الاحتفالات والمناسبات والأعياد . أما ملابس العربى فتألفت من ثوب ومنطقة وعباءة وكوفية وعقال لغطاء الرأس .

الأسرة العربية :

واقتصت الحياة القبيلية العربية تدعيمَ مركز الرجل فى أسرته ، وفى المجتمع العربى من بدو وحضر . فالأب فى الأسرة صاحب الكلمة العليا ، والمسئول عن كل شئونها . واشتهر العربى بالغيره على زوجته ونسائه ، وبالجماعة فى الدفاع عنهن . وأباح التقاليد الاجتماعية تعدد الزوجات ، لأن فى ذلك وسيلة لإنجاب أكثر عدد من الأولاد ، وتزويد القبيلة بطبقة كبيرة من الحارثين .

ولذا فرح العربى بالبنين ذرى البنات ، وإذا ولدت الأم ذكراً هناها أقرب باؤها من أهل القبيلة ، وذبح لها زوجها الذبائح إذا كان من الموسرين .

ولذا قيل فى التهانى « بالرفاء والبنين » وشاعت الأسماء عند العرب التى تدل على الرجولة والقدرة على تحمل المشاق . فانتشرت أسماء حجر وصخر

وتعلب ومصعب وضرغام وتأبط شرأ وسيف وعنترة وهكذا . ودرّب العرب
أبناءهم تدريباً قاسياً ، ليصبحوا رجالاً أشداء ذوي بأس في الصراع الذي فرضته
عليهم بيئتهم . فتعلم الفتيان المبارزة بالسيف والرماية بالنبال والرمح ، على حين
تدرب الموسرون منهم على الفروسية . ولذا صار الفوز أو الإغارة على القبائل
رياضة اجتماعية ، تهوى للفتى العربي فرصة لإظهار بطولته ، فضلاً عما يعود عليه
من منافع .

وبالقياس إلى شدة الاختيار بالأبناء من الذكور كان العربي قليل الحماسة
لنفسه من البنات . فإذا ولدت الأنثى لأحدهم لم يحتفل بمولودها بل حزن وتعني
أن يكون أحسن حظاً في المستقبل .

وكان للمرأة حق اختيار زوجها ، واحتفظ بعضهن بحق الطلاق في أيديهن .

الاعتزاز بالقبيلة :

وتولد عن اهتمام العربي بأسرته اهتمامه بحسبه ونسبه ، وهو التسلسل
عن طريق الأجداد والآباء . فصارت مجموعة الأسر تفخر بمجدها المشترك ،
ومجموعة الأحياء والبطون التي تتكون من الأسر تعزّز بشيخها الأول الذي
تحمل اسمه وألقبه . وهذه البطون بدورها تعزّز بالقبيلة الكبرى وشيخها
الكبير . ولذا استمد العربي عزّته من قبيلته . ولم تسكن هناك مصيبة تحمل بالعربي
أشدّ من أن تتخلّى عنه قبيلته ، وعُرف هذا الشخص باسم « الخليع » ، أي
الخلوع من جذور قبيلته ، وصار أشبه بالغريب أو المنبوذ الذي لا يحميه القانون ،
بل ينتقل إلى الحاية يوماً بعد يوم . فإذا قتل خليع لم ينهض أحد من قبيلته
للتأثر له ، لأنه سبق للقبيلة وأفرادها أن تبرأوا منه .

ولذا ارتبط العربي بقبيلته ارتباطاً شديداً ، حتى إنه أطلق على كل غريب عنها اسم « الدليل » ، أو « اللزيق » .

ولما كان مقياس قوة القبيلة هو عدد أفرادها والمنتمين إليها ، اتخذت كل قبيلة لنفسها عدداً من الموالى ، وهم الأشخاص الغرباء عنها ، لتزيد بهم من عداد القادرين على القتال . وأنقسم أولئك الموالى قسمين ، فاشتمل القسم الأول على فئة من الأحرار الراغبين في العيش في حاية قبيلة قوية ، وصاروا بذلك موالى تلك القبيلة . واشتمل القسم الثانى على الذين اعتقوا ، وآثروا البقاء موالى ساداتهم السابقين . وتغافى الموالى فى خدمة قبائلهم ، وشدوا من أزرها فى أوقات شدتها .

وجاء الأرقاء غالباً عن طريق الأسر فى الحروب ، كما جاء بعضهم عن طريق الجلب والشراء . اشتغل والأرقاء من الذكور بمختلف الأعمال التى يطلبها منهم ساداتهم ، أما النساء فكان سرارى لمن يملكوهن . وسمح للأرقاء بالزواج ، واشتغل أبناؤهم وبناتهم بالخدمة فى منازل السادة ، وكثيراً ما سمح لأولئك الأرقاء وأبنائهم وبناتهم بالحصول على حريتهم الشخصية عن طريق العتق .

الأخلاق والصفات العربية :

وإذا كانت البيئة فى بلاد العرب قد خلقت فى كثير من الأفراد والجماعات القبلية عادات إجتماعية مؤذية ، أهمها أغارة القبائل بعضها على بعض ، وسلب الماشية والاستحواز على مصادر السكلا ، فإن هذه البيئة نفسها ولدت قواعد النضال المشترك ضد الطبيعة القاسية ، وخلقت بين العرب واجبات إجتماعية مقدسة ،

منها الضيافة والوفاء وحماية الجار والمروءة والبسالة . وتسابق العرب جميعاً في ميدان كسب السمعة الحسنة بالتزام هذه الصفات العالية . فاشتهر حاتم الطائي (المتوفى سنة ٦٠٥ م) بحسن الضيافة حتى صار المثل الأعلى للكرم عند العربي ، إذ نذر وهو صبي يرعى ابل أبيه ثلاثة منها ليطعم جماعة من عابري السبيل المعروفين لأبيه . وتعددت الأمثلة التي ضربها حاتم في ميدان الكرم والضيافة حتى وفاته .

أما الوفاء بالوعد فهو كمال الشرف التي ارتبط بها العربي ، وضحي في سبيلها بأعلى ماله . فالسكامة ينطق بها العربي ، ويظل محافظاً عليها ، على نحو ما يخضع المرء للقانون . وضرب العرب أمثلة رائدة في الوفاء خلدها أمثالهم الشهيرة قبل الإسلام . وارتبط بالوفاء حماية الجار ، انتهى منها العرب طواغية إلى جيرانهم وبذل في ذلك الواجب تضحيات عظيمة ، لأنه اعتبر أية إهانة تلحق بجاره إهانة له .

وتوّج العربي خصاله الاجتماعية بما اشتهر به من حب للحرية ، واحمال الشدائد من أجل الدفاع عن حريته . وساعدته الصحراء على أن يظل أياً عزيز النفس وحفظت له تقاليده العربية ، كما أبعدت المؤثرات الخارجية عن الاختلاط بهذه التقاليد . ومعنى هذا أن الصحراء التي شملت معظم أرجاء شبه جزيرة العرب ظلت درعاً بقي القبائل العربية من الغزو الخارجي ، ويحفظ لها صفاتها النبيلة القائمة على الاعتزاز بالنفس وبالقبيلة معاً .

وعبر النعمان الثالث ، ملك الحيرة العربي ، عن ذلك كله وغيره مما لم يتسع المجال لنشرحه ، حسين قال لسكسرى ملك الفرس ما نصه :

« أيها الملك ، أى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها بعزها ومنعتها وحسن
وجوها وبأسها وسخاها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنتها ووفائها
والعرب لم ينلهم نائل ، حصونهم ظهورُ خيولهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم
السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبرُ ، إذغبرها من الأمم أتماعها الحجارةُ
والطينُ وجزائرُ البحور أما وفاء العربى فإن أحداً ليبلغه أن رجلاً
استجار به وعسى أن يكون نائياً عن داره فيصاب ، فلا يرضى حتى يفى تلك
القبيلة التى أصابته ، أو تبنى قبيلته » .

ثالثاً : أحوال العرب الاقتصادية قبيل الاسلام

١ - الحياة الاقتصادية :

كانت التجارة عصب الحياة الاقتصادية في بلاد العرب قبل الاسلام . فاشتغل بها جميع السكان من بدو وحضر ، بالإضافة إلى أعمالهم التي فرضتها عليهم بيئتهم الصحراوية الرعوية . ذلك أن العربي كره الاشتغال بالحرف مثل الزراعة والصناعة ، وتركها للأرقاء وغيرهم من الأنباغ

ولذا صارت التجارة العمود الفقري لحياة العرب على اختلاف بيئاتهم من عرب الجبوب وعرب الشمال .

وتولد هذا النشاط الاقتصادي من الموقع الجغرافي لشبه جزيرة العرب . فهي تتحكم في الطريق التجاري العظيم الممتد من الهند والشرق الأقصى إلى الأسواق المطلة على شرق البحر المتوسط . ولذا تقاطرت على بلاد العرب قوافل التوابل والسيوف والممنسوجات من الهند ، والمحارير من الصين ، والآلات من الخليج العربي ، والرقيق والقردة والعاج والذهب وريش النعام من بلاد الحبشة . وصارت بلاد اليمن خاصة مركزاً لوصول تلك السلع من مصادرها المختلفة ، لإشراف الحكومات اليمنية على باب المندب المؤدى إلى البحر الأحمر ، وما يجاوره من الأسواق العالمية في القازم (السويس) ودمياط والإسكندرية ودمشق وغزة وحلب وبيت المقدس .

وأضاف العرب إلى متاجرهم الشرقية منتجات بلادهم ، وأهمها العطور

والبحور ، فضلا عن كميات معينة من التوابل العربية . ولذا صار الطريق التجارى من اليمن إلى الشام أهم الشرايين التى حملت منتجات الشرق إلى الغرب ، وتفرع هذا الطريق فرعين ، أحدهما بحرى ، من موانئ اليمن إلى أيلة (العقبة) ، والآخر برى من صنعاء إلى مكة ، مخترقا الحجاز إلى بلدة العُلا (ديدان) ، وهى إحدى المحطات التجارية فى أطراف مملكة الأنباط القديمة .

وظل اليمنيون حتى القرن الأول الميلادى يفتقلون متاجرهم بأنفسهم على هذين الطريقين . فوصلت سفنهم بجرأ إلى أيلة ، كما وصلت قوافلهم البرية إلى ديدان ، وقامت لهم محطات تجارية على امتداد هذين الطريقين فى البر والبحر . وأفاد من هذا النشاط التجارى عرب الأنباط ، ثم عرب تدمر لوقوع بلادهم عند منتهى هذين الطريقين ، وتولوا نقل المتاجر إلى أسواق الشام ومصر وغيرها من البلاد المطلة على شرق البحر المتوسط .

رحلتنا الشتاء والصيف :

ثم أدى انهيار دولة حمير فى اليمن وزوال دولة الأنباط وتدمر إلى انتقال هذا النشاط التجارى إلى أيدي عرب الحجاز خاصة . إذ ترتب على حكم الأحباش لبلاد اليمن طرد عرب الجنوب من ميدان التجارة ، كما أدى إمتداد الحكم الرومانى على بلاد الأنباط إلى حرمان عرب الشمال كذلك من هذا الميدان . وانخلاصة أن عرب الحجاز أفردوا فى النهاية بالسيطرة على الطريق التجارى البرى من القرن السادس الميلادى ، وهو القرن السابق لظهور الاسلام . ولم يلبث ذلك الطريق أن أصبح هو الطريق التجارى الوحيد ، بعد أن فشل الأحباش فى تأسيس سلطنتهم باليمن . ولذا غدا عرب الحجاز أصحاب السيطرة

التامة على التجارة بين الشرق والغرب

وتركز نشاط عرب الحجاز التجارى فى أيدي قريش ، صاحبة السيادة على مكة ، وهى أهم محطة تجارية على طريق القوافل العظيم . وتولى أحفاد قصي بن كلاب ، مؤسس المجد المكي السياسى ، قيادة القوافل التجارية بأنفسهم فأخصَّ هاشمُ بن عبد مناف مثلاً بالشام ، وعبدُ شمس بالحِشَّة ، والمطلب باليمن ، ونوفل بفارس . ويعتبرُ الحفيدُ الأولُ وهو هاشمُ المؤسسَ الحقيقي للمجد المكي الاقتصادى الجديد . فينسب إلى هاشم أنه أول من سن لقريش رحلة الصيف إلى بلاد الشام ورحلة الشتاء إلى بلاد اليمن . وأعطى هاشمُ هذ المظهر الثنائى لأهم قوافل التجارة المكية ، مما جعل الروايات تعدّه مبتكراً فى ميدان الاقتصاد والأعمال التجارية . ثم دعم هاشم نشاطَ عرب الحجاز بعقد تحالفات ومعاهدات مع الدول والممالك المجاورة للحجاز ، لتسيير القوافل فى أراضيها مطمئنة .

وساعدت الأشهرُ الحرم رجالَ قريش على تنظيم رحلاتى الشتاء والصيف إذ هيأت المجتمع المكي فرصة الانصال بالقبائل العربية القريبة والبعيدة ، كما هيأت للقريشيين إظهار جدارتهم بالزعامة على سائر بلاد العرب ، وهذا وذلك فضلاً عن إظهار فضائل السلم بين قبائل العرب لمدة أربعة أشهر ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والحرم ورجب ، والشهر الثالث منها هو الذى اشتق منه إنسم الأشهر الحرم ومن الواضح أن قبيلة قريش استخدمت هذه الأشهر كذلك فى نقل كميات هائلة من متاجر الشرق والغرب ، استعداداً لرحلاتى الشتاء والصيف .

حلف الفضول :

وحرصت قريش على سمعتها التجارية حرصاً شديداً ، وأقامت نفسها حامياً للمتاجر وأحمائها وحقوقها . ومن أمثلة ذلك ما هو معروف باسم حلف الفضول الذي عقده مكة لتحقيق تلك الحماية . وأصل ذلك الحلف أن أحد التجار اليمنيين من زبد قدم مكة بتجارة ، فاشترها منه التاجر القرشي العاص بن وائل . غير أن العاص رفض دفع ثمن البضائع التي اشترها لسبب غير واضح . وبئس التاجر من استرداد حقه بضاعة أو مالا ، فصعد إلى إحدى مرتفعات مكة القريبة من السكبة ، وصاح بأهلها مستغيثاً . وتسامع شيوخ قريش بهذه الاستغاثة في ندوتهم حول السكبة . فقاموا وعلى رأسهم الزبير بن عبد المطلب وعقدوا اجتماعاً في دار عبد الله بن جدعان . وتم الاتفاق بينهم على أن يكونوا جميعاً ولداً واحدة لنصر المظلوم ، دون أن يدعوهم أحد لذلك ، ولهذا سمي هذا الاتفاق باسم حلف الفضول . ثم ذهبوا إلى العاص بن وائل وأخذوا منه سلع التاجر الزبيدي وردوها إليه .

وارتبط بحلف الفضول تأسيس قوة طمأننت القوافل التجارية ومنعت عنها إعتداء المعتدين من قطاع الطرق . ولم يكن قطع الطريق على القوافل التجارية شيئاً قبيحاً فإن بعض القبائل الفقيرة انتشرة في أرض تهامة دأبت على مهاجمة المتاجر الواصلة من اليمن إلى الحجاز دون رعاية لحرمت أو موافق . ومن هذه القبائل كذلك بنو غفار بين مكة والشام ، إذ دأب الخليليون من تلك القبيلة ، أمثال البراد على نهب القوافل وسلبها ، حتى صارت أعماله مصدر فزع ورعب .

ولذا عملت قريش على اجتذاب قبيلة بني غفار إلى حلف الفضول ، حرصاً على مصالح مكة التجارية .

وعهدت قريش إلى القبائل المبعثرة على طول طرقها التجارية وفروعها

بمهمة حراسة المتاجر ، وإنخلق لهم سبيلاً للتكسب يعوضهم عن السلب والنهب ولتأمين بذلك شهرهم ، ولذا أنشأت قريش من أكثر من قبيلة واحدة من تهامة عسكرياً مأجوراً ، اشتهر باسم « الاحابيش » ، وعهدت إليه بحراسة القوافل . وبذلك استطاعت مكة أن تنشئ لنفسها قوة عسكرية ، فضلاً عن القوة السياسية التي اكتسبتها بحلف الفضول ، وماسبة من معاهدات لحسن الجوار بين القبائل .

إعداد القافلة :

واشتهرت القوافل المسكية القرشية بالدقة في نظامها ، وحرص قادتها على سلامتها كل الحرص . فدأب عليه القرشيين على عقد إجتماع في دار الندوة قبيل خروج قافلة من مكة إلى الشام أو اليمن ، يتدارسوا طريقة تمويلها وتأمينها ذهاباً وإياباً . وتولى هذا التنظيم بنو أمية لأنهم كانوا قبيل الإسلام أصحاب اللوا ، أى أصحاب قيادة القوافل التجارية . واشترك في إعداد القافلة وأسهم في متاجرها وأموالها الرجال والنساء من قريش ، كما اشترك فيها الغنى والفقير من التجار ، إذ تطلعت الأسرة الغنية إلى تنمية ثروتها عن طريق المشاريع التجارية الراجعة ، على حين كان اشترك لأسر الفقيرة في استغلال أموالها الضئيلة في هذا الميدان دليلاً على انتشار مبدأ المساواة الاقتصادية بين أحياء قريش . واشتركت النساء المكيات كما قدمنا في هذه القوافل ، فتاجرت السيدة خديجة ، زوجة

الرسول الكريم فيما بعد ، في بلاد الشام ، واشتهرت أم أبي جهل بممارسة تجارة العطور ، وكذلك هند زوجة أبي سفيان ، وكلاهما من نساء بني أمية .

والواقع أن العبء الأكبر في إعداد القوافل الشامية وقع معظمه على كاهل بني أمية ، رجالاً ونساء . إذ جمعوا الأموال من كل راغب في التجارة ، ثم دفعوا هم الباقي من الأموال المطلوبة وهو الجزء الأكبر غالباً . فمن ذلك أن المال اللازم لإعداد القافلة التي عزم الرسول الكريم على مهاجتها عند بدر ، بلغ مقداره ٥٠٠٠٠ دينار ، دفع معظمه بنو أمية ، إذ أسهم بيت أبواحيحة من بني أمية بمقدار ٣٠٠٠٠ دينار ، وقدمت بيوت أمية الأخرى ١٠٠٠٠ دينار . وبعبارة أخرى استطاعت نقابة تجار بني أمية أن تزود القافلة بأربعة أخماس المبلغ المطلوب لمشاريعها التجارية .

وبلغ عدد الجمال التي خرجت في القافلة ٢٥٠٠ بعير على المتوسط ومعها من الحراس حوالي ٣٠٠ رجل على المتوسط كذلك ما بين دليل وخفير . وكان أبو سفيان بن أمية يتولى قيادة معظم القوافل الشامية ، وجزت العادة بتزويده بساطات واسعة ، أباحت له مفاوضة قبائل البدو في طريقه ، والاتفاق معها على شئون تأمين قافلته من اعتداء غير المؤولين .

وكان خروج القافلة من مكة يوماً مشهوداً عند المسكين ، وكذلك يوم استقبال عودتها . فعند سفرها يخرج الناس لتوديعها ، بالأمال على تأديتها تجارتها في أمن وسلام ، وعند عودتها يكون دخولها إلى مكة أشبه بدخول الجيش الظافر ، ثم يقبل الناس على رئيس القافلة ، ويأخذون نصيبهم في الأرباح مسرورين .

أسواق العرب

أنواع الأسواق :

وارتبط النشاط التجاري الذي ساد بلاد العرب في العصر الجاهلي بتعدد الأسواق المحلية والعالمية . ومن أمثلة الأسواق المحلية ، سوق صنعاء وحضر موت ، لأنها كانت أسواقاً لأهل البلاد القريبة ونفر قليل من التجار الأجانب الذين اضطرتهم مصالحهم إلى ارتياد تلك الأسواق لشراء السلع العربية القليلة الكميات .

أما الأسواق العالمية فهي التي قامت في بلاد الحجاز ، وعلى مقربة من مكة خاصة . ذلك أن تنظيم قريش لشئون مكة جعل القبائل العربية تفد إليها من سائر أجزاء شبه الجزيرة للتجارة ولقضاء فريضة الحج إلى البيت العتيق (السكبة) . وساعد وقوع الحجاز في الجزء الأوسط من غرب شبه جزيرة العرب . ، وسهولة الطرق المؤدية إليه على اصطباغ أسواقها بصبغة عالمية ، واسعة النطاق . حيث التقى العرب من أنحاء البلاد العربية بالوكلاء التجاريين من مختلف البلاد المجاورة وغير المجاورة وأهمها مصر والشام وأقاليم الدولة البيزنطية (بلاد الروم) وفارس والحبشة .

ومما أكسب أسواق الحجاز شهرة خاصة أنها امتلأت بالمهاجج التي تصاحب اجتماع أعداد كبيرة من الناس من مختلف الجنسيات في موضع جغرافي ملائم . ومن هذه الأسواق في العصر الجاهلي سوق عكاظ ومجنة وذو الحجاز وهي كلها على مقربة من مكة ، وانعقدت من بداية ذي القعدة إلى بداية موسم

الحج أى مسدة عشرين يوماً متواصلة تقريباً ، واشتهرت هذه الأسواق بميزات خاصة .

فانفرد سوق عكاظ بموقعه الجغرافى الممتاز فهو على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً من مكة وعشرة أميال من الطائف . وشغل هذا السوق مكاناً منبسطة في وادٍ فسيح توفرت فيه المياه والتخيل . وانعقد من أول ذى القعدة إلى العشرين منه ، أى عند بداية الأشهر الحرم والحج إلى مكة . ولذا امتازت سوق عكاظ بميزتين فريدتين على سائر أسواق العرب ، أولهما قربها من مكة ، مركز التجارة الكبرى في بلاد العرب كلها . وثانيهما اطمئنان التجار إلى الأمن على أنفسهم وأموالهم ومتاجرهم من عبث العابثين احزاماً للأشهر الحرم .

واختصت سوق سكاظ بنظام جعلها أحسن أسواق العرب . إذ اتسع لجميع قبائل العرب فاتخذت كل قبيلة لنفسها فيه مكاناً معيناً ، وأشرف على السوق وعيائاته رئيس كان غالباً من بنى تميم من قريش . وساعده أشخاص من مختلف القبائل لأخذ أساحة الواردين على السوق وابقائها عندهم حتى نهاية الموسم إمعاناً في تأكيد الأمان والاطمئنان . وكان رئيس السوق هو الذى يفصل في الخصومات . وعمن اشتهر بهذه الرئاسة عبد الله بن جعدعان ، وهو من حكماء العرب وأثريائهم ومن أبطال حلف الفضول .

وقام سوق عكاظ بوظيفة اجتماعية هامة إلى جانب التجارة ، وسعت أعماله للاستماع إلى بداء المظالم من مختلف القبائل ، فمن كانت له شكوى ضد أحد هب إلى سوق عكاظ ورفع راية تسمى راية الغدر ، ثم يقوم ويخطب بالناس في السوق قائلاً أن فلان بن فلان غدر به ، وأعطاهم أوصافه ، وطلب منهم لحكم عليه بالمقاطعة قائلاً « فاعرفوا وجهه ، ولا تصافوه ولا تجالسوه » . ولما

أرادت قبيلة أن تعان خلع أحد أبنائها أعلنت ذلك في سوق عكاظ، حتى لا تتحمل قبيلته التي خلعتته وتبرأت منه وزر أعماله في المستقبل . وقام بالسوق حكماء مهمتهم الفصل فيما ينشأ بين كبار العرب من قريش وغيرها من تفاخر . وكانت أحكام الحكماء في ذلك نهائية فاصلة في السوق التي فيها على الأقل .

وأوجد اجتماع الرجال والنساء في سوق عكاظ مناسبات لعقد زيجات كثيرة ، كما أوجد الفرصة لدعاة الإصلاح الاجتماعي والديني . واشتهر في مضار الدعوة للإصلاح العام الخواصب الشيرقس بن ساعدة الأيادي .

على أن ميدان الخلود لسوق عكاظ هو الميدان الأدبي والثقافي إذ جاء الشعراء والخطباء من كل أقاليم شبه جزيرة العرب وتباروا في القاء القصائد الرائعة والخطب الرنانة بلهجة قريش ، وبهذا نالت اللهجة القرشية صفة السيادة على لهجات القبائل كلها ومهدت هذه السيادة اللغوية إلى وحدة بلاد العرب عندما نزل القرآن الكريم بلغة قريش ، وهي اللغة العربية الفصحى .

رابعاً : أحوال العرب الفكرية قبيل الإسلام

مظاهر الحياة العقلية

اللغة العربية :

إنصفت الأحوال الفكرية عند العرب قبل الإسلام بصفتين ، أولهما ضخامة الإنتاج الأدبي الباهر ، وثانيهما كثرة معتقداتهم الدينية وتعدد آلهتهم . أما ضخامة الإنتاج الأدبي فترجع إلى أن اللغة العربية القديمة إلتصقت إلى فرعين . تبعاً لإقسام أهلها . فتكلم أهل الجنوب اللسان الحميري وهو أقدم فروع اللغات السامية وتألقت أبجديتها من تسعة وعشرين حرفاً ، وتشابهت مع اللغة الأثيوبية (الحبشية) في تكوين الأسماء وتصريف الأفعال وتركيب الضائر وبناء المفردات . غير أن هذه اللغة تدهورت بتدهور حضارة بلاد اليمن ومجدها السيامي ، وحلت محلها لغة عرب الشمال وهي كذلك من اللغات السامية . غير أن لغة عرب الشمال تطورت في العصر الجاهلي تطوراً عظيماً بفضل اتصال أهلها عن طريق التجارة بلغات البلاد المجاورة ، فغنيت بالمفردات والمعاني الجديدة ، وسرى إليها فن التجويل اللغوي ، حتى قال المثل العربي « إن جمال الإنسان في فصاحة اللسان » ووجدت العبقرية العربية متنفساً في التعبير عن هذا اللسان الغني ، وصار للعرب بذلك مكانة كبيرة في أصول الحضارة القديمة .

ونتج عن ذلك أنه عندما حلت لغة عرب الشمال محل اللغة الحميرية في جنوب شبه جزيرة العرب ، وجد العرب في الجنوب أنفسهم أمام لغة فصيحة معبرة عن جميع مقومات الحياة . وبما زاد في إتقان لغة عرب الشمال كذلك إتقائه

القبائل المختلفة في مواسم التجارة في الحجاز ، وخصوصاً في مكة . ولذا نالت لغة قبيلة قريش سيادة على سائر اللغات ، ولا سيما بعد أن وضحت قدرتها على تعريب الكثير من الألفاظ الأجنبية واستخدمها في سهولة . وبديهي أن لغة قريش وجدت في سوق عكاظ وأشباهاه من الأسواق القريبة من مكة فرصةً للاندثار دون سائر لهجات القبائل الأخرى : ولم يأت القرن السابق للإسلام حتى أصبحت لغة قريش هي لغة القرآن الكريم ، هي اللغة السائدة في بلاد العرب .

الأدب :

وبلغت اللغة العربية القرشية أوج مجدها في العصر الجاهلي فيما بين سنة ٥٢٥ م ، وظهرت روائع إنتاجها في ثلاث نواحي ، وهي الأمثال والقصص البثرى والأشعار . أما الأمثال فهي صدى الحياة للناس على اختلاف طبقاتهم . وهي من حيث صياغتها اللغوية مختصرة بليغة منطوية على تجارب ومعان عميقة . على أن كل طبقة استمدت أمثلتها من حياتها ، فتأثرت قريش في صياغتها وأمثلتها بالتجارة وأعمالها ، ومن ذلك قولهم « لا في المير ولا في النفير » للشخص التافه الذي لا نصيب له في القوافل التجارية ومكاسبها ، ولا في العسكر الحارِس لتلك القوافل . وكذلك قولهم « أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً » وهو ما أمله البيئة العربية القاسية . وذاع اسم لقمان الحكيم بين العرب في العصر الجاهلي ، وصار لقمان هو المثل الأعلى للحكمة ، والقدرة على التعبير البليغ السامع المعنى . أما النثر فلم يبق إنتشاراً كبيراً . واقتصر على القصص المتعلق بأحداث الدرب وأيامهم وربما كان السبب في ذلك عدم إهتمام عرب الشمال بالخط والكتابة ، وإحلال الذاكرة محل التدوين المكتوب . ومن هنا كان إهتمامهم

بالشعر المتقن لسهولة إبداع الأخبار بين أبياته .

الشعر :

اشتهر العرب شهرة عظيمة بالشعر ، إذ وجدت عبقرياتهم فيه حقلا خصبا للنمو والإزدهار وصار من الأقوال المأثورة « الشعر ديوان العرب » ، أى أنه سجل حياتهم وأخلاقهم وعاداتهم وديانتهم وعقائهم وتاريخهم . واتخذ الشعر مظهر القصيدة التى ترجع أقدمها إلى حوالى ١٥٠ سنة قبل الإسلام . فينسب إلى المهلهل بطل بنى تغلب فى حرب البسوس أنه أول من نظم القصائد الطوال . غير أن القصيدة العربية سرّت فى أدوار عدة قبل أن تبلغ مظهرها الفخيم الذى عبر عنه المهلهل فى شعره . وتشابهت قصائد الشعراء العرب فى رصانة الأسلوب وجزالة الألفاظ مع قوة فى الداطقة القباية دائما .

واشتهرت من بين القصائد العربية القديمة سبع قصائد ، هى المملقات . وهى المثل الأعلى الخالد للشعر العربى فى جميع العصور . وسبب تسميتها بهذا الاسم أن كل قصيدة منها حصلت على جائزة الفوق فى سوق من أسواق عكاظ السنوية ، وأنها كتبت بحروف من الذهب على قماش من حرير وعُلقت على جدران السكبة . وأول قصيدة نالت هذه الجائزة السنوية قصيدة امرئ القيس (المتوفى سنة ٥٤٠ م) .

وترتب على ارتفاع شأن الشعر بين العرب علو منزلة الشاعر فى قبيلته ، حتى صار كأنه حكيم من الحكماء . ودأبت كل قبيلة على الاحتفال بكل شاعر ينبغ فيها احتفالا عظيما ، وفاخرت به سائر القبائل . والواقع أن العرب جعلوا الشعراء

ركنا من ثلاثة الأركان التي تقوم عليها قوة القبيلة ، وهي المهارة في الفروسية والنجاح في السكنة العديدة والنبوغ في الشعر . ولا عجب أن يبلغ الشعر هذه المرتبة الرئيسية بين العرب ، فإن قصيدة واحدة كفلت اجماع أفراد القبيلة والخروج للغزو أو الحرب والنار .

ولم تقتصر مكانة الشاعر من الشعراء على إثارة الحماسة ، إذ لمع الواحد منهم ببعض الأحيان في قبيلته مبلغ الحكيم المرشد والواعظ المنشد لجوامع الكلام في المناسبات الهامة في تاريخ القبيلة .

وعرف الشاعر باعتباره مؤرخ القبيلة ما لها من الحقوق في المراعى بما لا يدع لأعدائها نهب تلك الحقوق . وتجلت هذه الصفات التي اجتمعت في الشاعر في العصر الجاهلي في المناجات القبلية .

وخشى الناس لسان الشعراء ، وسعوا إلى النودد إليهم لأنهم المعبرون عن رأى العام .

الأحوال الدينية :

ووجدت الأحوال الفكرية عند العرب في العصر الجاهلي متنفسا عظيما أيضا في المسائل الدينية ، وجاء تفكير العربي الدينى صورة صادقة لما اختصت به بيئتهم من خصائص ، كما أدى اختلاف هذه البيئة إلى اختلاف العقائد الدينية . وتفصيل ذلك أن انقسام العرب إلى بدو وحضر وإلى شمال وجنوب ، جعل المستقرين المتحضرين من العرب يعبدون إله الشمس لها من أثر في الزراعة ومواعيدها والمحاصيل وكمياتها . ولذا شيد عرب الجرب معابد الشمس في بلادهم ، وقاموا بطقوس العبادة وتقديم القرابين لها . واشترك بالانبطاع وعرب تدمر في عبادة الشمس ، لأنهم عرفوا الإستقرار ، واشتغلوا بـالزراعة : مثل عرب الجنوب ، وقامت الهياكل الشمسية في بطرا وتدمر .

أما العرب البدوي فقد سوا القمر ، لأنه يساعد على استغلال المراعى ، أما الشمس فتؤذى تلك المراعى . بأشعتها الحارقة . ولذا قاموا له بشعائر دينية وجعلوا له وثنا من الأوثان اسمه ود . وكلما أوغل البدوي الصحراء تعددت معتقداتهم الدينية ، فقدس بعضهم الأشجار وينابيع الماء والسكوف والحجارة ، لأن خيالهم البدائي صور لهم وجود أرواح فى تلك الأشياء ، ولا بد من تقديسها أستجلابا لما فيها من منفعة ظاهرة أو مستترة وإتقاء لشرها كذلك . واعتقد البدوي أن الصحراء مسكونة بكائنات حية خفية هى الأبالسة والشياطين ، ورأى أن الشياطين تختلف عن الآلهة من ناحية علاقتها بالإنسان ، فالآلهة عموما صديقة له ، أما الشياطين فهى من أعدائه لأنها تمثل الصحراء بمخاوفها ووحوشها الضارية ، أما الآلهة فتتمثل المناطق التى ألفها وكثر تردده عليها .

وهكذا تعددت معبودات الحضر والبدو من العرب فى الجاهلية ، فكان منها الصنم والوثن والنصب . أما الصنم فكان عادة فى صورة إنسان مصنوع من معدن أو خشب . والوثن ما كان على شكل إنسان من حجر ، والنصب هو الحجر ليس على صورة معينة . واشتهر من آلهة العرب التى ذكرها القرآن الكريم بَنَاتُ اللَّهِ ، التى عبدها أهل الحضر فى الحجاز ، وهى اللات والعزى ومناة . وكان معبد اللات قرب الطائف ، وقدم فيه أهل مكة القرابين . أما العزى وهى مؤنث الأعز فكانت تعبد فى وادى نخلة الواقع شرق مكة ، وتألّف معبدها من ثلاث شجرات ، وصنم عظيم القداسة عند قريش . أما مناة ، ولقبتها مشتق من النية أو العكس ، فكانت إلهة القضاء والقدر ، واشتمل معبدها على صخرة سوداء فى بلد قديد على الطريق بين مكة ويثرب .

واتخذ العرب آلهة أخرى غير « بنات الله » ، ومن هذه « نَسَر » وهم مصنوعة من حجر في صورة نسر ، و « يَعُوقُ » في صورة فرس ، و « يَغُوثُ » في صورة أسد .

واختلفت الكعبة اختلافا تاما عن جميع هذه الأصنام والأوثان والنصب ، لأن قداستها مستمدة من تحديدها للبيت العتيق الذى وضع قواعده سيدنا إبراهيم وابنه اسماعيل . وظلت الكعبة موضع قداسة خاصة منذ صار البيت العتيق مركز الحياة في مكة ، كما ظلت سداتها في أيدي سلالة اسماعيل حتى خلفهم فيها بنو جرهم ، ثم بنو خزاعة ثم قريش . ولما كان البدو يأتون من كل فج عميق إلى مكة في الأشهر الحرم للتجارة فإنهم قدسوا الكعبة ومارسوا الشعائر الدينية المتعلقة بها من الطواف والتبرك . وأخيراً صار الحج أعظم الأعمال الدينية عند العرب القدماء . ولم يلبث البيت العتيق أن صار مقر أوثان القبائل حول الكعبة ، إذ وضعت كل قبيلة منها المعبود بين الأصنام الخاصة بالقبائل العربية الأخرى . واشتهر من تلك الأصنام هبل ، وهو اسم آراعى معناه الروح ، وكان في صورة إنسان ، وعند قدميه كانت توضع الأزلام ، وهى القداح أو السهام المنقوشة بمختلف النصائح والنواهى التى استشارها أهل الجاهلية قبل قيامهم بأى مشروع من المشروعات التجارية أو الحربية .

الْحَنَفَاءُ :

ولم تعجب هذه البيانات الوثنية نفرا من العرب ، عرفوا باسم الحنفاء ،

وهم أصحاب الإيمان بالله العلى العظيم ونبتذ عبادة الأصنام والأوثان قبيل
ظهور الإسلام .

ولم يحد أولئك الحنفاء فى المسيحية واليهودية اللتين وصلتا إلى بلاد العرب
وقت ذاك ما يروى ظمأهم

الفصل الثانى

النزاع بين الفرس والروم

وأثره فى الوطن العربى

أولا : أسباب النزاع بين الفرس والروم

ترجع الحروب العلوية بين دولة الروم (البيزنطية) فى أوروبا والبلقان والدولة الفارسية الساسانية فى إيران والعراق إلى التنافس التاريخى القديم بين الشرق والغرب، كما يرجع إلى اختلاف أشكال الحكم فى كل من الدولتين . ولا حاجة للرجوع إلى الوراء كثيرا للبرهان على ذلك من حوادث التاريخ القديم المشهورة بين الفرس واليونان ، وتكفى الإشارة هنا إلى ما كان من نزاع دائم حول السيطرة على منابع دجلة والفرات فى أرمينيا وشمال العراق وشمال الشام وأطراف آسيا الصغرى . والناظر إلى الخريطة يدرك أن ميدان التنافس هذا يدخل فيه جزء من الشرق الأوسط والأطراف الشمالية للهلال الخصيب ، حيث أستقرت بعض الدول العربية الشمالية .

القبائل العربية على أطراف الهلال الخصيب :

يرى الباحث فى الخريطة التاريخية لآسيا فى القرن السادس الميلادى ، أى أواخر العصر الجاهلى أن الجزء الشمالى من بلاد العرب كان أشبه شىء بأسفين . شبه صحراوى متسع بين دولة الفرس وإمبراطورية الروم . وسمى العرب هذا

الجزء الشمالى من بلادهم باسم بادية الشام ، التى اقترن تاريخها بالأطماع السياسية الدائمة من جانبي الفرس والروم ، لأهمية هذه البادية لسكل منهما فى مشاريعهما للسيطرة على بلاد العرب كلها من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب (اليمين) .

ومن ناحية الشكبل الهندسى تبدو هذه البادية مثلنا قاعدته خط عرض ٦٠ شمالاً ورأسه عند حلب وأطراف آسيا الصغرى ، حيث تلتقى أراضي الشام الخصبة بمروج الدراق . ويطل الضلع الأيسر لهذا المثلث على الغرب حيث يحده شبه جزيرة سيناء والبحر الميت وادى الأردن وفلسطين والشام وجبال لبنان ، أما الضلع الأيمن فيطل على الفرات ودجلة مبتدئاً بمدينة البصرة ، ومنتهياً عند حلب ، وهى رأس المثلث . وقد تكون هذه البادية صحراء جرداء قاحلة بل هى شبه صحراوية كما تقدم ، فخللتها وديان وطرق ومسالك تجارية كان لها شأن عظيم فى الاتصال التجارى بين الشرق والغرب منذ العصور القديمة ، وفى العصور الإسلامية نفسها . ويرى علماء الدراسات السامية أن بلاد العرب ضاقت فى العصور القديمة بسكانها عدة مرات ، وأن مواردها الزراعية التى كانت أحسن ماهى عايناه فى العصر الحاضر لم تتحمل أولئك السكان ، ولذا اضطرت الأعداد الزائدة منهم إلى الهجرة إلى الأراضي الشمالية ، فوجدت فى بادية الشام مقبلاً ، ولم تشعر بفارق كبير يحماها على عدم الاستقرار فى أراضيها الجديدة ولم تتعثر بمحاجر جبلية أو مائى يجعلها تعتقد أنها انفصلت عن موطنها الأصلي تمام الانفصال . ولم تلبث هذه القبائل العربية المهاجرة أن وجدت فرصة واثية للاغارة على أطراف الهلال الخصيب والأخذ من خيراته بنصيب

وإذ تقدمت الإشارة إلى الدول العربية التي نشأت عن بعض الهجرات العربية الأولى مثل دولة الأنباط في بطرا ودولة الملكة الزباء في تدمر ، فالمجال هنا لدول عربية أخرى متأخرة زمنيا ، وهي دولة الفساسنة في منطقة حوران بالجزء الجنوبي من الشام ، ودولة التنوخيين غربى الفرات

الفرس والروم في الهلال الخصيب :

وصادف هجرة الفساسنة وتنوخ شمالا تغييرات سياسية هامة ساعدت على تأسيس هاتين الدولتين في القرون الميلادية الأولى . ففي القرن الثالث انتقل العرش في فارس إلى البيت الساساني ، ولم يلبث الأكاسرة الجدد أن عمدوا إلى القيام بنهضة شاملة في النواحي الاقتصادية والثقافية والحربية . وترتب على تلك النهضة أن تطلع الأكاسرة إلى السيطرة على منطقة الهلال الخصيب كلها ، لأنها وسيلة الوصول إلى الموانئ التجارية المطلة على البحر المتوسط ، ولن تتم السيطرة التجارية لفارس بدون إخضاع هذه المنطقة كلها لحكمها .

غير أن أطماع الفرس اصطدمت في تلك المنطقة بأطماع الأمبراطورية الرومانية . وانتقل الأباطرة منذ سنة ٣٣٠ م إلى القسطنطينية ليسكونوا على مقربة من الخطر الفارسي وغيره من الأخطار التي هددت الرومان في الشرق . ثم اشتد اهتمام الأباطرة على وجه الخصوص بمنطقة الهلال الخصيب منذ القرن الخامس الميلادي . إذ فقدوا دولتهم وعاصمتهم روما نفسها في أوروبا ، ولم يبق لهم إلا دولتهم الشرقية وممتلكاتهم بالشرق ، وصار يطلق عليهم اسم الدولة البيزنطية أو دولة الروم ، وعاصمتهم القسطنطينية .

واتخذت الحروب بين الفرس والروم من أجل السيطرة على الهلال الخصيب

طابَعَ الحروب المتقطعة الطويلة المدى دون أن تسفر إحدى هذه الحروب عن نتيجة حاسمة فإذا قام الفرس بحملات كبيرة على بلاد الشام مثلا ، لم يلبث الروم أن أخرجهم منها . وكذلك إذا توغل الروم في شمال العراق وأرمينية نهض الفرس لردهم على أعتابهم وهكذا . وأخيراً رأى كل من الفرس والروم أن هذا النوع من الحروب تتطلب الاستعانة بالقبائل العربية المستقرة في أطراف الهلال الخصيب ، وإدخالها في حظيرة الولاء للأكسرة أو للأباطرة .

الْقَنُوخِيُّونَ مِنْ بَنِي لُحْمٍ (الْأَخْمِيُّونَ) وَالْفُرْسُ :

وتقرب الفرس إلى القبائل العربية الضاربة في غربي نهر الفرات ، واشتهر من ذلك القبائل إذ ذاك قبيلة تنوخ التي سبق أن هاجرت من بلاد اليمن بعد انهيار سد مأرب . وعاش القنوخيون بادية الأمر في خيام ، ثم تطور معسكرهم المؤقت غرباً إلى غربي الفرات إلى نجيم دائم عرف باسم الحيرة ، وهي كلمة مشتقة من اللفظ السرياني « حرتا » ، ومعناه المعسكر . وصارت الحيرة عاصمة دولة ضمت القبائل العربية القريبة منها ، بفضل مؤسسها عمرو بن عدى بن نصر بن ربيعة بن لُحْم . ومن ثم أطلق على تلك الدولة أحيانا إسمُ إمارة الحيرة نسبة إلى العاصمة نفسها ، أو إسمُ إمارة الأخمينيين نسبة إلى مؤسسها . ونجح الفرس في إدخال تلك الدولة في التبعية لهم . واتخذوا منها قاعدة تمهيدية للزحف على الشام البيزنطي ، أي التابع للروم ، إذ كان الأخميون خبراءاً بالمسالك عبر الصحراء الواقعة بينهم وبين الشام .

وأمن الأمراء الأخميون في خدمة مصالح الفرس ومن أمثلة ذلك ما قام به

النعمان الأول (٤٠٠ - ٤١٨ م) ، إذ بنى على مقربة من الخيرة قصر الخورنق الشهير لينزل فيه بهرام جور بن كسرى يزجرد الأول ، وكذلك قصر الأخيضر ، وهو على مقربة من كربلاء بالعراق .

وتلا النعمان سلسلة من الأمراء اشتهر منهم المنذر الثالث ، الذى قضى معظم حياته فى الإغارة على ممتلكات الروم ، تلبية المطالب الفرس . واشتهر المنذر الثالث بلقب « ابن ماء السماء » نسبة إلى اسم أمه ، وحظى بمكانة عالية فى البلاط الفارسى ، فخطبه كسرى يزجرد دائماً بلقب « ملك العرب » تفخياً له وإشارة إلى سيطرته الاسمية على قبائل المنطقة الشرقية من بلاد العرب بما فى ذلك الخليج العربى ونجد نفسها . غير أن كسرى يزجرد حرص على أن يكون لقب « مهشت » أى أعظم الأنبياء ، هو اللقب الرسمى للمنذر الثالث ، الذى ضحى بكل مرتخص وغال فى الحروب الفارسية ضد الروم ، وتحمل فى سبيل ذلك خسائر فادحة . ففرق من جيشه دات مرة عدد كبير من الجنود أثناء عبورهم نهر القرات إلى الشام . وصار خلفاء المنذر الثالث على نهج سياسته فى خدمة الفرس .

السياسة والروم :

وقام الروم بسياسة مماثلة نحو القبائل العربية الضاربة فى جنوب الشام ، واشهرها قبيلة الفساسنة التى نجح الروم فى جعلها حليفاً لهم فى القرن الخامس الميلادى ، واستفادوا منها فى أغراض شبيهة بما نهض بها الاخميون لصالح الفرس . ولذا اضطلع الفساسنة بحماية ممتلكات الروم بالشام من إغارات البدو ، فضلاً عن إغارات الاخمينيين ، حلفاء الفرس .

و بلغ الفساسة أوج مجدهم على عهد أميرهم الحارث ، الملقب بالأعرج (٥٢٩ - ٥٦٩ م) ، وامتد نفوذ هذا الأمير على كثير من القبائل العربية في شمال بلاد العرب ، وغدت له السكك العظيمة بين تلك القبائل حتى جبال لبنان شمالاً والشاطئ الفينيقي غرباً وفلسطين ووادي الأردن جنوباً . وأشارت القصائد التي أنشدتها بعض الشعراء في مدح الفساسة أن نفوذهم وصل إلى قبيلة عوف بن مرة في شمال الحجاز . وأعجب الامبراطور جستنيان بشجاعة الحارث الأعرج وتفانيه في خدمة الروم ، وأغدق عليه لقب « فيلارخ » ؛ وهو من أرق الألقاب العسكرية في القسطنطينية ، كما جعله سيداً على قبائل عرب الشام كلهم ، رداً على تنصيب الفرس للمنذر الثالث ملكاً على قبائل العرب في منطقته .

يَوْمُ حَلِيمَةَ :

شهد كل من الحارث الأعرج والمنذر الثالث أشد أدوار النزاع بين الفرس والروم . واشتركت جيوش الفساسة واللاخميون في عدد من المعارك الحربية أثناء هذا النزاع ، وغدت إحدى هذه المعارك يوماً من « أيام العرب » ، دليلاً على عمق الهوة التي تردى فيها العرب بالشمال جميعاً في ذلك العصر الجاهلي ، لأنها كانت معركة بين الفساسة واللاخميون . وكان منشؤها ذلك النزاع الذي لم يكن للعرب فيه مصلحة حقيقية . وعرفت هذه المعركة باسم «يوم حامية» .

والواقع أن يوم حليمه كان انتقاماً لاغارة قام بها اللاخميون ضد الفساسة ، وأخذهم ولداً للحارث الأعرج أسيراً ، حيث قدمه المنذر الثالث قرباناً للآلهة سنة ٥٤٤ م . وبعد عشر سنوات من تلك الحادثة عبأ كل من الفريقين قواتهما

للاشتراك المعتاد في الحرب بين الفرس والروم . فوجد الفساسنة في ذلك فرصة للانتقام والتأر لابن الحارث الأعرج ، حيث التقى اللخميون بقيادة المنذر الثالث بجيش الفساسنة بقيادة الحارث . وانتهت المعركة بهزيمة اللخمين ووقوع المنذر الثالث قتيلا في الميدان . وفي أثناء تلك المعركة وقعت حليلة ابنة الحارث الأعرج ، تمسح بالمعلور رؤوس الأبطال قبل المعركة للتأر لأخيها ، مما جعل تلك المعركة تنسب إليها .

زوال دولتي الفساسنة واللخمين :

ولم يلبث إمارتا اللخمين والفساسنة أن أنهارتا بسبب سياستهما الخرقاء في معاداة بعضهما بعضاً ، بسبب خدمة حرب لائقة لهم فيها ولا جمل . إذ سقط كثير من أبطالهما قتلى ، وأخذ الضعف يدب في كيانهما . ثم أن الفرس والروم لم يخلصا كل الاخلاص للعرب ، ورأوا فيهم مادة لخدمة أغراضهم فحسب . وبدأ الفرس يقلبون ظهر المجن للدولة اللخمين عقب وفاة المنذر الثالث . إذ ساد البيت الحاشي صراع حول العرش ، انتهى بأن أقصى الفرس سلالة اللخمين عن العرش ، ونصبوا على الحيرة حاكماً فارسياً دلالة على زوال استقلال تلك الدولة العربية . وتفرق شمل القبائل العربية على أطراف الهلال الخصيب الغربي ، حتى ظهر الإسلام وأعادهم إلى أمتهم العربية الناهضة .

ونظر الروم إلى الفساسنة أيضاً نظرة ردية ، على الرغم من الجهود والخدمات التي قدمها لهم الحارث الأعرج . ذلك أن الفساسنة دانوا بالمذهب المونوفيريني ، القائل بأن للسيد المسيح طبيعة واحدة . واختلف هذا المذهب عن مذهب الروم المعروف باسم « المللكاني » ، والقائل بأن المسيح طبيعتين :

إلهية وبشرية . فاعتبر الروم لاختلاف الفساسة معهم في المذهب سبيلا لإفصالهم عن جسد الامبراطورية . وبدأ أباطرة الروم ، بعد وفاة الحارث الأعرج يُلقون القبض على أمراء الفساسة ، وينفونهم خارج الشام . وبذلك انفرط عقد القبائل العربية على طرف الهلال الخصيب الشرقى ، كما حدث لأقربهم في الغرب . ولم ينقذهم من تلك الفوضى الضاربة سوى ظهور الاسلام ، وقيام حركة الفتوح الإسلامية ، التي نجم عنها ميلاد الأمة العربية الجديدة .

ثانيا : أثر هذا النزاع في الوطن العربي

الصراع بين اليهودية والمسيحية في اليمين :

وجد النزاع بين الفرس والروم في أحداث بلاد اليمين في القرن السادس الميلادي ثغرة إنتقال منها إلى بلاد العرب . ذلك أن صراعا نشب في اليمين بين أتباع اليهودية فيها والمسيحية ، وأتاح لكل من الفرس والروم التدخل في تلك المشكلة الداخلية تحت ستار مساعدة أتباع كل دين . واشتدت خطورة اليهودية لأنها سبقت المسيحية في الوصول إلى بلاد اليمين ، وتدعيم أقدامها هناك . وترجع أصول تلك الديانة في بلاد العرب إلى الهجرات التي قام بها اليهود من بلاد الدولة الرومانية فراراً من بطش أباطرتها بهم ، فوجد اليهود من صحراء بلاد العرب ملجأ يحميهم من اضطهادات الرومان ، وظالوا يتوغلون في أرجائها حتى بلغوا اليمين . واعتنق أحد ملوك حمير في القرن السادس الميلادي ، وهو ذو نواس اليهودية ، وتعصب لها ضد المسيحية وأتباعها .

وكانت المسيحية قد دخلت بلاد العرب أيضاً منذ أنتشارها في فلسطين . ولكن زاد اتباعها نتيجة السفارات التي بعث بها اباطرة الروم إلى شتى أرجاء الجزيرة العربية ، وخصوصاً إلى بلاد اليمين في عهد أسرة حمير . ففي سنة ٣٥٦ م وصلت سفارة من عند الروم إلى بلاد اليمين ونجحت في تأسيس كنيسة في عدن وأخريتين في مملكة حمير ، ثم اعتنقت نجران المسيحية كذلك سنة ٥٠٠ م ، على يد قسيس من الشام اسمه فيمون ، أسرته قافلة عربية ، وعادت به إلى نجران ، ليقفه أهلها في الدين المسيحي .

وغدا الصراع بين اليهود والمسيحية متوقعا في القرن السادس الميلادي نتيجة اختلاطه بالأغراض التجارية . إذ وجد ذونواس اليهودى أن التجار المسيحيين من الروم وعملاتهم الأحباش يسيطرون على تجارة البحر الأحمر ، مما أصاب بلاد اليمن بالفقر الاقتصادى .

بدأت حوادث سلب ونهب ضد أولئك التجار المسيحيين عند مرورهم باليمن . ثم بسط ذونواس إضطهاده نحو رعاياه من المسيحيين لأنه تشكك فى ميولهم نحو التجار من الروم والأحباش لاشرأ بهم . فى الدين . فنظر هذا المالك اليهودى إلى المسيحيين من أهل بلاده على أنهم رمز للتدخل الأجنبى فى اليمن ، ومصدر فقرها وشقاءها .

واستعمل ذونواس الصراع الدينى حين أنذر المسيحيين من رعاياه من أهل نجران بترك دينهم واعتناق اليهودية . وحين رفضوا الأنداز خذلهم أخذوا النار ، وألقى بهم فيه ، وقضى عليهم حرقاً فى أكتوبر سنة ٥٢٣ م .

تدخل الروم لمساعدة المسيحيين :

غير أن أحد المسيحيين أفلت من تلك المذبحة الرهيبة التى أعدها ذونواس للإخوانه فى الدين ، وذهب إلى القسطنطينية ليطلب النجدة والمساعدة من امبراطور الروم . وانتهر الإمبراطور جستنيان تلك الفرصة ، وعمد إلى الاستفادة منها لبسط سلطانه على بلاد اليمن ، وتدعيم مركز بلاده التجارى فى البحر الأحمر . وبعث هذا الإمبراطور إلى نجاشى الحبشة ، باعتباره وكيلا لدولة الروم فى رعاية مصالحها بالبحر الأحمر ، وبصفته راعى المسيحيين القريبين منه ، بأعداد

حملة الانتقام من يهود اليمن . وجرى النجاشي حملة عبرت البحر الأحمر تحت قيادة أرياط ، ونزلت بلاد اليمن . واستطاع أحد قادة الأحباش وإسمه أبرهة أن يخلف أرياط في قيادة الحملة ، وينتصر على اليهود . وفردوفواس تاركا اليمن لسيادة الحبشة سنة ٥٢٥م . وأرسل نجاشي الحبشة إلى إمبراطور الروم جستنيان يزف إليه نبأ هذا الفوز ، وإمتداد نفوذ إمبراطوريته بالتالى إلى بلاد اليمن .

حملة أبرهة على مكة :

وصاحب انهيار دولة حير تدهور أحوال اليمن الاقتصادية ، وتصدع سد مأرب مرة أخرى . وعهد أبرهة إلى تحسين أحوال البلاد بترميم السد ، ولكن دون أن يحقق أهدافه . ذلك أن انهيار السد كان أولا وقبل كل شيء ظاهرة للفقر الاقتصادي الذى أصاب اليمن ، وليس هو سر رخائها وازدهارها . ولذا حاول أبرهة احياء المجد التجارى لبلاد اليمن بتحويل التجارة من الحجاز إليها مرة أخرى . فبنى فى عاصمته صنعاء كاتدرائية ضخمة ، زخرفها بالرخام المزعج الأبيض والأحمر والأخضر والأسود ، وطعم بابها بالذهب واللؤلؤ .

وتلك الكاتدرائية هى التى سَمَّاها العرب « القليس » اشتقاقا من الكلمة اليونانية « كَلِيزِيَا » أى كنيسة . واستهدف أبرهة من بناء الكنيسة تدعيم أركان المسيحية فى اليمن ، وخلق منافس للكهنة فى مكة ، التى صارت فى ذلك الوقت مركز الحج والحياة الاقتصادية فى بلاد العرب الشمالية . واعتقد أبرهة أنه بذلك يستطيع تحويل الحجاج من مكة إلى صنعاء ، ويسترد الموارد المالية العظيمة التى صارت تتدفق على خزائن مكة .

ويروى أن اثنين من عرب الحجاز انتهكا حرمة كاتدرائية صنعاء «القبليس»، بأن دنساها في إحدى الليالي التي أقيم فيها إحتفال بعيد من الأعياد . فاشتاط أبرهة غضباً ، وقاد حملة تأديبية كبرى ، وهى حملة أصحاب الفيل ، لمعاقة أهل مكة . غير أن أبرهة أخفى وراء تلك الحملة أغراضه الحقيقية ، وهى بسط سيادة الحبشة وبالتالي الروم على إقليم الحجاز ، باعتباره أهم شريان للتجارة بين الشرق والغرب . غير أن الحملة لم تاق نجاحاً بسبب تفشى المرض بين الجنود ، وهلاك أكثرهم قبل الوصول إلى مكة . وعاد أبرهة فاشلاً إلى اليمن عام ٥٧١ م . واشتهر هذا العام باسم « عام الفيل » ، والذي صار نقطة تحول فى تاريخ بلاد العرب كلها . إذ ارتد نفوذ الروم إلى بلاد اليمن ، وبقيت بلاد الحجاز أرضاً خالية من أية قوة سياسية كبيرة . وفى هذا العام ولد الرسول الكريم ، الذى بعثه الله لإفناذ الأمة العربية وبقاء القوة التى حملت رسالة الإسلام إلى العالم أجمع .

سيطرة الفرس على بلاد اليمن :

وعقب عودة أبرهة إلى بلاد اليمن بدأ تنضف ينتشر فى حكم الأحباش . فانتشرت فى البلاد الحركات القومية لطرد الأحباش منها . وقاد هذه المقاومة سيف بن ذى يزن ، سليل البيت المسمى الحيرى القديم . ولجأ هذا البطل إلى لك الحيرة ، الذى قدمه إلى كسرى الفرس ، أنوشروان فى عاصمته المدائن . ووجدت فارس فرصتها للدخول بلاد اليمن تحت ستار مساعدة هذه الحركة التحررية ، إذ تطاع الفرس إلى طرد الأحباش ، عملاء الروم من بلاد اليمن ، والسيطرة على تجارة البحر الأحمر .

وبعث كسرى مع سيف بن ذى يزن بحملة عددها ثمانمائة رجل، واستطاعت تلك الحملة بفضل مقاومة عرب الجنوب للأحباش استرداد حريتهم سنة ٥٧٥م. وتردد صدى هذا النصر فى سائر أنحاء بلاد العرب ، وجاءت الوفود من شتى الأرجاء لتهنئة سيف بن ذى يزن ، ومن بينها وفد من مكة ، على رأسه شيخ قريش إذ ذاك ، وهو عبد المطلب ، جد النبى الكريم . غير أن هذا التطور السياسى لم يأت بجديد على بلاد اليمن ، إذ تخلصت من حكم الأحباش ونفوذ الروم لتقع تحت براثن الاستعمار الفارسى . فأقام الفرس إلى جانب سيف بن ذى يزن حاكما من قبائلهم ، يجمع الجزية ، ويرقب أحوال البلاد . وظل الفرس يعمشون بحكامهم إلى بلاد اليمن خالفا عن سالف ، حتى كان آخرهم باذان ، الذى بعث إليه الرسول الكريم بكتابه ، يدعو فيه ، ومعه كسرى الفرس نفسه إلى الاسلام . ولم يقدر هذا العامل تلك الدعوة ، التى وضعت الأساس للثنين لوحدة الوطن العربى فى شبه جزيرة العرب ، وصارت نواة العالم العربى الكبير فى نفس الوقت .

أسئلة وتدرّيات على الباب الثانی

٦. — تتبع التطورات التي هيأت لإقليم الحجاز مركز الصدارة سياسياً ، واقتصادياً في بلاد العرب قبيل ظهور الإسلام ، ثم اشرح الدور الذي قامت به قبيلة قريش في تدعيم ذلك المركز الممتاز .

٧. — « كان التجارب قوياً بين بيئة بلاد العرب وأحوال أهلها الاجتماعية » ناقش هذه العبارة موضحاً ما تقول بالأمثلة التاريخية .

٨. — « أسواق العرب قبيل الإسلام مرآة انعكست عليها أحوالهم الاقتصادية والعقلية كذلك » . اشرح هذه العبارة ، موضحاً مكانة سوق عكاظ بين تلك الأسواق .

٩. — « الشاعر العربي هو مؤرخ القبيلة وأحد الأركان الثلاثة التي اعتمدت عليها في قوتها » ناقش هذه العبارة على ضوء أحوال العرب الفكرية قبيل الإسلام .

١٠. — اشرح موقف العرب من الصراع بين الفرس والروم قبيل الإسلام ، ثم أذكر النتائج التي ترتبت على ذلك الصراع في الوطن العربي نفسه .

الباب الثالث

العرب والاسلام

الفصل الأول

ظهور الإسلام

تمهيد :

- يقوم تاريخ العصور الوسطى على ثلاث ظواهر تاريخية . فالظاهرة الأولى (١) هي انتشار الديانة المسيحية من فلسطين إلى غيرها من بلاد الدولة الرومانية الوثنية ، وذلك منذ أواخر العصور القديمة أى قبيل العصور الوسطى .
- (ج) والظاهرة الثانية هجرة القبائل الشتيوتونية — أى الجرمانية — عن مواطنها إلى مختلف الأقاليم الرومانية ، واستقرارها بالأقاليم الغربية منها ، مع اعتناقها المسيحية تدريجاً منذ القرن الرابع الميلادى . أما الظاهرة الثالثة فهي (٢) قيام الدين الإسلامى فى شبه جزيرة العرب ، واعتناق العرب الإسلام ، والتوسع العربى الإسلامى الكبير منذ القرن السابع الميلادى .

وترتب على الظاهرتين الأولى والثانية معاً نشأة التقسيمات التى نبقت منها الدول الأوربية المسيحية المعروفة بغرب أوروبا حتى العصر الحاضر ، ومنها ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وبلجيكا وأسبانيا . كما ترتب على الظاهرة الثالثة أن اتخذ الشرق طابعه المميز له عن الغرب ، الذى لا يزال ملحوظاً حتى اليوم . ونعنى به طابع الإسلام . وبذلك أخذ يتسكون الغرب المسيحي والشرق الإسلامى .

الجماعة الإسلامية في مكة :

قامت الدعوة الإسلامية في الدور المكي من حياة الرسول دينية خالصة ، لا تستند إلى شيء سوى قوة الإفناغ والموعظة الحسنة . واستجاب لها من أول الأمر بعض أقرباء الرسول وأصدقائه الذين اعتقدوا صدق دعوته ونسبته ، ثم دخل فيها غير واحد من بطون قريش ، فتسكنت من ذلك جماعة أصبحت الدعوة الجديدة أساس تكوينها .

اتجاه الدعوة الإسلامية إلى خارج مكة :

غير أن الرسول رأى الغالبية العظمى من قومه تعارض دعوته وتتمسك بنظامها القديم ، مع مافيه من فساد وتخلف ، ورآها بعد ذلك تتحول من المعارضة إلى اضطهاد أصحابه الذين دخلوا دعوته ، ثم إلى اضطهاده هو آخر الأمر . فرأى أن يثبت الدعوة في خارج مكة وفي غير قريش ، فآمن نرسالته ودعوته نفر من حجاج الأوس والخزرج سكان يثرب (المدينة) ، وتمت بينه وبينهم بيعتا العقبة الأولى والثانية ، على أن يهاجر الرسول إلى يثرب وأن يتولوا هم وقومهم حمايته وحماية دعوته ممن يريدون أو يريدونها بأذى أو عدوان . وبهذه المباينة أخذت الجماعة الإسلامية تتجه اتجاهها جديداً .

الجماعة الإسلامية في الدور المدني :

فلما هاجر الرسول من مكة إلى المدينة وأصبح على رأس جماعة مختلطة من المهاجرين من قريش ومن الأنصار وهم مسلمو الأوس والخزرج ،

واليهود الذين سكنوا في المدينة معهم ، بادر الرسولُ تمثيلاً مع مقتضيات الأحوال الجديدة إلى تنظيم الشئون العامة لهذه الجماعة المختلطة . فأخاطب عليه السلام مسجداً يؤدي فيه المسلمون فريضة الصلاة ويدبرون فيه أمورهم العامة ، كما وضع دستوراً صممه مبادئ عامة يتبناها أهل المدينة جميعاً في أمور الحرب والسلم ، والديارات والقصل في الخصومات وشئون الميراث ، وتوفير الأمن العام للجماعة .

ويعتبر ذلك كله في الحقيقة تحولاً للجماعة التي بدأت دينية خالصة في الدور المسكن الأول إلى جماعة دينية سياسية في المدينة . كما تعتبر تأسيساً للدولة الإسلامية التي تمت نموها التاريخي المشهور .

وفي العام الثاني للهجرة شرع الرسول عليه الصلاة والسلام في الجهاد في سبيل نشر الدين الإسلامي ، أي الحرب دفاعاً عن الدعوة الإسلامية وأصحابها وتكفلت السور القرآنية السكرية بتنظيم شئون الحرب ، من حيث ابتدائها والسيور فيها واتهاؤها وتوزيع الغنائم ومعاملة الأسرى ، كما تضمن القرآن فيما بعد طريقة معاملة أهل الذمة من اليهود والنصارى ومن لم يسلم من العرب ، والنص على العقوبات التي توقع في أحوال الجرائم السكبرية ، وذكر الأحزاب المختلطة من مهاجرين وأنصار ومناققين ويهود ، وتنظيم المعاملات المدنية وأحوال الأسرى وذلك في كثير من الدقة والتفصيل .

قيام الخلافة الإسلامية :

فلما قضى عليه السلام دون أن ينص صراحة على النظام الذي يتبجح من بعده في رئاسة الدولة الإسلامية ، واجه أهل المدينة مشكلة بالغة الخطر ،

وهي من يَخْلُفُ النَّبِيَّ في رياسة الدولة الإسلامية ، رقبَل أن يَتِمَّ تَجْهِيزُ جَمَانِ النَّبِيِّ وَدَفْنُهُ — أَسْرَعَ الْأَنْصَارُ فَاجْتَمَعُوا فِي سَقِيقَةِ بَنِي سَاعِدَةَ يَرِيدُونَ أَنْ يَسْبِقُوا الْمُهَاجِرِينَ إِلَى الْبَيْتِ فِي الْأَمْرِ بِاخْتِيَارِ رَجُلٍ مِنْهُمْ ، وَرَشَحَتْ الْخُرْجُ لِلأَمْرِ بِالْفِعْلِ سَعْدَ بْنَ عُبَادَةَ ، وَبَلَغَ الْمُهَاجِرِينَ إِجْتِمَاعُ الْأَنْصَارِ بِالسَّقِيقَةِ فَخَافُوا إِفْتِرَاقَ السَّكَمَةِ وَوُقُوعَ الْفِتْنَةِ فَتَرَكَ بَعْضُهُمْ مِمَّا كَانُوا فِيهِ مِنْ تَجْهِيزِ جَمَانِ النَّبِيِّ ، وَأَسْرَعَ إِلَى مَكَانِ الْإِجْتِمَاعِ ثَلَاثَةُ مِنْ أَقْطَابِهِمْ ، هُمُ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ ، وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ ، وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجُرَّاحِ .

وَتَبَادَلُ قَادَةُ الْفَرِيقَيْنِ الْخُطْبَ وَالْعِبَارَاتِ الشَّدِيدَةَ ، فِي إِجْتِمَاعِ السَّقِيقَةِ ، لَسَكَنِ التَّنَافُسِ الْقَدِيمِ بَيْنَ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ عَادَ إِلَى الظُّهُورِ فِي ذَلِكَ الْظَّرْفِ الْعَصِيبِ فَأُضْعِفَ ذَلِكَ مِنْ جَانِبِ الْأَنْصَارِ . وَانْتَهَزَ الْفُرْصَةَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَجُلُ الْمَوْقِفِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ ، فَتَقَدَّمَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ فَبَايَعَهُ وَتَتَابَعَ الْمُهَاجِرُونَ مِنْ بَعْدِهِ يَبَايَعُونَهُ ، وَقَدِمَتْ قِبَائِلُ أَسْلَمَ وَغِفَارَ وَمُزَيْنَةَ النَّازِلَةِ بِالقُرْبِ مِنَ الْمَدِينَةِ فَبَايَعَتْ . ثُمَّ تَقَدَّمَتِ الْأَوْسُ فَبَايَعَتْ لِنَفْطَلِ بْنِ الْخَزْرَجِ مَا أَرَادَتْ ، وَأَخِيرًا بَايَعَتْ الْخَزْرَجُ كَذَلِكَ عَلَى كَرِهِ مِنْهَا ، ثُمَّ بَايَعَ النَّاسُ فِي الْيَوْمِ الثَّالِي أبا بَكْرٍ فِي الْمَسْجِدِ بَيْعَةً عَامَةً ، وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَمَّ تَجْهِيزُ جَمَانِ النَّبِيِّ وَدَفْنُهُ ، ثُمَّ اسْتَقَرَّ الرَّأْيُ عَلَى أَنَّ يَكُونَ لِقَبِ أَبِي بَكْرٍ خَلِيفَةُ رَسُولِ اللَّهِ ، وَهَكَذَا انْفَرَجَتِ الْأُزْمَةُ وَكَثُرَتِ الْبَيْعَةُ لِلدَّوْلَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ الْبَقَاءُ ، وَهَكَذَا قَامَ نِظَامُ الْخِلَافَةِ الَّتِي اسْتَمَرَّ مِنْ ذَلِكَ الْيَوْمِ التَّارِيخِيُّ إِلَى أَنْ أَلْفَاهُ الْأَتْرَاقُ الْعُثْمَانِيُّونَ سَنَةَ ١٩٢٤ م .

نمو الدولة الإسلامية

العوامل التي دفعت المسلمين إلى التوسع :

الرأى السائد إلى عهد قريب في تامل التوسع العربى الإسلامى الكبير هو القائلُ بـمحـرص المسلمين الأولين على نشر الإسلام بالقوة والسيف وحدهما ، وهو رأى قال به رجالُ الكنيسة المسيحية في العصور الوسطى وتبعه بعض كتاب التاريخ من المسلمين والمسيحيين المتأخرين ، ذير أن هذا الرأى لاسند له من الواقع أو من التاريخ ، والصحيح أن الفتوح العربية الإسلامية الكبرى إنما حدثت استجابةً لعوامل مختلفة الأهمية أولها وأهمها العامل الدينى .

أما العامل الدينى فأمره واضح ، وهو أن الرسول عليه السلام جاء بالدين الإسلامى لينشره بين الناس ، وأنه جعل من العرب كتلة واحدة ، واستطاعت هذه الكتلة العربية الإسلامية أن تحمل دعوة الدين إلى مختلف البلاد القريبة والبعيدة فى غير إكراه أو إرهاب مع تحييز أهل البلاد المفتوحة بين الإسلام أو الضريبة الشخصية المعروفة باسم الجزية .

ويأتى بعد ذلك عوامل أخرى أهتم لها المؤرخون الأجانب إهتماماً كبيراً ، ولكنها تتضاد كثيراً أمام العامل الدينى . ومن تلك العوامل الثانوية العامل الإقتصادى ، وخلاصته أن الأحوال الجوية فى بلاد العرب منذ الألف الرابع قبل الميلاد خضعت لعوامل الجفاف وتقصير الأمطار ، ترتب على ذلك أن أخذت القبائل العربية تهاجر من شبه الجزيرة على مراحل زمنية متباعدة إلى الأقطار العربية المجاورة ، أى إلى الشام والعراق . وليست هجرة

القبائل العربية في صدر الإسلام إلى هذه الأفطار وما وراءها إلا استمرار لتلك الهجرات العربية القديمة مع إضافة الروح الدينية الإسلامية ، وهى العامل الأول الهام في خروجهم لنشر الإسلام في العالم أجمع .

أما ما يسمى بالعامل السياسى فهو أن ضعف دولتى الفرس والروم مهد لإنتشار الإسلام في بلاد هاتين الدولتين . والحقيقة أن القوة الدائنية للعرب المسلمين والمصلحة الإسلامية الواضحة تعالبت من العرب أن يعملوا على حماية دينهم ودولتهم الجديدة وتأمينها من مؤامرات أعدائهم من الفرس والروم ، واخضاع بلاد أولئك الأعداء لهم وجو نشر الإسلام بين ربوعها ، واخراجها من الظلمات إلى النور .

سياسة حكومة المدينة :

لا شك أن أبا بكر الصديق ورجال حكومة المدينة كانوا ، إثر الفراغ من حروب الردّة ، وانفساج المجال أمامهم لغزو الشام والعراق ، حريصين على انتهاز الفرصة السانحة ، فدفعوا القبائل العربية نحو الجبهتين الشرقيّة والغربية في وقت واحد يحذوهم إلى ذلك أمران :

١ - عامل الرغبة في ان يشعّكوا العرب عن العودة إلى ردّة جديدة .

٢ - وعامل الرغبة في أن يشبعوا نزعة العرب للحرب ، وميلهم إلى كسب المنافع من طريق الغزو ، وذلك ينصرفون عما أراد الإسلام أن يصرفهم عنه ، وهو غزو بعضهم بعضاً ، ونهب بعضهم أموال بعض من طريق الغارات القديمة . ونجحت هذه السياسة أيما نجاح ، إذ استجابت القبائل العربية لداعى الغزو الخارجى عن رضا وطوعية .

مجل حال الأمة العربية :

ومما تقدم يتبين مبالغ الفرق بين حال الدولتين الفارسية والبيزنطية وحال الدولة الإسلامية والأمة العربية ، فالعرب في نهضة حقيقية واتحاد تام غسداة الفراغ من حروب الردة ، والوعى القومى تنبه فيهم إلى درجة بعيدة ، والإسلام أمدم بالقوة اللازمة للقيام بعبائهم الأمور وبالنظام الكفيل بالنجاح . فإذا عرفنا أن أساليب الحرب وأنواع السلاح كانت في ذلك الزمان في العالم كله واحدة تقريباً ، وأن العرب بانصالحهم بالفرس والبيزنطيين عن طريق الخيرة وإمارة الفساسة ، مرُّنوا على حروب هاتين الدولتين — إذا عرفنا كل ذلك انضح لنا مدى استعداد العرب الحربى وسر اقدامهم على محاربة الدولتين الكبيرتين في وقت واحد .

الفصل الثاني

موجز لتكوين الدولة الإسلامية حتى بلوغها أقصى اتساعها

التوسع العربي

حرب الردة وأثارها :

ظهرت في جزيرة العرب قبل وفاة النبي حركة مقاومة للإسلام لم تلبث أن اشتدت وعظمت بوفاته عليه السلام وبيعة أبي بكر بالخلافة . ولكن أبا بكر صمم على القضاء على هذه الحركة ، ورمى المرتدين في قلب شبه الجزيرة بخالد بن الوليد ، كما أنفذ قادة آخرين إلى أطراف الجزيرة لقمع الردة فيها . وقضى خالد على ردة بني أسد وتميم بحمينة بعد قتال عنيف ، وكذلك فعل القادة الآخرون . في سائر أنحاء شبه الجزيرة . ولم يكفد يخفى على وفاة الرسول هامٌ وبعضُ عوام حتى عادت شبه الجزيرة إلى الانتصام بحبل الدين الجديد والدولة الإسلامية الجديدة ، وذلك بفضل عزيمة أبي بكر وعبقريته خالد العسكرية .

وترتب على انتصارات خالد والقادة الآخرين في وقائع الردة أن أخذت أنظار القبائل العربية النازلة بأطراف العراق والدام تتجه نحو الدولة العربية الإسلامية الجديدة التي قامت في المدينة ، وأخذت تخصمها بإعجابها ، ولا سيما بعد أن انقطعت الصلة بينها — كما بينا من قبل — وبين الدولتين الفارسية

والبيزنطية ، بل لقد بلغ الأمر ببعض هذه القبائل أن طلبت إلى أبي بكر أن يعميها على غزو العراق والشام ، فكان هذا الطلب من القبائل المذكورة ، وقبول أبي بكر له عملاً بسياسته التي تقدمت الإشارة إليها ، استفادته العرب عامة لغزو العراق والشام ، واستجابة العرب له للأسباب التي سبقت — كان كل هذا عبارة عن الأساس التاريخي لشروع العرب في غزو أقاليم الدولتين الفارسية والبيزنطية والاستيلاء على هذه الأقاليم في سرعة خارقة .

اتساع الدولة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين :

بعث الخليفة أبو بكر يحموشه إلى أرض المسيلاب الجصيب (الشام والعراق) الذي تقاسمته إذ ذاك كل من دولتي الفرس والبيزنطيين فزحفت أربعة جيوش سنة ٦٣٣ م — ١١ هـ إلى إقليم الشام التابع للبيزنطيين ، على حين سار جيش آخر بقيادة خالد بن الوليد إلى أرض العراق من ممتلكات الفرس ، ولم ينته عام ٦٣٤ م — ١٢ هـ حتى سيطر خالد على شاطئ الفرات الغربي الذي قامت فيه إمارة الحيرة التابعة للفرس .

على أن الخليفة أبا بكر طلب إلى خالد بن الوليد الإنسحاب من الميدان العراقي إلى جبهة الشام لمعاونة الجيوش الإسلامية في حربها مع البيزنطيين ، وهناك قاد خالد جيوش المسلمين إلى النصر في وقعة أجنادين سنة ٦٣٤ م ، ودخل دمشق عاصمة إقليم الشام سنة ٦٣٥ م — ١٤ هـ ، ثم قضى على مقاومة البيزنطيين في وقعة اليرموك سنة ٦٣٦ م .

واستمرت عجلة الفتوح الإسلامية في انطلاقها زمن الخليفة الثاني عمر

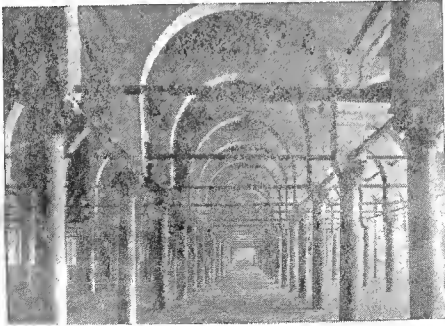
ابن الخطاب ، لذا إستأنف الفتوح في الميدان الفارسي ، فأرسل الأمداد بقيادة سعيد بن أبي وقاص إلى أطراف العراق ، وأحرز المسلمون نصراً باهراً على الفرس في وقعة القادسية سنة ٦٣٧ م — ١٧ هـ ، وأصبح الطريق مفتوحاً إلى المدائن عاصمة الدولة الساسانية ، فاحتلها المسلمون في سهولة بسبب فرار كسرى يزيد جرد ، واعتصامه بالجبال في الشرق . ثم أدت مطاردة المسلمين للملك الفارسي إلى الإلتقاء بقوات الفرس عند نهاوند سنة ٢١ هـ حيث نزلت يزيد جرد هزيمة لم تقم له بعدها قائمة ، مما جعل المسلمين يسمون هذا النصر « فتح الفتوح » .

وفي نفس الوقت كانت جيوش المسلمين تدعم أقدامها في أرجاء الشام ، فبلغت جبال طوروس شمالاً ، واحتلت مدن فاسعين جنوباً وطهرتها من القوات البيزنطية . وفي ٦٣٩ م سار عمرو بن العاص من فلسطين إلى مصر لفتحها حتى يؤمن الفتوح لإسلامية في الشام . واستطاع عمرو ببقواته القليلة العدد دخول مصر والاستيلاء على حصن بابليون سنة ٦٤١ م — ٢٠ هـ ، ثم آلت مصر كلها إلى المسلمين بعد انسحاب البيزنطيين منها بمقتضى معاهدة الإسكندرية التي عقدها مع عمرو بن العاص سنة ٦٤٢ م — ٢١ هـ .

ولهم الخليفة عثمان بن عفان بتأمين الفتوح التي تمت في عهد سلفه عمر بن الخطاب . وطلب ذلك توغل جيوش المسلمين شرقاً في باقي أقاليم فارس وشمالاً في أرض أرمينية التابعة للبيزنطيين وتسكوت للمسلمين في عهد عثمان أول قوة بحرية لصعد عدوان الأساطيل البيزنطية على سواحل مصر والشام . واستطاع الأسطول الإسلامي أن يحرز نصراً بحرياً على البيزنطيين في وقعته ذات الصواري

سنة ٣٤ هـ - ٦٥٥ م وجاء هذا النصر إيداناً بتفوق المسلمين البحري على
دول البحر الأبيض المتوسط الشرقي :

غير أن الفتوح الإسلامية وقفت بعد ذلك بسبب الفتنة التي أدت إلى مقتل



(شكل ٣٤) جامع عمرو بن العاص

عثمان بن عفان ، والحروب الأهلية بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي
سفيان في المدة بين سنة ٤١ هـ ، ٣٥ هـ .

التوسع الاسلامي زمن الأمويين :

ثم صارت الخلافة الاسلامية إلى معاوية بن أبي سفيان عام ٤١ هـ . وهو
معروف بعام الجماعة لأجتماع كافة زعماء المسلمين على مبايعته . وأخذ الخليفة في
استئناف الفتوح الاسلامية فهاجم القسطنطينية وغزت جيوشه أفريقية دون أن
تحصل على نتيجة إيجابية . ذلك لأن معاوية إضطر إلى العمل على تلافى

ما خلفته الفتنة الكبرى من آثار سيئة في الدولة الإسلامية، فلم يستطع أن يركز جهوده كلها نحو الفتوح التي بدؤها في آسيا وأفريقية. مثال ذلك أن معاوية لم يحسن اختيار قائد الحملة الموجهة نحو القسطنطينية، وكان ذلك سبباً من أسباب فشلها، وكان من أسباب فشل هذه الحملة كذلك أن النصار الإغريقية فككت بالأسطول العربي، وكان سرها خافياً على العرب في ذلك الوقت.

ثم توقفت حركة الفتوح مرة أخرى بعد وفاة معاوية بسبب عودة الفتن الداخلية التي ترتبت على أخذ معاوية البيعة بولاية العهد لأبنه يزيد، إذ اعتبر أهل الحجاز هذه البيعة خروجاً على السنة التي جرى عليها الخلفاء الأربعة من قبل، وأدى ذلك إلى ثورة الحجازيين بزعامة عبدالله بن الزبير بعد أن بايعوه بالخلافة. وبذلك أندلع لبيب الفتنة الثانية، ولا سيما بعد أن تورط يزيد في أمر الحسين بن علي ومقتله. ووقعت حروب دامية بين الأمويين وآل الزبير في الحجاز والشام والعراق وطال أمد هذه الحروب حتى عام ٧٣ هـ، حين تم النصر النهائي للخليفة الأموي عبد الملك من مروان على آل الزبير، ولذلك يُعرف العام المذكور بعام الجماعة الثاني.

واستقبلت الدولة الإسلامية بعد ذلك عهداً خالياً من الحروب الداخلية فقام الخليفة عبد الملك بن مروان بإصلاحات سلمية هامة، إذ نقل دواوين الدولة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، وضرب العملة الإسلامية. وإلى جانب هذه الإصلاحات أمكن الدولة في عهده وعهد خليفته الوليد بن عبد الملك أن تستأنف حركة الفتح والتوسع في الشرق والغرب حتى بلغت مساحة الدولة ضعف مساحتها، إذا اندفعت الجيوش الإسلامية من الأراضي الفارسية في شعبتين إتجهت إحداها إلى بلاد ماوراء النهر (جيجون) واستولت على بخارى

يوسمر قبد و فرغانة وكشغر و بلغت أطراف الصين . بينما اتجهت الشعبة الثانية إلى الهند واستولت على بلاد السند حتى مدينة أملتان . (خريطة رقم ١٧)



(خريطة رقم ١٧) أرض الترك (بلاد ما وراء النهر)

وفي الغرب تقدمت الجيوش الإسلامية من برقة إلى بلاد المغرب واستطاعت أن تطوى أرضها حتى المحيط الأطلسي . ثم عبرت الجيوش الإسلامية البحر إلى أوروبا ونزلت إسبانيا ، حيث قضت على دولة القوط الغربيين ووصلت جبال البرانس . وتطلع المسلمون إلى ما وراء هذه الجبال ، فزحف جيوشهم إلى جنوب فرنسا المعروفة في ذلك الوقت ببلاد غاليا . ولكن حركة الفتوح الإسلامية توقفت في هذه الجهة عند مدينة تور شمالي بواتييه ، حيث تمكن شارل مارتل وزير القصر للملك غالبا من صد الجيوش الإسلامية هناك . (خريطة رقم ١٨)

الفصل الثالث

أولاً : تحريض العرب للشعوب الخاضعة

لدولتي الروم والفرس

١ - ترحيب هذه الشعوب بالفتح العربى :

لمعرفة أسباب الترحيب الذى لقيه العرب من أهل البلاد التى فتحوها وحملوا إليها الدين الاسلامى يكفى للقارىء أن يعرف سببين إثنين ، وهما الاضطهاد الدينى فى تلك البلاد ، ثم التسامح العام الذى جاء به العرب المسلمون . وتفصيل ذلك أن الدولة البيزنطية صاحبة السيادة وقتذاك على مصر والشام وشمال أفريقيا حرمت على أهل البلاد أن يتبعوا مذاهبهم الدينية التى اختلفت مع مذهب الدولة الرسمى ، وجعلتهم موضع المقت والكرهية والظلم والحرمان من الحقوق المدنية والعسكرية والمالية . ومما خل على ذلك الاضطهاد أن الدولة البيزنطية كانت فى حاجة شديدة إلى المال بسبب حروبها الطويلة مع دولة الفرس الساسانية ، ولجأت إلى فرض الضرائب الثقيلة على مصر والشام وشمال أفريقيا وغيرهما من الولايات لسد تلك المطالب المالية ، ويقال مثل ذلك تماماً بالنسبة لدولة الفرس الساسانية فإن طول حروبها السالفة الذكر جعلتها تفرض أموالاً باهظة على أهل البلاد التابعة لها بالعراق والبلاد الفارسية نفسها .

فلما جاء العرب المسلمون ونادوا بالتسامح العام ، وأنفوا الاضطهاد الدينى المبعوث ، كما أنفوا كثيراً من الضرائب الباهظة ، رحب بهم أهل البلاد . ومن

ذلك أن أهل «شيزر» بالشام خرجوا لمقابلة خالد بن الوليد القائد العام للجيش العربية ، ومعه جماعات من الضاريين على الطبول والمغنين تعبيراً عن ابتهاجهم بمجيء العرب إليهم وإلى بلادهم . وعبر أهل حمص عن سرورهم بالعرب المسلمين في قولهم لهم « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم » .

ورحب أهل العراق بالعرب أيضاً ونظروا إليهم نظرة أبناء القري ، على حين نظروا إلى سادتهم الفرس على أنهم حكام غرباء عنهم وظالمين مستبدين . وكان مسيحيو العراق يلقون قبل الفتح العربي كل اضطهاد من الفرس الوثنيين مما فزع قلوبهم منهم ، ووجدوا في العرب المسلمين رسل السلام والتسامح الديني العام .

واشترك في هذه الظاهرة الترحيبية العامة أهل مصر ، وهالوا بانتصار العرب على الروم . ذلك أن الروم أنزلوا بأهل مصر قبل الفتح الاسلامي كثيراً من الاضطهاد الديني ، وحملوا بنيامين بطريق القبط على الحرب والاختفاء في جوف الصحراء ثلاثة عشر عاماً خوفاً على نفسه من بطش السلطات المستعمرة وظلمها ، وبعد أن تم لمعرو بن العاص فتح مصر بعث إلى بنيامين بكتاب أمان يدعوه إلى العودة إلى منصبه ، وجاء في ذلك الأمان ما يلي « أينما كان بطريق القبط بنيامين نعهده بالحماية ، وعهد الله فليأت البطريق إلى هاهنا في أمان واطمئنان ، ليلي أمر ديارته » وفرح الناس بعودة بنيامين وبالحرية التي تمت لهم . وألقى بنيامين في حضرة عمرو بن العاص خطبة رحب فيها بالعرب ، وشكر الله على عودته إلى أبناء كنيسته ، وقال بنيامين في ذلك الصدد ما خلاصته : « كنت في بلدى . وهو الاسكندرية ، فوجدت بها أماناً من الخوف واطمئناناً بعد البلاء » . وصفوة

القول أن أهل مصر خرجوا من عهد ظلم تطاول بهم زمن الروم إلى عهد من التسامح الديني أيام العرب المسلمين .

وشارك البربر سكان شمال أفريقيا أخوانهم أهل الوطن العربي قبل الإسلام مساوى الروم واضطهاداتهم ، وتمرضوا لأنفسى أنواع الظلم والتعذيب . فلما دخلت الجيوش العربية بلاد المغرب لم تأت أن وجدت من أهلها ترحيباً وقبولاً ورضى ، على نحو ما حدث للقائد عقبة بن نافع الفهري ، مؤسس مدينة القيروان . (فى تونس الحالية) . ومن الدليل على ذلك أن زعماء البربر قدّموا له كل مساعدة ضد ساداتهم القدامى . ونجح القادة العرب فى كسب البربر إلى جانبهم ، ونشر الإسلام بينهم .

وفضلاً عن ذلك فإن الروابط التاريخية القديمة بين سكان الوطن العربي الكبير لعبت دوراً كبيراً فى الترحيب بالعرب المسلمين ، والاندماج القومى العام معهم .

٢ - انتشار الإسلام

ثم لم يلبث أهل مصر والعراق وبلاد المغرب وغيرهم من أهل المدن والقرى أن دخلوا فى الدين الإسلامى أفواجا ، بسبب ما لمسوه من عدل العرب المسلمين ، وحسن إدارتهم ، ونتيجة ما عاد عليهم من فوائد روحية ومادية لا عناقهم الدين الجديد . أما العرب فقاموا من جانبهم بنشر الدعوة الإسلامية وفق الآيات الكريمة ، ومنها « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن ، لا إكراه فى الدين ، قد تبين الرشد من الغي » ويكاد

تاريخ العرب في مصر والشام والعراق وبلاد المغرب لا يعرف حالة واحدة أكره فيها شخص على اعتناق الإسلام .

ثم أن تلك الأقطار غلب على أهلها النصرانية واليهودية ، وهما ديانتان ساويتان اعترف بهما الإسلام ، لذلك اعتبر المسلمون النصارى واليهود «أهل ذمة» و«أهل كتاب» وأقروهم على ديانتهما ، على شريطة أداء الجزية التي تعفيهم من الخدمة العسكرية . فاعترف الإسلام بالنصرانية واليهودية على هذا النحو قرب مسافة الخلف بينهما وبينه ، وسهل الانتقال منهما إلى الإسلام .

ثم أن وضوح العقيدة الإسلامية وسرعة تقبل العقل لها هيأت عامة الناس في مصر والشام والعراق وبلاد المغرب ، لقبولها ، ولا سيما أن تعاليم ديانتهما المسيحية واليهودية صارت صعبة على الأفهام بسبب تأثيرها بالفلسفة الاغريقية وما تعرضت له من جدل .

وشجعت عدالة العرب وحسن إدارتهم ، وتمسكهم بالمساواة الاجتماعية بين المسلمين على اعتناق أهالي البلاد للدين الاسلامي . ذلك أن الطبقات العاملة التي عانت أيام سيطرة الروم والفرس الكثير من البؤس والانحطاط الاجتماعي وجدت في اعتناق الاسلام سبيلا للخلاص ، لأن الاسلام لا يفاضل بين أحد إلا بالتقوى . ثم أن العرب همأوا أمام أهالي البلاد كل أسباب تكافؤ الفرص للوصول الى أرقى مناصب الدولة والوقوف على قدم المساواة مع العرب المسلمين . إذا اعتنقوا الدين الجديد ، وسقطت الجزية عن كل من دخل في الاسلام ، لهم ما للعرب المسلمين ، وعليهم ما عليهم .

ثم صار أهل البلاد الجديدة يكونون العمود الفقري للجيش العربي ،
بعد أن اعتنقوا الاسلام ، وأسهموا إلى جانب العرب في نشر هذا الدين .
وخير مثال لتلك الظاهرة أهل بلاد المغرب ، إذا ألقوا جيشاً كبيراً وعلى رأسه
قادة من أبنائهم ، وأولهم طارق بن زياد ، الذي أسهم في فتح الأندلس ونشر
الاسلام في أرجائها . وبلغ من تمسكهم للدين الجديد أن صارت بلادهم أسعد
مصادر قوته وأطلق عليها المؤرخين اسم الجفاح الأيسر للاسلام .

ثانيا : ميلاد الأمة العربية

في الوطن العربي الكبير

عناصر الأمة العربية بعد الفتوح :

الظاهرة الأخرى الكبيرة التي صاحبت اتساع الدولة الإسلامية وهي ظاهرة انتشار اللغة العربية بين أهل الأقطار المفتوحة انتشارا عاما سريعا . وتعليل ذلك أولا أن العرب بفتحهم العراق والشام وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا اتصلوا بشعوب تتكلم لغات تمت إلى العربية بصلة النسب من قريب أو بعيد ، فمعظمها لغات سامية الأصل ، وهذا التقارب بين العربية وتلك اللغات مما سهل على أهل البلاد المفتوحة تعلم العربية والتكلم بها . ثم جاءت عوامل أخرى زادت من إقبال أهل تلك البلاد على تعلم العربية ، فانتشار الدين الإسلامي في الأقطار المفتوحة اقتضى مثلا أن يتعلم الموالي اللغة العربية وهم الدين اعتنقوا الإسلام من أبناء تلك الأقطار ، لأنها لغة القرآن الذي لا بد من الألفاظ ببعض نصوصه لاقامة الصلاة وفهم أصول الإسلام . ثم أن الدولة عربية لغتها الرسمية هي العربية ، فلا بد من تعلم العربية لمن أراد أن يتقلد عملا رسميا أو مناصبا حكوميا ولو كان من غير المسلمين .

وعلى ذلك أقبل شباب أهل البلاد من موالي وأهل البلاد من موالي وأهل
دومة على تعلم العربية لهذا الغرض ، وحذق أفراد من الموالي اللغة العربية أو آخر
القرن الأول إلى درجة أن عبد الملك بن مروان رأى أن ينقل الدواوين من

اللغات الأجنبية التي كانت تكتب بها منذ الفتح إلى اللغة العربية ، فتم في عهده نقل ديوان العراق من الفارسية إلى العربية ، وديوان الشام وفلسطين من الرومية (اليونانية) إلى العربية . وفي عهد ابنه الوليد تم نقل ديوان مصر من الرومية القبطية إلى العربية ، وأخذ الأقباط أنفسهم يتكلمون اللغة العربية . وازداد إقبال أهل البلاد العربية المفتوحة على تعلم العربية وبرعوا فيها إلى درجة أن أفراداً منهم أصبحوا يستعملون الكتابة بها نثراً ونظماً كالعرب سواء بسواء .

الفصل الرابع

العالم العربي منذ ضعف الخلافة العباسية حتى الغزو العثماني

أولاً : عوامل التفكك السياسي

الشُّعُوبِيَّة :

ساعدت عدة عوامل مختلفة على تفكك الدولة الإسلامية ، ومن هذه ما هو معروف باسم الشعوبية ، وهي كلمة تطلق على الروح الانفصالية التي سادت الشعوب القديمة المتحضرة ، ومحاولتها الخروج على العرب المسلمين ، أصحاب السلطان . والفرس أول الدعاة إلى هذه الحركة الشعوبية ، إذ حقدوا على العرب لسلطوتهم وسيطرتهم على بلادهم ذات الحضارة القديمة ، ووجدوا متنفساً لتحقيق مآربهم السياسية في الفتنة التي ظهرت عقب مقتل عثمان بن عفان ، بقيام الشيعة والخوارج ، فاحتضن الفرس دعوة الشيعة المنادية بحق بيت الرسول في الخلافة . وخرجت من بلادهم الثورة التي أطاحت بالدولة الأموية وكفلت للعباسيين عرش الخلافة الإسلامية .

وأدرك الخلفاء العباسيون الأولون أهداف الفرس فلم يسمحوا لهم بتحقيق مآربهم الانفصالية ، مع أنهم الذين ساعدوا الدعوة العباسية الأولى على الانتشار في بعض جهات من بلادهم ، لاسيما في خراسان ، وهي الجزء الشمالي الشرقي من فارس . بيد أن الفرس ظلوا ينافسون العرب ، وابتهزوا فرصة الشقاق بين بعض الخلفاء العباسيين لنشر دعوتهم ، واتضح نشاط الفرس وعلوا مركزهم على عهد

الخليفة المأمون العباسي ، إذ استعان بهم علنا في التخلص من أخيه الأمين وأنصاره من العرب (١٩٨ هـ - ٨١٣ م) ، وجعل منهم قادة للجيش ، وأشهر من أولئك القادة الفرس طاهر بن الحسين الذي عينه المأمون واليا على خراسان ثم لم يلبث هذا القائد أن أغفل الخلافة العباسية وأسقط اسم الخليفة من خطبة الجمعة ، وأسس هو وأخلافه الدولة الطاهرية (٢٠٢ - ٢٥٩ هـ - ٨٧٣ م التي غدت أول دولة فارسية في آسيا لها استقلال ذاتي عن الخلافة العباسية .

ضعف الخلافة في بغداد .

ثم أدى التنافس بين الفرس والغرب إلى اتجاه الخليفة المعتصم العباسي إلى التخلص من هذين الحزبين معاً ، والاعتماد على الأتراك في إدارة الدولة ، فاشتري الأتراك من بلاد ماوراء النهر ، ولقنهم التعاليم الإسلامية واللغة العربية ، واتخذ منهم حرسه الخاص ، بعد أن أقصى الفرس والعرب عن خدمته وجيشه ، وقد أرباب الكفاليات منهم مختلف المناصب في الدولة ، وظن الخليفة المعتصم أن الأتراك أقل خطراً على الخلافة من الفرس والعرب .

غير أن نفوذ الأتراك لم يلبث أن طغى على عهد المعتصم نفسه ، فلم يحترموا الخلافة وضائق بهم بغداد وأهلها فانتقل المعتصم بهم إلى سامرا وجعل منها عاصمة الخلافة ، واستخف الأتراك بالخلفاء بدوافه المعتصم ، فعزلوا الخليفة الذي لا يرضون عنه ، وقتلوا الخليفة الذي يعترض أفعالهم ، وغدا الأتراك اصحاب الكلمة العليا في سامرا وبغداد ، ومنحهم الخلفاء إدارة معظم الولايات الإسلامية وتركوا لهم الحرية في تصريف شئونهم وأدى ذلك إلى تفكك الدولة الإسلامية إذ فضل بعض السادة الأتراك البقاء في بغداد ، وأوفدوا نواباً عنهم في إدارة

هذه الولايات ، وصاروا بذلك ولاية مستغنيين عن ولايتهم ، وهو أسوأ أنواع الولاية . وتطلع أولئك النواب وأشباههم من الولاة إلى الاستقلال بهذه الولايات اضعف الرقابة عليهم . ولا يلبثوا أن جعلوا مناصبهم وراثية في أبنائهم فنشأت دويلات عديدة لا يربطها بالخلافة العباسية سوى تبعية إسمية ، وأخرى مستقلة عنها تمام الاستقلال أو تسكاد ، ومن أمثلة هذه الدويلات دولة الطولونيين ثم الأخشيديين بعدهم في مصر .

مشكلة ولاية العهد :

ثم أن الخلفاء العباسيين دأبوا على نظام تولية العهد لأكثر من واحد سواء من أبنائهم أو من أقرابهم من آل بيت الرسول . وادى ذلك إلى كثير من النزاع الداخلى والشقاق بين الأخوة . على نحو ما حدث بعد موت الخليفة الرشيد سنة ١٩٣ هـ — ٨٠٩ م . ذلك أن الرشيد عهد بالخلافة من بعده إلى أولاده الأيمن ثم المأمون ثم الموفق . وتنازع هؤلاء الثلاثة على الخلافة ، فلما تولى كما قسم البلاد الاسلامية بينهم كما سماه أرث منه إلى أبنائه ، فلما تولى الأيمن عهد إلى أقصاء اخيه المأمون عن ولاية العهد ، ونشب بينهما صراع قويت فيه شوكة الفرس أصحاب المأمون ، وضعفت سلطة العرب أصحاب الأيمن .

ثم انتشرت العداوة والبغضاء بين افراد البيت العباسى ، ولا سيما ولى العهد واخوته واقاربه ، فلم يكسد ولى العهد يصل إلى عرش الخلافة حتى يعمل على التكنيل بهؤلاء وارلائك . على ان ذلك لم يقطع دابر العداوة والبغضاء ، فضلا عن المنافسة ، بل أصبحت هذه المنافسة خطراً على كيان الدولة عندما استبد.

الأثر الك بالسلطة من دون الخلفاء ، إذ دخل الأثر الك في المدائن والمؤامرات بين أبناء الخلفاء . وذاعت . الفوضى عندما جعل الخليفة المتوكل العباسي (٢٣٢ — ٨٤٧ م) لأرلاده الثلاثة : المنتصر والمعتز والمؤيد ولاية العهد ، ثم قدم المتوكل ابنه الثاني وهو المعتز على المنتصر في ولاية العهد . واستغل الترك هذه الفرصة ، وشجعوا المنتصر وقتلوا أباه ، وتولى الخلافة بعده .

وأصبح بذلك مركز الخليفة ضعيفا ، لاهية له في العاصمة نفسها . وغدا الخليفة نفسه تحت رحمة قادة الجند من الترك الذين أصبحوا وزراء الدولة ، وليس له في الأمر شيء سوى اطاعة أولئك القادة الذين استبدوا بالحكم والإدارة معه وجعلوا مصالحهم الشخصية فوق وحدة الدولة .

صعوبة المواصلات :

ومما زاد في ضعف الخلافة ضخامة الدولة الإسلامية وتعدد أجزائها وصعوبة اتصال هذه الأجزاء بالحكومة المركزية . فاستطاع ولاية العباسيين ، ولا سيما ولاية البلاد الفائية عن بغداد ، أن يستقلوا بشئونهم دون خشية بطش سريع أو عقاب عاجل ، ومن الواضح أن صعوبة المواصلات وطول المسافات ساعد على تحقيق مطامعهم ، فلم تصل جيوش الخلافة في كثير من الأحيان إلا بعد فوات الأوان .

ثم أن الخلفاء العباسيين منحوا قادة الجيوش المتوجهة للقضاء على الفتن في الولايات البعيدة سلطات واسعة ، استغلها بعض أولئك القادة ، فعمل على الاستقلال بالولاية التي هو موفد إليها . ولذا غدا سلطان العباسيين ضعيفا في معظم

أطراف الدولة الإسلامية ، ولا سيما في شمال أفريقيا وارض الأندلس^١ ، وشهدت هذه الأطراف أول انفصال وتفكك في كيان الدولة الإسلامية منذ السنوات الأولى لقيام الخلافة العباسية . وتعرضت جهود الخلفاء العباسيين في إزالة ذلك بسبب صعوبة المواضعات . فلم يستطيعوا القضاء على بذور الانقسام السياسي الأول الذي نبت في ارض اسبانيا . ثم أصبح تفكك الدولة الإسلامية واضحا وسرت عدوى الانفصال والاستقلال من أرض إسبانيا إلى غيرها من ولايات الخلافة العباسية . (خريطة رقم ١٩)



(خريطة رقم ١٩) تفك الدولة الإسلامية في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري)

ثانياً : قيام الدولة المستقلة

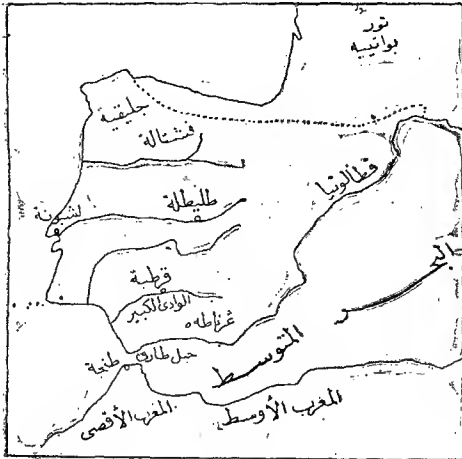
في الأندلس

الإمارة الأموية في إسبانيا :

رأى العباسيون منذ أول إعلان خلافتهم سنة ١٣٢ هـ — ٧٥٠ م أن استمرارهم في الخلافة يتطلب القضاء على أبناء البيت الأموي . غير أن أحد أفراد بني أمية ، واسمه عبد الرحمن بن معاوية — وهو حفيد هشام عاشر الخلفاء الأمويين — استطاع الهرب من المذبحة التي أقامها العباسيون لتنفيذ هذه السياسة . ودخل عبد الرحمن بن معاوية فلسطين ، ثم انتقل منها سريعا إلى شمال أفريقيا ، حيث لجأ إلى قبيلة أخواله من أهل تلك البلاد ، وأخذ ينتقل من مدينة إلى أخرى — من برقة إلى مراکش ، حتى دخل مدينة سبتة سنة ١٣٧ هـ — ٧٥٥ م ، فاستقر بها قليلا . وفي سبتة ، على الطرف الغربي للبحر الأبيض المتوسط ، أخذ عبد الرحمن الأموي يفكر في إحياء الدولة الأموية . وتطلع إلى الأندلس الإسلامية لتحقيق ذلك ، وهي البلاد التي فتحتها جيوش إسلامية زمن الأمويين منذ سنة ٧١١ م ، واستقرت بها بعد الفتح الإسلامي طوائف من أهل الشام وجند الولاين للبيت الأموي ، لذا أرسل عبد الرحمن أحد أتباعه ليجمع كلمة أنصار بني أمية من أولئك الجند . ورحب أنصار بني أمية الأندلسيون بدعوة عبد الرحمن الأموي ، ورأوا فيه شخصا جديرا بتولي زعامتهم بدلا من الحاكم العباسي البغيض إليهم .

وعبر عبد الرحمن البحر إلى شاطئ الأندلس ، ونزل بمكان اسمه المنكب ، وهناك انضم إليه أنصار بني أمية ، فاستولى على مدن البلاد الجنوبية دون مقاومة.

ثم استولى عبد الرحمن على قرطبة عاصمة ولاية الأندلس سنة ٨١٤١ - ٧٥٦ م ، بعد هزيمة الحاكم العباسي ، وأعلن نفسه أميراً ، كما أصدر عنوا عاما غداة دخوله قرطبة ليتمكن لنفسه في البلاد . وتم بذلك - بعد بضع سنوات فقط من اعتلاء العباسيين عرش الخلافة في بغداد - انفصال ولاية الأندلس رسمياً عن الخلافة العباسية (خريطة رقم ٢٠) .



(خريطة رقم ٢٠) إسبانيا في زمن الحكم الاسلامي

تأمين الإمارة المستقلة :

ظل عبد الرحمن الأموي يعمل دائماً مدة حكمه التي بلغت ثلاثة وثلاثين عاماً على تأمين مركزه في أجزاء دولته ، فأخذ الفتن التي نشبت بين بعض القبائل العربية في الأندلس ، وأعد البلاد لدفع محاولات العباسيين المنتظرة لإخراجه من

الأندلس . والواقع أن الخليفة أبا جعفر المنصور (١٣٦ هـ - ٧٤٥ م) عزم على إخراج عبد الرحمن الأموي والقضاء على دولته ، ولذا عين العلاء ابن مغيث والياً على الأندلس ، وأرسله سنة ١٤٦ هـ - ٧٦١ م إلى إسبانيا لينزع الحزب المناويء لعبد الرحمن . ولكن الأمير عبد الرحمن الأموي هزم هذا القائد العباسي وقتله ، ورضع رأسه في ملح وكافور ، ولفها في علم العباسيين الأسود اللون ، وأرفق معها كتاب التعيين العباسي . ثم أمر أحد التجار بإلقاء هذه في طريق الخليفة المنصور إلى الحج بمكة .

ولم يحاول المنصور العباسي أن يعين أحداً آخر على الأندلس ، أو يرسل جيشاً لحرب الأمير عبد الرحمن الأموي . بل فضل أن يستمليه ، واعترف له بلقب « صقر فريش » . واكتفت الخلافة العباسية ببقاء عبد الرحمن الأموي بعيداً عنها في إمارته ، إذ قال الخليفة المنصور « الحمد لله الذي جعل بيننا وبين ذلك العدو بحراً » .

مسد هجرات الفرنجة .

ولم تقتصر مشا كل عبد الرحمن الأموي على ما حاط بإمارته من خطر من ناحية الخلافة العباسية ، بل هددته دولة الفرنجة (فرنسا الحالية) ، فضلاً عن بقايا المقاومة الإسبانية التي انكسرت إلى حين في الشمال الغربي من شبه جزيرة أيبيريا . ولذا عمد الخليفة المنصور العباسي إلى عقد حلف مع بين (Pepen) ملك الفرنجة للهجوم على بلاد الأندلس ، وأرسل إليه سفراء وهدايا عديدة ، ولكن الحلف لم يدخل في دور التنفيذ العملي . على أن الأمير عبد الرحمن لم يفعل خطورة مما لكه الفرنجة على أية حال ، فاستعد لأي هجوم يأتي من جانبها .

وتحققت مخاوفه عندما بعث شارلمان ، ملك الفرنجة ، بجيش إلى إسبانيا سنة ٧٧٧م لمساعدة زعماء العرب المقاتلين لسلطان الأمويين . لكن الجيش الفرنجي اضطر إلى التقهقر بعد أن عجز عن فتح مدينة سرقسطة سنة ٧٧٨م وقفل عائداً إلى بلاده . وعند عبور جيش الفرنجة مضائق جبال البرنس هجمت على مؤخرته قبائل البشكنس المسيحية . سكان تلك الجبال ، وأنزلت بها خسائر فادحة ، وسقط قائد الفرنجة المدعو « رولاند » قتيلاً .

وخلد الفرنجة فيما بعد ذكرى هذه الهزيمة التي أنزلها المسيحيون بجيوش مسيحية في أغنية رولاند ، التي تعد من طلائع الأدب الفرنسي في العصور الوسطى . وشاعت هذه القصيدة أيام الحروب الصليبية بين أوروبا والشرق ، وحلأ مؤلفها أن يعزو هزيمة رولاند ومقتله إلى المسلمين ، وهي فرية عمد إليها مروجوها لاستثارة حماسة الأوروبيين ضد المسلمين .

على أن ارتداد الجيش الفرنجي عن إسبانيا أثبت للملك أوروبا منعة الإمارة الإسبانية المستقلة ، وقضى على أية محاولة للهجوم عليها مرة أخرى . أما العلاقات الودية بين الخلافة العباسية وملك الفرنجة فلم تنتج شيئاً سوى تبادل الهدايا ، إذ عمد الخليفة العباسي هارون الرشيد إلى تجديد الصلات التي بدأها جده أبو جعفر المنصور مع دولة الفرنجة ، فكتب إلى شارلمان بذلك . وظلت إمارة الأندلس مهيبمة مدة عبدالرحمن الأموي ، وبدأت دولته عند وفاته سنة ١٧٢هـ - ٧٨٨م وطيدة الأركان ، وعاشت بملاء قرنين وثلاثة أرباع قرن من الزمان .

وقد بلغت من الازدهار وذيوع الصيت أمداً بعيداً في القرن العاشر الميلادي ، وذلك إيماناً عهد عبدالرحمن الناصر والحكم المستنصر والأمنر العامرية .

على أن إسبانيا الإسلامية دخلت في القرن الحادى عشر الميلادى دوراً طويلاً من التفكك الداخلى بين أجزائها ، على أيدي ملوك مسالمين أطلق عليهم التاريخُ اسمَ ملوك الطوائف . ومازال هؤلاء الملوك يتناحرون فيما بينهم حتى قضى عليهم إسبان الشمال المسيحيون ، وزال سلطان المسلمين نهائياً من إسبانيا عندما استسلم أبو عبد الله ملكُ غرناطة سنة ١١٩٢ م .

الثا — قيام الدول المستقلة في مصر والشام

(١) الدولة الطولونية

٢٥٤ — ٢٩٢ هـ — ٨٦٨ — ٩٠٥ م

استقلال احمد بن طولون بمصر :

ساعد موقع مصر الجغرافي بعض ولأنها على الاستقلال بها في العصر العباسي الأول : وشجع أولئك الولاة على ذلك دائما طول المسافة بين العاصمة المصرية الفسطاط والعاصمة العباسية بغداد . وأول أولئك السرى بن الحكم الذي استطاع أن يجعل نفسه واليا مستقلا على مصر ، وأن يجعل ولايتها في أبنائه من بعده مع بقائها تابعة اسمياً للخلافة العباسية . وبدأ السرى بن الحكم حركته الاستقلالية هذه في مدينة نفيس بشرق الدلتا بعيدا عن الفسطاط حتى لا تنقوم جيوش الخلافة بالفسطاط بالقضاء على حركته .

ثم نهج احمد بن طولون على منوال السرى في الاستقلال بمصر . وهو تركي الأصل ، حيث كان والده مملوكا تركيا بعث به والى بلاد ماوراء النهر هدية إلى الخليفة المأمون العباسي . وزاد نفوذ الأتراك في بغداد في عهد المعتصم العباسي « خليفة المأمون » وأخذوا يتولون المناصب الكبرى في الولايات . وفي عهد الخليفة الواثق نال باكبك التركي ولاية مصر ، ولكن هذا الولى فضل البقاء في بغداد وبعث بأحمد بن طولون ليحكم مصر نيابة عنه .

ولم يكد أحمد بن طولون يستقر في مصر سنة ٢٥٤ هـ حتى أخذ في جمع

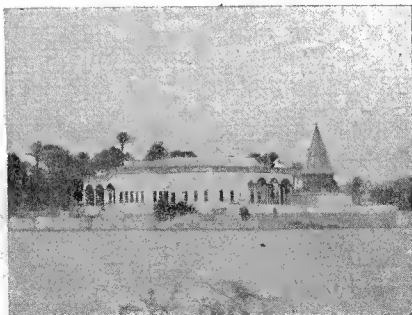
مقاتلة السلطة كلها في يده . فعزل الموظف العباسي المختص بالشئون المالية في مصر واسمه الرسمي عامل الخراج ، وصار هو الحاكم الإداري والمالي والعسكري . وتمكن أحمد بن طولون من إقرار الأمور في البلاد ، وقضى على الفتن التي شبت فيها وسادت الطمأنينة بين الناس ، وشمل الرخاء البلاد .

وفي عهد الخليفة المعتمد العباسي كشف أحمد بن طولون عن نواياه للاستقلال بمصر ، إذ حقد أخو الخليفة وهو أبو أحمد للوفيق طلحة على أحمد بن طولون حين بعث الأخير باعانة مالية للخلافة مساعدة منه في القضاء على ثورة الرتج الشهيرة بمجنوب العراق . فاتهم أخو الخليفة أحمد ابن طولون بالتقصير في إرسال المال الكافي ، وبعث إليه خطا باملئنا بالتهديد والوعيد ، غير أن أحمد بن طولون رد على أخى الخليفة ردًا قاسيًا وأعلن استقلاله بالبلاد .

وبذلك تأسست في مصر الدولة الطولونية نسبة إلى أحمد بن طولون . وكان من أول الأعمال الضرورية للدولة الجديدة تكوين جيش قوى لحماية مصالح البلاد داخليا وخارجيا ، وبلغ عدد هذا الجيش مائة ألف جندي . واتخذ أحمد بن طولون عاصمة له خارج القسطنطينية وسماها « القطائع » وموضعها مجموعة الاراضى والشوارع والحدائق الواقعة بين السيدة زينب والقاهرة .

وانتخذت كل طائفة من الجند قطعة سميت باسمها ، وشيد أحمد بن طولون مسجداً مازالت آثاره قائمة إلى اليوم في آخر شارع الصايبية الحالي ، وجعل أحمد بن طولون من هذا المسجد معهداً لتدريس العلوم الدينية . ولأحمد بن طولون آثار باقية في تاريخ مصر ومنها إصلاح مقياس النيل في جزيرة الروضة والبيمارستان وهو المستشفى الذي أنفق على بنائه ستمائة ألف دينار ، للعناية

بالمريض والسهو على علاجهم . (ش ٣٥ ، ٣٦)



(شك ٣٥) جزيرة الروضة

احمد بن طولون والشام .

واضطرت الخلافة العباسية أن تخطب ودَّ أحمد بن طولون بسبب ما وصل اليه من قوة ، كما رأت أن تتخذ منه حليفا مؤيدا لما ضد الروم البيزنطيين الذين دأبوا على الأغارة من آسيا الصغرى على شمال الشام . وكان شمال الشام يعرف وقتذاك باسم إقليم العواصم والنفور لاشتماله على المنافذ والحصون القائمة في جبال طوروس ، لذلك لم يكن عجباً أن يعهد الخليفة إلى أحمد بن طولون بولاية النفور الشامية للدفاع عنها ، فبعث بجزء من جيشه وأسطوله للمرابطة في مدنها وحمايتها . ثم لم تلبث الحوادث أن أيدت سلطان أحمد بن طولون في بلاد الشام حين توفي واليها التركي سنة ٢٦٤ هـ ، فضم أحمد بن طولون بلاد الشام إليه استكمالاً لوسائل الدفاع عن إقليم النفور وحمايته . وصارت مصر والشام على عهد الدولة الطولونية وحدة لها قوتها في الشرق العربي ، وتؤدي رسالتها في

الدفاع عن أرض الاسلام ضد الروم ، فى وقت عجزت فيه الخلافة العباسية عن القيام بأى عمل إيجابى فى ذلك الميدان .

وبلغ من قوة الوحدة العربية بين مصر والشام أن خشى أباطرة الروم سلطان احمد بن طولون وراسلوه لعقد هدنة معه . ثم حدث أن عزم الخليفة العباسى نفسه وهو المعتمد على مفادرة بغداد سراً ، فراراً من سيطرة أخيه الموفق طاحه ، وقرر الالتجاء الى احمد بن طولون صاحب القوة الجديدة فى مصر والشام . وكادت محاولة الخليفة تنجح لولا اكتشاف أمره بأطراف الشام ، فأعيد الى عاصمته بالعراق . وعلى الرغم من ذلك ظلت وحدة مصر والشام قائمة ، وأخذت القوات البحرية والبرية الطولونية تحمى هذه الوحدة وتعلى من شأنها فى شرق البحر المتوسط .

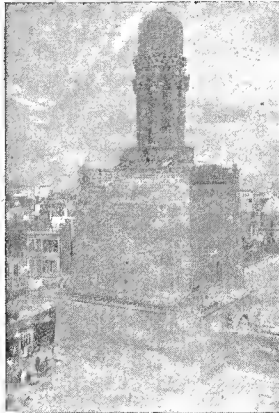
خاروية وميلاته بالخلافة العباسية :

وبعد وفاة احمد بن طولون آلت الدولة الطولونية الى ابنه خاروية ، وتابع الحاكم الجديد سياسة والده فى الدفاع عن مصر والشام وحمايتها من قديم دسائس الموفق طاحه ، أخى الخليفة . فأعد خارويه جيشاً تولى قيادته بنفسه ، وهزم قوات أخى الخليفة عند دمشق ، وعقد صلحاً اعترفت فيه بالخلافة العباسية بولاية خارويه على مصر والشام ولابنائه من بعده . ودعم هذا النصر سيطرة خارويه فى منطقة العواصم والثغور ، وصار قوة يرهبها الروم البيزنطيين .

وازدادت علاقة خاروية بالخلافة العباسية قوة حين تولى المعتمد العرش فى بغداد إذ تزوج هذا الخليفة من العباسية ابنة خاروية المشهورة باسم قطر الندى ولايزال اسم هذه الأميرة اسماً لبلدة قرب الصالحية الحالية ، كما لايزال اسمها يافياً فى الأغاني الشعبية بالقاهرة حتى الوقت الحاضر .

واتبع خساروية سياسة والده في الاهتمام بمرافق الدولة ، وتخصيص الأموال
للفقراء والمحتاجين ، كما اشتهر بالقصور الفخمة التي شيدها في عاصمته القطائع .
زوال الدولة الطولونية :

غير أن خلفاء خمارويه لم يستطيعوا السير على نهج سياسة وانتمسوا في لهوهم
مما أثار عايبهم الناس والجيش ، وبدأ عمالهم في الأقاليم يحنحون إلى الانفصال
عن السلطة الطولونية في القطائع . فولى مصر بعد خمارويه ثلاثة من آل طولون
لم يزد حكمهم على عشرة سنين ، ولم تستفد البلاد منها شيئاً غير انتشار الفوضى
واشتداد التنافس بين الطامعين في السلطان . وانتهى الأمر بأن أعدت الخلافة
العباسية جيوشها لاسترداد مصر من رابع الولاة الطولونيين عليها وهو شيبان ،
الذي بلغت الفوضى والاضطرابات في أيامه درجة خطيرة . وفي سنة ٢٩٢ هـ ٩٠٥ م
دخلت الجيوش العباسية القطائع وأزالَت الدولة الطولونية التي حكمت مصر
والشام مدة ثمانية وثلاثين عاماً .



(٣٩٦) الصحن والبقعة والخزانة بالمسجد بن طولون

ب - الدولة الأخشيديّة

٣٢٣ - ٥٣٤٨ / ٩٣٥ - ٩٨٩ م

قيام الدولة الأخشيديّة :

ظل النفوذ العبّاسيّ غير منبهر في مصر بعد زوال الدولة الطولونيّة مما شجّع الولاة العبّاسيين على الاستقلال مرة أخرى بشئون البلاد . وتطلع أحد قادة الأتراك في الجيش العبّاسيّ في مصر وهو محمد بن طفّح الأخشيدي إلى الانفراد بالسلطة دون القادة المتنازعين والولاة العبّاسيين الضعاف . وساعده على ذلك ما قدمه من خدمات في الدفاع عن البلاد ضد هجمات الدولة الفاطميّة التي قامت إذ ذاك في تونس ببلاد المغرب . وفي سنة ٣٢٣ هـ / ٩٣٥ م تولى محمد الأخشيدي ولاية مصر ، وصار الحاكم المطلق في البلاد .

ورغب الخليفة الراضى العبّاسيّ في اكتساب محمد بن طفّح إلى جانبه ، فمنحه لقب الأخشيدي ، وهو لقب إيراني تلقب به الأمراء . على أن ذلك الحدث جاء دلالة على ما بلغه الأخشيدي من سلطان واسع في مصر ، وصار مؤسس دولة في أسرته اننسبت إلى اللقب الذي منحه أياه الخليفة ، وعرفت باسم الدولة الأخشيديّة . وظلت العلاقات طيبة بين الخلافة العبّاسيّة والأخشيدي حتى صار القائد العبّاسيّ محمد بن رائق إلى الشام بأمر من الخلافة لانتزاع مصر من الأخشيدي . وهندئذ ألغى الأخشيدي اسم الخليفة العبّاسيّ من خطبة الجمعة ، وأعلن استقلاله بمصر . واستطاع الأخشيدي هزيمة القائد أبي رائق والاحتفاظ بمملكته سليماً . ونجح الأخشيدي بعد ذلك في القضاء على الفتن والقتال الداخليّة وصار قادراً على دراسة

أحوال العالم العربي المجاور لمصر، وعمل على خلق وحدة بين أرجائه تحفظ له سلامته من العدوان الخارجي المتصل من جانب دولة الروم .

مصر والشام والحجاز :

وبعد سنتين من قيام الدولة الأخشيديّة ضم الأخشيدي إليه الشام ليعيد القوة إلى الشرق العربي ، وليستطيع الوقوف في وجه الروم البيزنطيين . وخشى أباطرة الروم قوة الدولة الجديدة وراسلوا الأخشيدي كما راسلوا ابن طولون من قبل كسباً للسلام والمودة . واحتفظت المراجع بصور من المكاتبات التي دارت بين الفريقين ، يتضح منها هيبة الشرق العربي في ظل وحدة مصر والشام زمن الأخشيدي .

وفي العام التالي لهذه الوحدة مدّ الأخشيدي نفوذه إلى مكة والمدينة ليكون له الإشراف على الحرمين الشريفين بهما .

كافور الأخشيدي :

وبعد وفاة الأخشيدي تولى وزيره أبو المسك كافور الوصاية على ولديه الصغيرين ، وأثبت هذا الوصي مقدرة وهمة عالية في إدارة شئون البلاد والدفاع عنها ضد الأخطار التي تهددتها من ناحية جيوش الطائفة المعروفة باسم القرامطة ، ونجح في القضاء عليها ، وحافظ على وحدة مصر والشام وبلاد العرب . وامتد سلطان الدولة الأخشيديّة إلى جبال طوروس ، وصارت قوية الجانب ، ورهبها دولة الروم البيزنطيين .

وأبو المسك كافور هذا هو الذى أشاد به الشاعر المتنبى فى فصائده المشهورة سواء فى المدح أو الهجاء . وشجع كافور بدوره الشعراء والعلماء ، ونبغ فى عهده كثير من المؤرخين منهم الحداد وتلميذه الكندى والحسن بن زولاق . وبلغت إمارة كافور على مصر ثلاثاً وعشرين سنة ، حكم فيها باسم أبناء الأخشيذ ، عدا سنتين أنفرد فبهما بالأمر والحكم . وظل اسمه هذه المدة موضع الهيبة والاحترام ، ويدعى له من منابر المساجد من طرسوس بأطراف الشام إلى مصر والحجاز .

ولما توفى كافور خلفه أبو الفوارس أحمد حفيد الأخشيذ ، وكان طفلاً لم يبلغ الحادية عشرة من عمره ، ولذا عادت القوضى إلى البلاد ، واشتدت المنافسات بين الطامعين فى الدولة . وزاد تلك الحالة سوءاً اشتداد هجمات الفاطميين من بلاد المغرب على مصر ، حيث تطالع الخليفة الفاطمى المعز لدين الله للاستيلاء عليها . وعجزت الخلافة العباسية عن مد يد المساعدة للأخشيذيين ، وانتهى الأمر باستيلاء الفاطميين على مصر سنة ٣٥٨ هـ وحلوا بها محل الدولة الأخشيذية .

ج — قيام الدولة الفاطمية

وبينا تلك الحوادث تجرى ، قامت في شمال أفريقيا حركة شيعية تنسب إلى فاطمة بنت النبي ، حتى صارت هذه الحركة تنسب إلى اسمها . وأسفر ذلك عن قيام الدولة الفاطمية بالمغرب سنة ٢٩٧ هـ — ٩٠٩ م .

٨٥٣

وتفصيل ذلك أن الدعوة الشيعية غدت منذ قيام الدولة العباسية سرية ، بسبب إمعان معظم الخلفاء العباسيين في اضطهاد أشيعائها . واتخذ بعض دعاة الشيعة مقرأ لهم في اليمن لقربها من الحجاز ، ملتحق الحجاج المسلمين . وفي أحد مواسم الحج تعرف أحد أولئك الدعاة واسمُه أبو عبد الله الشيعي بجماعة من الحجاج من قبيلة كتامة من سكان شمال أفريقيا ، ونجح في استماتهم إلى العقيدة الشيعية ، وصحبهم بعد انتهاء موسم الحج إلى بلادهم .

وتولى حكم أفريقية (تونس) وقتذاك من قبل العباسيين أفراد أسرة الأغالبة (١٨٤ — ٢٩٦ هـ / ٨٠٠ — ٩٠٩ م) ، التي لم تدجح في تأليف القلوب حولها ، وآذت الخلافة العباسية بمحاولة الاستقلال عن بغداد . فوجد أبو عبد الله الشيعي ميدانا لتأليف قلوب الناس بشمال أفريقية لدعوته . ومازال يعمل سرا حتى أضحت قوة عسكرية بفضل ما اجتمع حوله من السكارهين للأغالبة من مختلف القبائل العربية والبربرية . واستطاع أبو عبد الله أخيراً أن يقضى على الأغالبة نهائياً سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م ، وأن ينادى بأحد سلالة علي بن أبي طالب ، ويدعى سميد بن الحسين إماما ، ولقبه عبيد الله المهدي .

واتخذ عبيد الله المهدي عاصمته له في وقادة ، وهي ضاحية من ضواحي

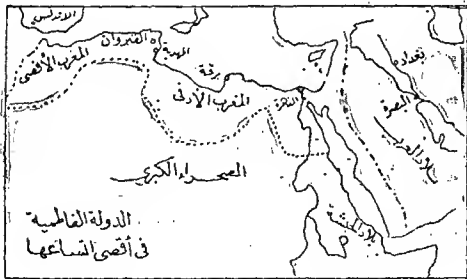
القيروان . ثم قويت شوكته وكثرت أتباعه ، فانتمت سنة ٩٣٠ م عن وقادة إلى مدينة بناها لنفسه وسماها المهديّة نسبة إليه ، وهى على ساحل تونس ، على مسافة ستة عشر ميلا من الجنوب الشرقى لمدينة القيروان الحالية . وبدأ عبيد الله المهديّ يعمل من عاصمته الجديدة على إمتداد سلطانه نحو مختلف البلاد المجاورة غربا ، مثل الجزائر ومراكش ، وشرقا نحو برقة وليبيا ومصر . وأعلن نفسه خليفة ، فصار بالعالم الإسلامى ثلاث خلافت ، وهى العباسية ببغداد ، والأموية بقرطبة ، والفاطمية بمدينة المهديّة .

وسار أبناء عبيد الله المهديّ على نهج سياسته التوسعية ، حتى استطاع أحدهم وهو المعز لدين الله فتح مصر ، وكانت مصر تعاني وقتذاك ضنكا وجدا بأواخر حكم الأخشيدين . فأرسل المعز لدين الله قائده جوهر الصقلى ، وتم له الإستيلاء على مصر سنة ٣٥٨ هـ — ٩٦٩ م بفضل ضعف الأخشيدين الذين رحب بعضهم بالفاطميين ، وذلك فضلا عن ضخامة الجيوش الفاطمية وحسن استعدادها : وأسس جوهر الصقلى مدينة القاهرة تلك السنة قبل قدوم الخليفة المعز لدين الله إليها سنة ٣٦٢ هـ — ٩٧٢ م ، وغدت القاهرة بذلك عاصمة للدولة الفاطمية وأجزائها الممتدة من مراكش إلى آخر الأطراف المصرية (خريطة رقم ٢١) .

الخلافة الشيعية :

وأدى استقرار الخليفة الفاطمى بالقاهرة الى اشتداد المنافسة بين الفاطميين والعباسيين . فأخذ المعز لدين الله الفاطمى وخلفاؤه يعملون على إمتداد دراتهم شرقا حتى اشتملت على الشام . ثم استقر نفوذ الفاطميين هناك على عهد العزيز بالله

(٣٦٥ هـ - ٩٧٥ م) . اذ ورث الفاطميون ممتلكات الأخشيديين في الحجاز والشام ، وغدا اسم الخليفة الفاطمي يذكر في خطب الجمعة من جميع المساجد من المحيط الأطلسي الى البحر الأحمر واليمن ومكة ودمشق .



(خريطة رقم ٢١) الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها

وضعف شأن الخلافة العباسية ضعفاً شديداً في ذلك الوقت ، حتى أن اسم الخليفة الفاطمي ذكر في بعض مساجد العراق نفسها . إذ اغتصب الهسايري أحد قادة الأتراك في بغداد جميع مظاهر السلطة من الخلافة العباسي ، وذكر اسم الخليفة المنتصر الفاطمي (٤٢٧ هـ - ١٠٣٥ م) في مساجد العاصمة العباسية مدة أربعين جمعة متتالية ، نكايه في العباسيين . وحذت مساجد البصرة حذو مساجد بغداد . فأعلنت اسم الخليفة الفاطمي من منابرهما . وترتب على ذلك كله ضعف الخلافة العباسية وحيرة خلفائها بين قادتهم العسكريين من الترك ، حتى أن الخليفة القائم العباسي كاد يفزل عن خلافته للفاطمييين . وبذا وصلت

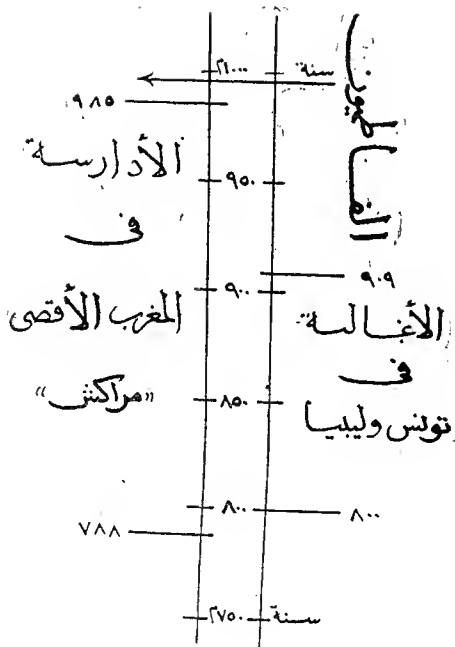
الخلافة الفاطمية إلى مركز الصدارة في العالم الإسلامي ، وغدت الدولة الوحيدة صاحبة النفوذ والسلطان في شرق البحر الأبيض المتوسط ، وبلغ أسطولها مبلغاً كبيراً من السيطرة والتفوق على أسطول الامبراطورية البيزنطية في العديد والضخامة وحسن الاستعداد . وتحدى الفاطميون خلافة الأمويين بالأندلس ، وحاولوا بسط نفوذهم على القسم الغربي من البحر الأبيض المتوسط .

لنهيار الدولة الفاطمية :

غير أن الدولة الفاطمية على عظمتها واتساع مساحتها وعنايتها بالترفيه عن الشعوب الخاضعة لها ، لم تستطع أن تجتذب إليها أهل السنة ، بل ابتعد عنها علماء السنة وفقهاؤها ، حتى إذا جاء الخليفة الحاكم بأمر الله سنة ٣٨٦ هـ - ٩٩٦ م ، وادعى الألوهية لنفسه أخذت الدولة الفاطمية تفقد هيبتها في قلوب الناس .

وأساء الحاكم بأمر الله إلى نفسه وإلى دولة آباءه وأبنائه بعده باصراره على الدعاية لمذهبه ، واضطهاد الطوائف التي أصرت على مخالفته ، بل امتد اضطهاده إلى الأقباط واليهود . ويدل على ذلك اغتياله ليلاً في صحراء المقطم على يد رجل سني ، بإيجاد من سيدة الملك أخت الحاكم . (شكل ٣٧)

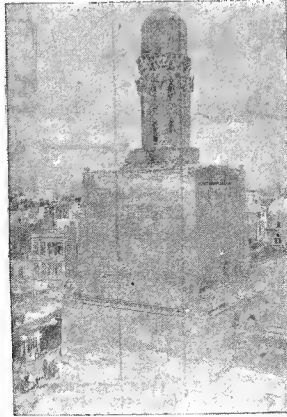
ومع هذا استطاعت الخلافة الفاطمية أن تعيش مدة طويلة بعد الحاكم بأمر الله ، إذ عمدت إلى استجلاب مختلف الأجناس من السودان والبربر والترك والأرمن لتقوية جيوشها ، فبيأت بذلك أسباب كراهيتها ولاسيما في مصر .



خريطة زمنية
للحركات الانفصالية في المغرب

(خريطة زمنية شكل ٣)

ومع أن الرحالة الفارسي ناصر خسرو شهد أثناء زيارته لمصر سنة ١٠٤٥ م
بما في القاهرة من بهاء ونظام وثروة على عهد الخليفة المنتصر ، فإن الأحوال لم
تلبث أن تغيرت لتنافس أجناس الجيش وثوراتهم ، وإهمالهم أمر الأمن اللازم



(شكل ٣٧)

لنمو النشاط الإقتصادي والثقافي للدولة الفاطمية . ثم طرأ على الدولة الفاطمية
غلاء في عهد الخليفة المنتصر هذا ، وظل هذا الغلاء سبع سنوات أعقبها طاعون
حتى سمي المعاصرون هذا الغلاء باسم (الشدة العظمى) ومع حدوث غلاء في
عهود سائلة لأيام الشدة العظمى ، فانه يبدو أن ما حدث أيام الغلاء على عهد
المنتصر أزال ما بقى من هيبة الدولة الفاطمية .

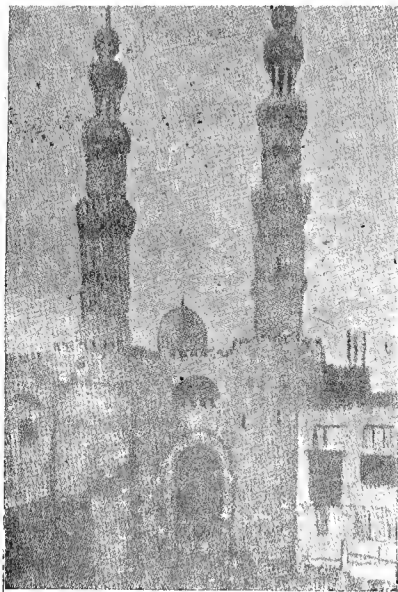
ولم ينقذ الدولة سلسلة الوزراء القادوبن المعروفين باسم الوزراء العظام ،

وهم يبدأون من بدر الجبالى على عهد الخليفة المنتصر ، ويتجهون بشاور على عهد الخليفة المعاضد . ذلك أن خطراً خارجياً أخذ يستولى على انتباه أولئك الوزراء من ناحية الدولة السلجوقية ومملكة بيت المقدس الصليبية ، إذ أزال السلاجقة سلطان الفاطميين من معظم الأناضول وأنتم الصليبيون القضاء نهائياً على نفوذ الفاطميين في تلك البلاد ، وذهب كذلك سلطان الفاطميين عن شمال أفريقيا ، لاستقلال ولائهم هناك ، ولم يبق للدولة الفاطمية سوى مصر ..

وازداد الموقف سوءاً في الدولة الفاطمية حتى أخذت مملكة بيت المقدس الصليبية تطعم في مصر نفسها ، مع بقاء الخطر السلجوقي ماثلاً كذلك في صورة جديدة قولها الدولة الزنكية ، التي تفرعت عن الدولة السلجوقية بقيام الأتابك عماد الدين زنكى في الموصل وحلب .

واستولى نور الدين بن عماد الدين زنكى على دمشق سنة ١١٥٤ م ، وعهد إلى سياسة منع الصليبيين من إمدادهم إلى مصر ثم تطورت هذه السياسة إلى تنافس بين مملكة بيت المقدس الصليبية و نور الدين بن زنكى عندما اضطرب الموقف الداخلى في مصر . ذلك أن الوزير الفاطمى ضرغاما سمح للصليبيين بالتدخل في شئون الدولة الفاطمية ، بل رضى أن يدفع لهم مبالغاً سنوياً من المال ضماناً لمساعدتهم له على منافسة في منصب الوزارة وهو شاور وإلى الوجه ، القبلى وأن يعد الوعود الكثيرة نظير هذه المساعدة .

ولم يستطع شاور إلا أن يطلب بدوره المساعدة من نور الدين ، وسرعان ما أصبحت مصر ميداناً لحملات وحروب بين جيوش الصليبيين والجيوش النورية . أما الصليبيون فقاد جيشهم الملك آورى الأول ، على حين قاد الجيوش النورية شيركوه الأيوبي والشاب يوسف ، وهو الذى عرفته الحوادث باسم صلاح الدين ، وهو ابن نجم الدين أيوب أخى شيركوه .



(شكل ٣٨) باب زويلة

وتم النصر لجيوش نور الدين بقيادة شيركوه بعد مقتل ضرغام ، وطلب شيركوه من الوزير شاور أن يفي بما قدمه من وعود مقابل مساعدته على غريمة . لكن شاور نكث بوعوده ، وراوغ ومأطل حتى قرر شيركوه التخلص منه ، وتم ذلك على يد الشاب صلاح الدين . ورأى الخليفة الفاطمي العاضد وتذلل أن ينقذ الموقف بتعيين شيركوه وزيرا ، فقام في الوزارة مدة ثلاثة أشهر ، وتوفي بعدها سنة ١١٦٩ م . فرأى الخليفة العاضد أن يسند الوزارة إلى الشاب صلاح الدين ، أملا أن يكون في ذلك تمهيد لتخلص من الجيوش النورية ، لكن مواهب صلاح الدين عكست الآية ، إذ تولى صلاح الدين الوزارة ، وطلب إلى سيده نور الدين أن يرسل إليه أهله ، كما طالب نور الدين من تابعه صلاح الدين أن يعمل على إلغاء الدولة الفاطمية الشيعية . واستطاع صلاح الدين بفضل الخطط التي حبكها أهله ولاسيما أبوه أيوب أن يسقط الخطبة للفاطميين من منابر القاهرة سنة ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م ، والخليفة العاضد مريض لا يدرى شيئا . وتوفي العاضد سنة ٥٦٧ هـ — ١١٧١ م ويقال أنه توفي دون أن يعلم بذلك الحادث . وهكذا انتهت الخلافة الفاطمية في غير جليلة أو ثورة أو حرب ، وهي الخلافة التي عجزت الدولة عن إزالتها بالحرب أو السياسة .

(أنظر أشكال ٣٨ و ٣٩)



(شكل ٣٩) قطعة قماش من الكفاح ترجع الى عصر الحاكم بامسرا الله

الدولة الأيوبية

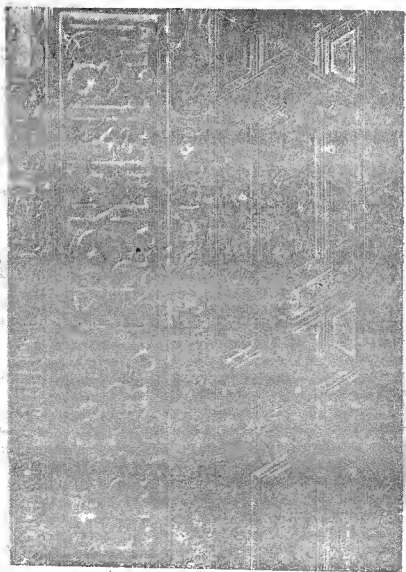
صلاح الدين :

ولد صلاح الدين يوسف الأيوبي سنة ١١٣٨ م بمدينة تكريت على نهر «جلة شمالى سامرا» ، واتصل والده نجم الدين أيوب وعمه شيركوه بالانابك زنكى ، فنشأ صلاح الدين فى ظل البيت الزنكى ، وقلم علوم أولاد الأمراء ، وهى حفظ القرآن ودرس الفقه والأدب ، والتدريب العسكرى والفروسية والفنون الحربية المختلفة . واشترك صلاح الدين مع عمه شيركوه فى الحملات التى أنقذها السلطان نور الدين لمنع الصليبيين من الاستيلاء على مصر أواخر أيام الدولة الفاطمية . وأسفرت هذه الحملات النورية عن قيام شيركوه ، ثم صلاح الدين فى الوزارة بالقاهرة ، ولم يسكد صلاح الدين يستقر فى شئون وظيفته المزدوجة ، وهى قيامه وزيراً فى دولة شيعية لا خليفة لها ، ونائباً لمملكة صاحبها نور الدين ، حتى أخذ رجال الفصر الفاطمى يحكيون له المؤمرات . ثم توفى نور الدين سنة ١١٧٤ م فاستطاع صلاح الدين أن يعلن نفسه سلطاناً على مصر وعلى جميع أجزاء مملكة نور الدين تدريجياً ، ووافق الخليفة العباسى على سلطنته . والتفت صلاح الدين إلى كثير من الأعمال الداخلية فى مصر ، فبنى القلعة الحالية ، وأحاط القاهرة والفسطاط بما بسور واحد وشجع على إقامة معاهد الدراسة للفقهية السنية وهى المعروفة بالمدارس ، ومنها مدرسة الإمام الشافعى التى زارها الرحالة ابن جبير سنة ١١٨٩ م ، ووصفها فى مذكراته وصفاً طيباً . وأنشأ صلاح الدين فى مصر كذلك مستشفى ، هو الثانى من نوعه فى مصر فى تلك المصور (شكل ٤٠ ، ٤١) .



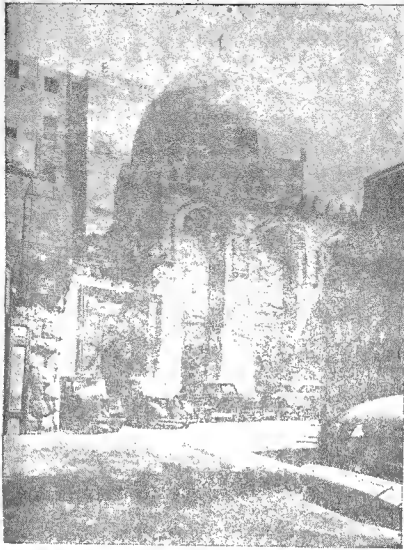
شكل (٤٠) اسوار صلاح الدين بالقلاع

ثم أنجبه صلاح الدين إلى حرب الصليبيين ، وتابع سياسة الجهاد ضدهم حتى انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في حطين سنة ١١٨٧ م ، بل استولى على كثير من مدنها بعد ذلك ، حتى لم يبق لهم بالشام سوى صور وعكا وأنطاكية وطرابلس وبعض المدن الداخلية . (خريطة رقم ٢٢) .



(٤١ ث) جزء من قطعة من الخشب من العصر الأيوبي معروضة في متحف الفن الإسلامي

بالشام ، أو مصر باجناد من المماليك المجلوبة من مختلف البلاد المجاورة . وازداد
ههؤأ أولئك الجند المماليك بسبب استمرار الحروب بين أبناء البيت الأيوبي .
حتى أضحي أولئك الجند المماليك أصحاب الأراضى والأملاك والسلطة والنفوذ
والحكم والإدارة ، فضلا عن القوة الحربية . وأولئك المماليك هم الذين دفنوا
الصلبيين عن مصر ، والسلطان وقتذاك الصالح أيوب (سنة ١١٤٩ م) .
(شكل ٤٢) .



(شكل ٤٢) قبة الصالح نجم الدين أيوب

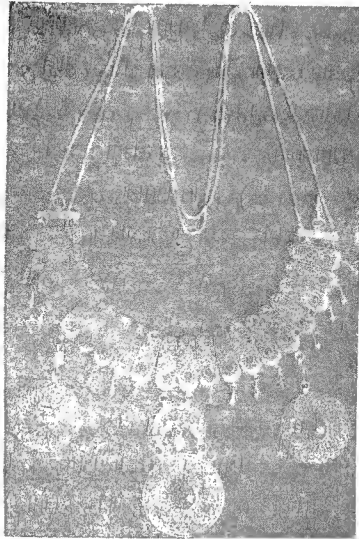
ثم توفي السلطان الصالح أيوب وتولى شئون الدولة بعده زوجته
شجرة الدر ، وأصلها مملوكة لهذا السلطان . ثم جاء توران شاه بن الصالح أيوب ؛
واختلف مع زوجة أبيه فخرت شجر الدر زعماء المماليك على التخلص منه
بقتله حريقاً غريباً في فارسكور سنة ١٢٥٠ م ، وبذا انتهت الدولة الأيوبية
وقامت دولة المماليك في مصر .

دولة المالك

وأقام المالك شجر الدر سلطنة، وعينوا أحدهم وهو إريك الزكمان إلى جانبها، غير أن الخلافة العباسية صاحبة السيادة الأسمية على مصر لم ترض بتعيين شجر الدر سلطنة على البلاد، فأقام المالك إريك سلطاناً، وخلفت شجر الدر نفسها وتزوجت من إريك، بعد أن انفردت بمقايد البلاد مدة بلغت ثمانين يوماً فقط. وبعد إريك (سنة ١٢٥٠ م - ١٢٥٧ م) أول سلاطين المالك. وجرى المصطلح التاريخي على تقسيم المالك إلى قسمين، وهما دولة المالك البحرية (سنة ١٢٥٠ م - ١٣٩٠) ودولة المالك البرجية (سنة ١٣٨٢ - ١٥١٧ م). والمالك البحرية من حرس السلطان الصالح الأيوبي، أما البرجية فنشأوا حرساً للسلطان المملوكي قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م). وجاء هؤلاء وأولئك من أجناس مختلفة، فمنهم التركي والشركسي والمنغولي والإيطالي والألماني واليوناني.

وتداول عرش مصر من سلاطين المالك المعروفين باسم المالك البحرية أربعة وعشرون سلطاناً، ومن المالك المعروفين باسم المالك البرجية ثلاثة وعشرون سلطاناً، ولم يحترم المالك مبدأ الوراثة للعرش لأنهم اعتبروا أنفسهم أسوياء، لا فضل لمملوك على آخر إلا بالشجاعة والسياسة والمقدرة على استمالة القابعين من المالك.

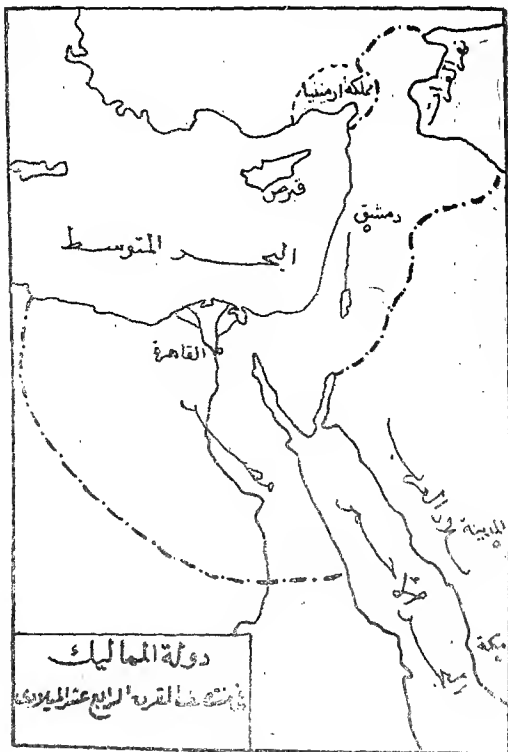
وبلغت مصر مبلغاً عظيماً من القوة والثروة والأبهة على عهد سلاطين دولة المالك الأولى والثانية، وصدت كثيراً من الأخطار الجسيمة التي هددت البلاد الإسلامية عامة، والشرق العربي خاصة: ففضى المالك على الخطر المنغولي الذي



(شكل ١٣)

قلادة من الذهب مما كانت ترتين به نساء مصر في عهد المماليك

أزال الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦ هـ - ١٢٥٨ م) وأخرجوا جيوش
الصلبيين من الشام . وأضحت دولة سلاطين المماليك هي القوة العظمى الوحيدة المدافعة
عن كيان العالم الإسلامي ، وآخر الدول المستقلة التي عاشت بمصر . (خريطة رقم ٢٣)

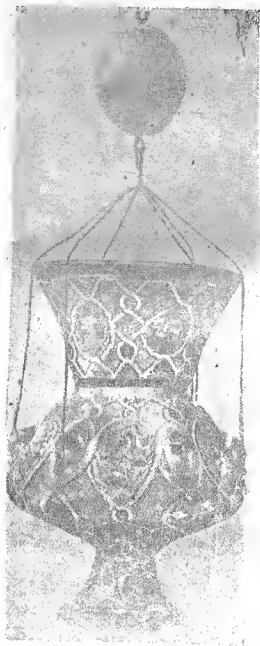




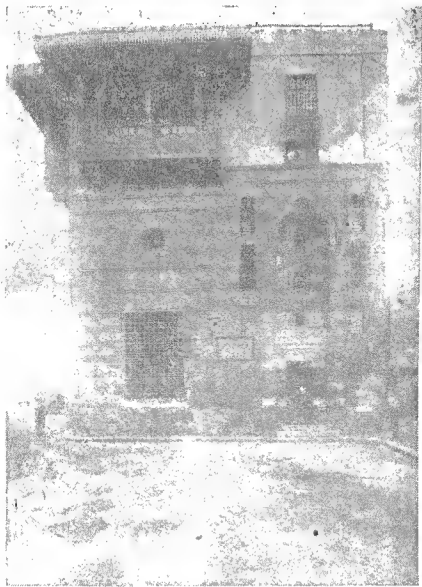
(شكل ٢٤)

قطعه من القماش بزخارف ترجع إلى العهد المملوكي

وأصاب الماليك الترف وانرفاه بعد أن استقر الأمر لهم ، وتدقت عليهم
 الثروات الواسعة بسبب التجارة . فذهب الضعف فيهم وكثرت فئاتهم وأحزابهم ،
 وتضاربت مصالح هذه الفئات والأحزاب ، على حين تطورت الدولة العثمانية
 التركية في ذلك الوقت من قوة إلى قوة في آسيا الصغرى والبلقان ، حتى غدت
 ترى نفسها جديرة بالسيادة العظمى على المسالم الإسلامي . ولذا حاربت دولة
 سلاطين الماليك وقضت عايمها في . صر سنة ١٥١٧ م . (انظر اشكال ٤٣ ، ٤٤ ،
 ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨)



(شكل ٤٥) مكانة من الزينة من العصر المملوكي



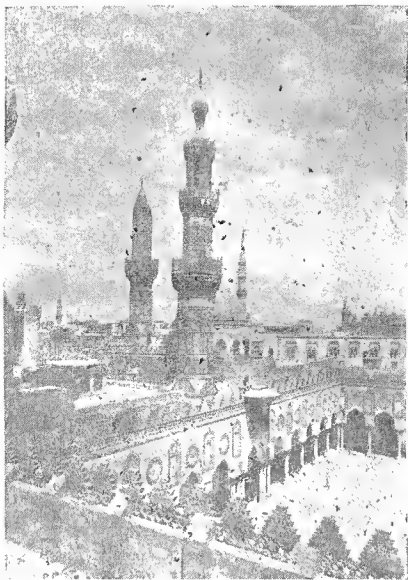
(شکل ۴۶) سیل قایم‌بای واه‌لییه



(شكل ٤٧) طابيه واتاي بالاسكندرية

انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة :

دأب سلاطين المماليك منذ أيام السلطان أيبك على الرجوع إلى الخلافة العباسية في بغداد للحصول على تفويضها لهم بالسلطنة وليكسبوا حكمهم صيغة شرعية في مصر . ثم تبدلت هذه السياسة تماماً بعد أن زالت الخلافة العباسية من بغداد على يد هولاكو وجنوده ، ونسكر السلطان قطز ثالث سلاطين المماليك في إعادة الخلافة العباسية إلى بغداد لتسكن حدث أن اغتيل السلطان قطز وتولى يبرس السلطنة بالقاهرة ، فاستدعى يبرس إلى القاهرة أحد أبناء البيت العباسي هو أسمه أبو القاسم سنة ١٢٦١ م وعقد مجلساً عاماً حضره جميع رجال الدولة وكبار التجار والناس بالقاهرة ، وشهد جماعة من العربان أمام ذلك الجمع أن أبا القاسم هو ابن الخليفة الظاهر العباسي ، وبذا تمت له البيعة بالخلافة ولقب بالمستنصر . ولما تمت البيعة قلد الخليفة السلطان يبرس البلاد



(شکل ۴۸) منارتی فاتیماوی بالارهر

الإسلامية وما يضاف إليها وما سيقفحه الله على يديه من البلاد .
وأخذ يبرس بعد ذلك يجهز الخليفة بالمال الوافر والجند الكثير لاسترجاع
بغداد من المغول . غير أن هذا الخليفة مات قتيلًا على يدي التتار قبل أن يصل
إلى بغداد ، فمقد يبرس الفية على إقامة الخلافة العباسية بالقاهرة ، واستدعى
عباسيًا ثانيًا لمبايعته بالخلافة . فلما تمت البيعة وتلقب الخليفة الجديد بلقب الحاكم
بأمر الله ، أمر السلطان ببرس بالدعاء له في خطبة الجمعة ، وخطب له فيما بعد على
مقابر دمشق والمدينة والمقدس . وهكذا بعث الخلافة العباسية بالقاهرة .

وأفاد الماليك من الوضع الجديد ، إذ صار سلاطينهم منذ أيام السلطان ببرس
إلى الفتح العثماني لمصر يتمتعون بمقام سام في العالم الإسلامي ، باعتبارهم حماة
الخلافة ، والمتمتعين بديعتها . وصارت القاهرة مركز الخلافة تأتي إليها وفود الملوك
من البلاد الإسلامية القريبة والبعيدة تطلب تقليدها السلطنة في بلادها .

نهاية دولة الماليك :

ويرجع علو المستوى الحضارى في مصر زمن سلاطين الماليك إلى التجارة
الدولية التي قامت مصر فيها بدور الوسيط بين الشرق والغرب ، حتى غدا بعض
التجار المصريين أصحاب فروع تجارية بالحشة والسودان واليمن والمند والصين .
وأدرك سلاطين الماليك أهمية هذه التجارة ، فمروا الضرائب على الصادرات
والواردات وصرفوا من حصيلة هذه الضرائب دلى عمائرهم وقصورهم وحرورهم .
ثم أخذت هذه التجارة تتحول تدريجيًا عن مصر والبحر الأحمر بعد أن كشف
البرتغاليون طريق الوصول إلى الهند والخليج الفارنى بالطواف حول ريقمها .

عن طريق رأس الرجاء الصالح ، والسفر بحراً من أوروبا إلى الهند بهذا الطريق مباشرة . ومن ثم فقد المالك أعظم موارد المالية السهلة ، فصارت الأحوال الاقتصادية تدريجياً من رخاء إلى ضيق ، ومن غنى إلى فقر .

وعجز السلاطين عن النهوض بمرافق البلاد ، فأصاب دولتهم الجود وتمردت الجنود على السلاطين ، وأصبح كيان الدولة مهدداً ، حتى إذا هجمت جيوش العثمانيين على مصر ، زالت سلطنة المالك في سرعة غير متوقعة .

الدولة الحمدانية

الحمدانيون في الموصل والشام :

تتطلب معرفة أحوال هذه الدولة رجوعاً إلى أيام الأتراك أصحاب وظيفة « أمير الأمراء » في بغداد ، واستبداد أولئك الأمراء بالسلطة من دون الخليفة العباسي . ذلك أن بعض القبائل العربية التي سكنت بادية الشام ووادى الفرات استغلت ضعف الخلافة العباسية واستقلت بالمدن والقلاع الواقعة في أرضها ، ومن أمثلة ذلك ماقامت به قبيلة قنبل ، إذ استطاعت بفضل أبقاء زعيمها حمدان بن حمدون أن تؤسس دولة لها في شمال العراق ، وأن تتخذ من مدينة الموصل عاصمة لها (٣١٧ — ٨٣٤٨ ، ٩٢٩ — ٩٩١ م) .

وتعصبت هذه الدولة للعروبة ، وساءها استبداد الأتراك بالخلافة العباسية . فجاء زعيمها الحسن بن عبدالله الحمداني إلى بغداد ، ومعه أخوه ، لمناصرة الخليفة المتقي بالله (سنة ٢٣٠ — ٩٤١ م) . وكافأ الخليفة هذا الزعيم الحمداني بأن عينه في وظيفة « أمير الأمراء » ومنحه لقب ناصر الدولة . ثم منح الخليفة المتقي أخا ناصر الدولة الحمداني كذلك لقب سيف الدولة . على أن الأتراك استطاعوا بزعماء قائدهم توزون أن يطردوا الحمدانيين من بغداد وأن يحملوهم على العودة إلى الموصل (سنة ٣٣١ هـ — ٩٤٢ م) .

وتطلع سيف الدولة بعد خروج الحمدانيين من بغداد إلى القيام بمغامرة حرية فعلى شأن دولته بالموصل . فسار سنة ٣٣٣ هـ — ٩٤٤ م إلى شمال الشام واستولى على حاسب ، وأخرج منها حاكمها التابع للدولة الأخشيدية ، صاحبة

السيادة إذ ذاك على مصر والشام . وأصبح سيف الدولة بذلك صاحب حلب ،
على حين أصبح البوسيون وقتئذ أصحاب الأمر في بغداد . وظلت الدولة الحمدانية
وعصمتها حلب قائمة في شمال الشام حتى سنة ١٠٠٣ م (خريطة رقم ٢٤)



وخافت الدولة الحمدانية في حلب آثارا جليلة في تاريخ الحضارة الإسلامية
وفي مجد المسلمين ، رغم قصر مدتها . ويرى الفضل في ذلك إلى مؤسسها سيف
الدولة الحمداني ، فهو من أنصار العلم ، شغوف بعمد المجالس الأدبية اراخرة
بالفلاسفة والشعراء . ولذا اجتذبت مجالس سيف الدولة من المشهورين في تاريخ

الحضارة الإسلامية أبا الطيب المتنبي الشاعر ، والمؤرخ العظيم للادب والموسيقى أبا الفرج الأصفهاني صاحب كتاب الأغاني ، والخطيب النصيح ابن نباته الذي ألهمت عظمته حماسة مستعديها وبعثتهم إلى الاشتراك في الجهاد ضد الدولة البيزنطية وهذا فضلا عن الفارابي الفيلسوف المشهور .

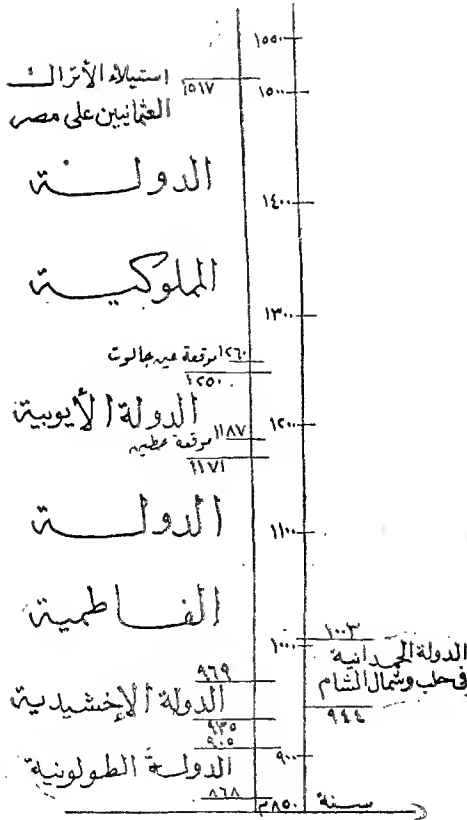
علاقة الحمدانيين بالبيزنطيين :

وانسعت دولة الحمدانيين سواء في الموصل أو في حلب على طول منطقة الأطراف الإسلامية المتاخمة لأراضي الدولة البيزنطية في جنوب آسيا الصغرى . وتكونت منطقة الأطراف بين الحمدانيين والبيزنطيين من سلسلة جبال طويلة وسبعها قلاع وحصونها ذات المساكن الحربية الاستراتيجية ، وحرص كل من المسلمين والبيزنطيين على السيطرة على تلك الحصون والمعابر والممرات الهامة لمساعدة جيوشهم على الهجوم أو الدفاع . واشتهرت هذه السلسلة من الحصون منذ أيام الخليفة هارون الرشيد باسم إقليم « الثغور والدعائم » .

وانقسم هذا الإقليم إلى قسمين : أحدهما في الشمال الشرقي واسمه ثغور الجزيرة للدفاع عن شمال العراق ، والآخر في الجنوب الغربي واسمه ثغور الشام . وظلت الغارات سنويا بين المسلمين والبيزنطيين في هذه المنطقة الهامة ، فلما ضعفت الخلافة العباسية طمع أباطرة الدولة البيزنطية في الاستيلاء على إقليم الثغور ، والهجوم منه على سائر أراضي المسلمين . ومن ثم غدا قيام الدولة الحمدانية في شمال العراق والشام حاجزا ضد هجمات البيزنطيين في وقت أضحت الدولة الإسلامية فيه نهبا لا موحى والفاقل الداخلية ، وليست لديها قوة حربية كافية . وخلد سيف الدولة اسمه في حروبه المتكررة ضد البيزنطيين والتصدي لأعمالهم

للعدائية على أرض المسلمين . فبدأ سيف الدولة بإغاراته على آسيا الصغرى سنة ٩٥٧ م دون أن يهمل سنة واحدة في تجهيز حملة حربية لذلك الغرض ، وبذا استولى على كثير من الحصون البيزنطية مثل مرعش وغيرها من مدن الحدود . وعاصرت حركات سيف الدولة قيام أعظم امبراطورين عسكريين عرفتهما الدولة البيزنطية ، وهما نقفور فوقاس وحنا شمشق . وبلغت الدولة البيزنطية على عهد هذين الإمبراطورين أقصى قوتها الحربية . ذلك أن نقفور فوقاس استطاع أن يستولى على حلب نفسها عاصمة سيف الدولة سنة ٩٢٥ هـ — ٩٦١ م ، ولكنه لم يستطع الاستيلاء على قلعتها . غير أن القوات البيزنطية انسحبت منها بعد ثمانية أيام بسبب المقاومة الحمداية . أما الامبراطور حنا شمشق فأتجه إلى الاستيلاء على بيت المقدس ، وتوغل كثيراً في أراضي الشام . ولكنه عاد سريعاً من غارته الخائفة بفضل مقاومة الحمدايين في حلب ومقاومة الفاطميين في سائر الشام . وتولى شئون الدولة الحمداية إذ ذاك سعد الدولة بن سيف الدولة (٩٦٧ — ٩٩١ م) .

لكن الدولة الحمداية دخلت بعد ذلك في مرحلة الضعف والنزاع الداخلي . وانتهت هذه المرحلة بانتهاء الدولة الحمداية بعد أن قامت حارسة على أطراف الدولة الإسلامية في وقت لم يدرك الخلفاء العباسيون في بغداد قيمة الدفاع عنها . ولجأ بعض المتنازعين على السلطة من الحمدايين إلى الخلافة الفاطمية القائمة في مصر والشام وقتذاك ، على حين ظلت الخلافة العباسية غارقة في الضعف والفوضى



١٣٠٠				سنة ١٣٠٠
السلاجقة				
في خراسان				
وفارس				
والعراق		١١٨٦		١٤٠٠
والشام		الغزنويون		
وآسيا الصغرى		في بلاد		
	١٠٥٥	الأفغان		١١٠٠
		والبنجاب		
١٠٣٧	بنو بويه	وما وراء النهر	٩٩٩	١٠٠٠
	في العراق			
	وفارس	٩٧٦	السامانيون	
	٩٤٥		في بلاد	
			وما وراء النهر	٩٠٠
			٨٧٤	
				سنة ٢٨٠٠

خريطة زمنية
للحركات الانفصالية في المشرق

رابعا : جهاد العالم الغربى ضد الصليبيين والمغول

١ - الصليبيون .

أطماع الأوربيين فى الشرق العربى :

تمهيد :

منذ استولى المسلمون على فلسطين فى عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، أشرفت الخلافة الإسلامية على الأماكن المسيحية بها مثل بيت المقدس وبيت لحم والفاصرة والجلبيل . وأثارت هذه السيادة الإسلامية غضب الحجاج الأوربيين منذ كثرت أعداد الوائدين منهم على بيت المقدس . غير أن اضطراب أحوال الدولة الإسلامية بعد أن سيطر الأتراك السلاجقة على مقاليد الأمور فى العراق والشام جعل الحجاج المسيحيون يستغيثون بالباوية فى روما ضد فوضى السلاجقة ويشجعونها على انتزاع الأماكن المسيحية فى فلسطين .

وبعث الامبراطور البيزنطى وقتذاك وهو ألكسيوس كومنينوس ، إلى البابا أريان الثانى يدعوهُ إلى مساعدته ضد السلاجقة الذين أنزعوا أملاك دولته فى جنوب آسيا الصغرى . ولذا اختبرت فى رأس البابا أريان الثانى وهو فى مدينة كليرمونت بفرنسا سنة ١٠٩٥ م فكرة الدعوة لأعداد حملة ترمى إلى طرد السلاجقة من آسيا الصغرى وتخليص الأراضي المسيحية فى فلسطين من أيدي المسلمين .

الإقطاع :

ولم يأمراء الأوربيين دعوة لبايوية ، وهم الطبقة الحربية العسكرية ، وأصحاب الإقطاعيات السكونية من الأرض ، وذوو النفوذ السباسبى السكونى . ولما كانت الحروب الإقليمية قد انتشرت بين السادة الإقطاعيين وملوكهم فى غرب أوربا ، فإن السكونية رأت فى الدعوة إلى الحروب الصليبية وسيلة لصرف هذه الطبقة عن المشاحنات . ورأى بعض أولئك الإقطاعيين فى دعوة السكونية فرصة للذهاب إلى الشرق ووسيلة لتأسيس إمارات أو إقطاعات لهم هناك ، والتخلص من . تآلبهم الإقتصادية . وبذلك صار الطابع الاستعمارى يسطر على زعماء الصليبيين بغرب أوربا على اختلاف مشاربهم .

الإمارات البحرية الإيطالية

واقى الصليبيون من المدن البحرية الإيطالية مساعدة كبيرة فى تمويلهم وحملهم فى السفن إلى الشام . ولم تكن قصد مدن إيطالية أن تخدم الدين فحسب ، بل أسهمت فى إعداد الحملات الصليبية لتحقيق أغراضها التجارية كذلك ، كما تجلى فى مطامع البندقية وجنوة وبيزا وأمالفى .

ثم اشتدت المنافسة بين المدن الإيطالية أبان الحروب الصليبية ، إذ جهد كل منها فى توسيع سلطانها ودعم نفوذها التجارى فى بلاد الشرق الإسلامى والمسيحى ، واستطاعت البندقية بفضل موقعها الجغرافى على رأس البحر الأدرى أن تنشر تجارتها فى قارة أوربا ، وبذا اجتذبت إليها متاجر البلاد المحيطة بها . وسارت أساطيل البندقية إلى مصر والشام ، واستبدلت بمنتجات أوربا حاصلات

الشرق من التوابل والعطور وغيرها . ويرجع هذا النشاط التجاري في البندقية إلى ما قبل زمن الحروب الصليبية . ومن دلائل ذلك معاهدة الإمبراطور البيزنطي ألكسيوس الأول مع البندقية سنة ٨٢٠ م على منح البنادقة حرية التنقل للتجارة بين أنحاء الامبراطورية دون دفع جمارك أو مكوس ، وذلك في مقابل مساعدة البندقية للامبراطورية في حربها ضد النورمانين — حكاهم جنوب إيطاليا وقتذاك ، أما زمن الحروب الصليبية فعملت البندقية وكذلك جنوة وبيزا وأمالفي على الاتصال مباشرة بالشرق الإسلامي ومتاجره .

ولذا قدمت أساطيلها لمساعدة الجيوش الصليبية في استيلائها على مدن الشام ، ونقل الحجاج في مقابل الحصول على امتيازات تجارية في الإمارات الصليبية في الشام . وأصبح لكل من هذه المدن أجزاء خاصة بتجارها في مختلف المدن والموانئ الشامية ، وبذا غدا العامل التجاري سبباً من الأسباب الكبيرة التي أدت إلى استمرار الحروب الصليبية .

٢ - زحف الصليبيين على الشرق العربي

أما الصليبيون المذير اجتمعوا من مخازن البلاد الأوربية للذهاب إلى الشرق فقد جمعوا مدينة القسطنطينية ملتقى جيوشهم قبل العبور إلى آسيا الصغرى والشام .

ورقم الزحف الصليبي على آسيا الصغرى والشام في وقت ليست فيه قوة عربية إسلامية تستطيع الوقوف في وجه الجيوش الصليبية ، والدولة السلجوقية الكبرى باتت بعد وفاة سلطانها ملكشاه سنة ١٠٩٢ م دويلات متنافرة لا رابطة بينها سوى الحروب المستمرة . فبقيت دولة السلجوقية الروم - أي آسيا الصغرى - حكم السلطان قلیج أرسلان الصغرى السن ، وهو أول من اتقى ضربات الصليبيين سنة ١٠٩٧ م . وفي الشام والعراق لم يوجد حاكم ذو نفوذ واسع ، بل استبد بمختلف المدن الشامية والعراقية مجموعة من الأتابكة المتنازعين ، وهم الموظفون الذين قاموا على تربية أبناء السلاطين وعينوا إلى جانبهم في ولايتهم ، فلما تكسكت الدولة السلجوقية الكبرى صار أولئك الأتابكة أصحاب الدويلات في مدن الشام والعراق .

أما الخلافة العباسية في بغداد فلم يكن لها حول ولا قوة ، وضاعت هباء صرخات المسلمين لاستنهاض الخليفة العباسي المستنصر بالله (٤٨٧ هـ - ١٠٩٤ م) كذلك لم يكن في استطاعة الخلافة الفاطمية وهي صاحبة بيت المقدس وغيرها من المدن بمغروب الشام ، أن تقوم بعمل كبير ضد الصليبيين . إذ عاش الخليفة الفاطمي بالقاهرة مسلوب السلطان ، بسبب الحزبية العسكرية

وتنازع المصالح والأطماع بين الوزراء الفاطميين . ومن الواضح أن هذه العوامل
الكثيرة سهلت غلبة الصليبيون على المسلمين إلى حين ، كما سهلت عليهم
تأسيس إمارات صليبية هي إمارة « الرُّكَا » بأعلى الفرات ، وإمارة أنطاكية
حول مدينة أنطاكية الحالية ، وإمارة طَرَابُلس بالجزء الشبلى من لبنان
الحالية ، وإمارة بيت القدس في فلسطين . (خريطة رقم ٢٥) .



٣ — المقاومة الشعبية ضد الصليبيين في الشرق العربي

حركة اليقظة العربية الاسلامية على عهد عماد الدين زنكى :

واستيقظ العرب في مختلف البلاد إلى الخطر الصليبي الذي دق أوتاده العدوانية في هذه المدن الكبرى ، وأخذ أمراؤهم في العمل على تكوين مقاومة إسلامية عامة من أهل الشرق العربي كله ، لجهاد الصليبيين ، وإخراجهم من ممتلكاتهم العربية التي اغتصبوها لأنفسهم بالشرق .

وافتحح الأمير عماد الدين زنكى ، أمير الموصل هذا الجهاد بحصار مدينة الرها وهي المقل الأول للصليبيين في شمال العراق ، ، والخطر الذي هدد بغداد عاصمة الخلافة العباسية .

وبعد حصار دام أربعة أسابيع استولى زنكى على الرها سنة ١١٤٤ م ، وسمى هذا الفوز « نصر الأنصار » ، إذ ترتب على سقوط إمارة الرها في يده إزالة العدو الذي شق البلاد الإسلامية نصفين . ووضع زنكى حامية في الرها لتأمين فتوحاته في هذه المنطقة الهامة ، وبدأ زحفه على معاقل الصليبيين الأخرى المجاورة وأعانه في معظم حروبه أخوان من أصل كردى في خدمته ، وهما نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه . على أن زنكى مات قتيلا سنة ١١٤٦ م على يد أحد عماليكه ، بتحريض من بعض أعدائه المسلمين ، وهو يحاصر قلعة جعير . وترك لأبنة نور الدين محمود إتمام الدور الأول من الجهاد ضد الصليبيين ، وخلف له سياسة مرسومة واضحة المعالم .

انتقال القهادة العربية إلى الشام :

جعل نور الدين عاصمته مدينة حلب ؛ وبلغت الدولة في أيامه أعظم مجدها واتساعها ، إذ استطاع على أثر تولية الحكم أن يتخلص في سرعة من الفتن الداخلية التي تلت مقتل والده . واضطرم نور الدين بمحاولة الصليبيين استرداد الرها ، فقد أدى استيلاء المسلمين على هذا المعقل الهام إلى قيام الحملة الصليبية المروقة بالثانية (١١٤٧ — ١١٤٩ م) من أوروبا بقيادة كرنارد الثالث ملك ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا . غير أن اختلاف المصالح الشخصية حول هذه الحملة انتهى إلى حصار دمشق بدلا من استعادة الرها . وقاوم الأتابك طغتكين أمير دمشق هذا الحصار الصليبي سنة ١١٤٨ م ، وظل الصليبيون أمامها عاجزين عن اقتحامها برغم اشتراك فرسان الهيئتين المسيحيتين اللتين تأسستا لمساعدة الصليبيين في الشرق ، وهما الدأوية (فرسان المعبد) والأستارية (الاستبالية) . وأرسل نور الدين زنكي مددا لنجدة طغتكين ، فاضطر الصليبيون إلى رفع الحصار ، وعاد لويس وكرنارد إلى أوروبا ، بعد فشل الصليبيين في تحقيق شيء من أغراضهم في دمشق والرها .

استباق نور الدين والصليبيين للاستيلاء على مصر :

رأى نور الدين بعد فشل هذه الحملة الصليبية ضرورة الاستيلاء على دمشق ، تحقيقا لتوحيد الجبهة الإسلامية التي بدأها أبوه ، ولا سيما بعد أن امتدت ممتلكات الصليبيين إلى مدينة عسقلان . وفي سنة ١١٥٤ م استولى نور الدين على مدينة دمشق دون قتال ، حين وقفت المدينة مستعدة للدخول في طاعته ، فقد كان القائد العام لجيوشها هو نجم الدين أيوب ، أبو صلاح الدين ،

من رجال الأتابك زنكى ، ولأن قائد جيش نور الدين هو شيكوه أخو نجم الدين أيوب .

وأدى هذا التنهر في الموقف الحربى إلى أن اتجهت إلى مصر أنظار كل من نور الدين في حلب والصليبيين في بيت المقدس . إذ رأى نور الدين أن استيلاء الصليبيين على عسقلان ففتح الطريق أمامهم إلى مصر ، على حين وضع للصليبيين أن استيلاء نور الدين على دمشق أتاح له تطويق مملكة بيت المقدس من الشمال ، وأنه سوف يتحول إلى مصر لتطويق المملكة الصليبية من الناحية الجنوبية كذلك . وجاءت أحوال الخلافة الفاطمية نفسها عاملا ساعد نور الدين على الفوز بمصر والاستيلاء عليها ، إذ استنجد الوزير الفاطمى شاور بنور الدين ليستأجده على منافسه فى الوزارة الفاطمية وهو ضرغام ، الذى استنجد بدوره بالصليبيين . و انتهى التسابق بين جيوش نور الدين ومملكة بيت المقدس إلى فوز القوات النورية بالبقاء فى مصر ، وغدت مصر محور الارتكاز ، الذى يوشك أن تدور عليه أحداث المراحل المستقبلية من جهاد المسلمين ضد الصليبيين ، ولا سيما بعد أن زالت الخلافة الفاطمية من مسرح التاريخ .

صلاح الدين الأيوبي

انتقال قيادة الجهاد العام إلى مصر

توحيد الشرق العربي :

ترتب على زوال الخلافة الفاطمية أن عادت مصر إلى التبعية الرسمية للخلافة العباسية في بغداد ، وكل ذلك نتيجة جهود شيركوه وصلاح الدين باسم السلطان نور الدين .

غير أن نور الدين لم يلبث أن تشكك في مطامع صلاح الدين ونواياه ، وصمم على القيام بنفسه على رأس حملة تلخمه من مصر . ثم توفي نور الدين قبل أن تتحرك هذه الحملة ، فترك سياسة توحيد القوى الإسلامية التي بدأها لصلاح الدين . واستطاع صلاح الدين أن ينهض بهذه السياسة على أتم وجهه ، فأعلن استقلاله بمصر سنة ١١٧٤ م ، غداة وفاة نور الدين . واعترفت له الخلافة العباسية بذلك ، ثم اتخذ مصر قاعدة لضم صفوف المسلمين .

وبدأ صلاح الدين خطواته لتوحيد القوى الإسلامية بإزالة الشخصيات التي اعترضت طريقه في الشام ، وساعدته الاختلافات التي تلت وفاة نور الدين على تحقيق مهمته ، إذ استعان به الدمشقيون أملا في أن تصبح دمشق عاصمة الدولة القورية بدلا من حلب . وجاء صلاح الدين إلى دمشق ، ودخلها باسم الطفل إسماعيل نور الدين ، المقيم وقتذاك في حلب . غير أن الأمير غازي الزنكي صاحب الموصل ، وهو من سلالة عماد الدين زنكي ، ضن على صلاح الدين أن يصبح حاميا

البيت الزنكي في دمشق . فحاربه صلاح الدين وانتصر عليه سنة ١١٧٥ م ،
وغدا صلاح الدين بعد ذلك سيد مصر والشام ، والشخصية الكبرى في العالم
الإسلامي والشرق الأدنى . ف ضرب النقود بإسمه في مصر والاسكندرية وحماه
بعد أن كانت العملة تضرب من قبل باسم نور الدين . وبهذا اعتبر صلاح الدين
نفسه السلطان الأوحد ، ولاسيا بعد أن أخضع الموصل لسلطانه ، وجعل من أمراء
العراق حكاما تابعين له .

وحقق صلاح الدين بذلك حلم نور الدين في تطويق الفرنجة ، وجعلهم بين
شقي الرمح ، بين الشام ومصر ، وأصبح الجو مهداً أمام صلاح الدين لمجاهدة
الصليبيين .

سحق الصليبيين في واقعة حطين :

اشتبك صلاح الدين مع الصليبيين قبل سنة ١١٨٥ م في معارك صغيرة ، بسبب
حركات صليبية متناوئة له ، وأهمها حركات أرناط ، أمير حصن الكرك ، التابع
لمملكة بيت المقدس ، ذلك أن الأمير الصليبي تحكم بمحصنه في طرق القوافل بين
مصر والشام ، ولم يهتم بالمهادنات التي عقدها صلاح الدين مع مملكة بيت المقدس .
وعزم أرناط على الاستيلاء على مكتة والمدينة والآثار النبوية بها . فأعد سنة ١١٨٣ م
سفناً ، حمل أخشابها وقلاعها إلى خاليج العقبة ، حيث جهز منها أسطولاً ، نقل
الجنود الصليبيين في البحر الأحمر إلى شاطئ الحجاز . وكان صلاح الدين
غائباً في العراق وقتذاك ، فأسرع نائبه في مصر ، وهو أخوه المعادل ، ولحق
بالصليبيين عند مرفأ الحوراء شمالي ينبع ، واستطاع إعادته القضاء على الصليبيين
قبل تحقيق أهدافهم وحمل كثيراً منهم أسرى إلى مصر .

ثم عاد أرناط إلى خرق الهدنة بين الصليبيين والمسلمين رغم فشله السابق .

وتصدى في ربيع سنة ١١٨٦ م لإحدى القوافل الإسلامية المارة يحصنه واستولى على جميع متاعها ، وأسر كل أفرادها فأعد صلاح الدين حملة على مملكة بيت المقدس التي لم تستطع أن توقف اعتداءات أرناط التابع لسلطانها .

وعسكر صلاح الدين بقواته عند مكان يسمى قصر السلامة ، قرب بُعري في مايو (آيار) سنة ١١٨٧ م ، وقام هناك بغزو البلاد القريبة من حصن الكرك متحدياً أرناط . غير أن هذا الأمير الصليبي خاف الخروج لمواجهة القوات الإسلامية . فتيقّد صلاح الدين بعد ذلك على رأس قواته في شهر يونيو (حزيران) واستولى على طبرية ، ثم زحف منها حتى بلغ مكاناً يسمى حطين .

ورأى الصليبيون وقتذاك ، تحت تأثير أرناط أن يخرجوا للملاقاة صلاح الدين ، فوصلت قواتهم حطين في أول يوليو (تموز) سنة ١١٨٧ م . وفي اليوم الرابع من يوليو (تموز) ، أي وسط الصيف ، وقعت الواقعة ، ونزل بالصليبيين من ألوان الهزائم ما لم يعهده من قبل . وزاد هذه الهزيمة أن النار اشتعلت في الحشائش الجافة حول معسكر الصليبيين ، فلم تبق على أحد تقريباً . ثم أمر صلاح الدين باحضار الأسرى إلى مخيمه ، ومن بينهم أرناط أمير الكرك ، وجأى لوزنيان ملك بيت المقدس . فقتل صلاح الدين أرناط بنفسه ، وبر يمين كان أقسمها أن يقتله إذا وقع في يده ، لأن هذا الأمير الصليبي لم يعرف للمعاهدات حرمة أو تقديرًا . على أن صلاح الدين عامل الملك الصليبي معاملة ممتازة ، بل إنه أطلق سراحه بعد أن وعد ألا يقدم على حرب المسلمين .

نتائج حطين :

كانت حطين وقعة فاصلة حاسمة ضد الصليبيين حتى وصفها بعض المعاصرين

من مؤرخى الحروب الصليبية الأوروبية بأنها بداية النهاية في تاريخ الحروب الصليبية ولم يكن في هذا القول شئ من المبالغة ، إذ حشد الصليبيون زهرة جندهم في حطين ولم يبق لديهم قوات لمواجهة الخطة الخاطفة التي رسمها صلاح الدين لنفسه بعد حطين ، إذ سلمت له مدينة بيت المقدس في أكتوبر سنة ١١٨٧ م ، بعد حصار دام أسبوعاً واحداً . ثم استمر صلاح الدين في هجومه على مدن الصليبيين في الشام وفلسطين ، فبلغ مدينة اللاذقية شمالاً ، وحصن السكرك جنوباً ، ولم تأت سنة ١١٨٩ م حتى سقطت معظم المدن الصليبية التي مهددت المسلمين ، وبدأ كأن الصليبيين سيخرجون جميعاً من الشام ، لأنه لم يبق في حيازتهم سوى إنطاكية وطرابلس وصور ، ودمض المدن الساحلية وأهمها صور نفسها (خريطة رقم ٢٦) .



خريطة رقم ٢٦ - ١١٨٧ م - ت. الأناضول بعد تصارات صلاح الدين

جهاد سلاطين البيت الأيوبي

ضد الصليبيين بعد صلاح الدين

هزيمة الصليبيين في دمياط.

ادرك الصليبيون منذ وفاة صلاح الدين أن البلاد المصرية هي مركز المقاومة العربية ضدهم ، فأجمعت دوائهم على وجوب مهاجمتها ، والاستيلاء على سواحلها ومدنها من دمياط إلى القاهرة .

هجوم الصليبيين على مصر

الاستيلاء على دمياط .

وشجعت المدن البحرية الإيطالية على تنفيذ هذه السياسة الصليبية الجديدة . ودفعتها أطماعها التجارية إلى فتح مصر لتستطيع السفن الإيطالية أن تصل إلى البحر الأحمر ومراكز التجارة الشرقية مباشرة .

وصادف هذا الانقلاب في خطط الصليبيين دعوة البابا أنوسنت الثالث سنة ١٢١٦ م لإعداد حملة صليبية ؛ هي المعروفة بالحامسة في التقسيمات الصليبية .

دخلت هذه الحملة فرع النيل الشرق وحاصرت دمياط سنة ١٢١٨ م وأمرع السلطان العادل من شمال الشام إلى مصر لدفع هذه الحملة ، ولكنه توفي

في الطريق بالقرب من دمشق . وأعقب وفاة العادل انقسام الدولة الأيوبية مرة أخرى ، ففصل أبناءه الأجزاء الكبرى ، وتولى مصر ابنه محمد الملقب بالملك الكامل ، ووقع عليه عبء الدفاع عن البلاد المصرية ، وتنفيذ السياسة التي اتبناها أبوه العادل . واستطاع الصليبيون الاستيلاء على دمياط في هذه الحملة . ومع هذا أظهر الملك الكامل روح المسألة التي اتبناها أبوه العادل ، إذ اقترح عليهم تسليم بيت المقدس ، وإرجاع المملكة الصليبية إلى معظم مساحتها الأولى قبل فتوح صلاح الدين ، ماعدا بضعة بلاد صغيرة ، مقابل الجلاء عن دمياط والشواطيء المصرية .

ورفض الصليبيون هذا العرض السخي لاعتقادهم سهولة الاستيلاء على البلاد المصرية . ثم أخذ الصليبيون في التوغل في الدلتا ، والفيضان بالغ أقصاه . ولم يدركوا صعوبة السير في الأراضي المصرية في تلك الحال ، لجهلهم أحوال النيل وكثرة الترع ، ثم أن المسلمين فتحوا الجسور والسدود وأغرقوا الأراضي . ولم يلبث الصليبيون أن وجدوا المياه تمزقهم عن قاعدتهم الحربية بدمياط ، فلم يستطيعوا التمسك ولقوا هزيمة فادحة على أيدي المسلمين . عند ذلك رضى الصليبيون بالجلاء التام عن الأراضي المصرية سنة ١٢٢١ م ، بلا قيد ولا شرط .

حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر

ثم حدث أن جاء لويس التاسع ملك فرنسا على رأس حملة صليبية إلى المشرق يريد الاستيلاء على مصر باعتبارها مركز المقاومة للمشاريع الصليبية ونزلت هذه الحملة عند رأس البر الحالية ثم عبرت النيل إلى دمياط واستولت عليها

عام ١٢٤٩ ميلادية وأسرع السلطان الصالح أيوب من دمشق إلى مصر حين بلغه وصول تلك الحملة الصليبية إلى السواحل المصرية ، وكان مريضاً محمولا على الأكتاف لشدة مرضه . ومع هذا عكف ذلك السلطان الشجاع على تنظيم الجنود لمحاربة الصليبيين ، ولكنه توفي حين بلغته أخبار استيلاء الصليبيين على دمياط . (خريطة رقم ٢٧)



(خريطة رقم ٢٧) الحروب الصليبية في مصر

وكنمت زوجته « شجر الدر » نبأ وفاته حتى يحضر الوارث الشرعى للبلاد واسمه « متورا نشاة » .

وتمت على يد هذا السلطان الجديد هزيمة لويس التاسع وجنوده داخل مدينة المنصورة الحالية بفضل ما أنزله أهل تلك المدينة بالجيوش الصليبية من ضربات وهزائم في حارات المنصورة وشوارعها وضواحيها . ثم أنزلت الجيوش المصرية الايوبية بالصليبيين هزيمة أخرى عند « سار مساح » وهم في طريقهم إلى قارسكور ودمياط ، ووقع لويس التاسع نفسه أسيراً . واشتركت الجيوس المصرية الأيوبية والجماعات الشعبية في التهليل بذلك الانتصار للعظيم .

الماليك والصليبيون

الدور الأخير من أدوار الكفاح العربى ضد الصليبيين

يرجع الفضل فى انتصار المنصورة وجلاء الصليبيين عن دمياط إلى البسالة الحربية التى أبدأها الجند المملوكى فى القتال . وذاق الماليك طعم السلطة والحكم فى المدة الواقعة بين وفاة الصالح أيوب وحضور ابنه السلطان توران شاه . ثم أحس هذا السلطان الجديد بأن أولئك الماليك وعلى رأسهم شجرة الدر زوجة أبيه التى تولت شئون الدولة سوف يستأثرون بالحكم ويخلمونه من السلطنة . فأخذ يأتمر بهم ، كما أخذوا يأترون به ، وأغرت شجرة الدر أخيراً أمراء الماليك بالتخلص من توران شاه بقتله سنة ١٢٥٠ م ، وانتهى بذلك حكم الأيوبيين وقامت السلطنة المملوكية .

السلطان بيبرس والصليبيون :

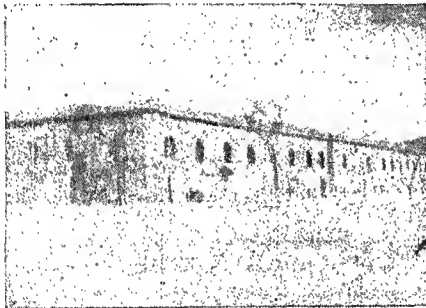
وتحولت السلطنة المملوكية إلى حرب الصليبيين زمن السلطان الظاهر بيبرس الذى امتدت سلطنته من سنة ١٢٦٠ إلى ١٢٧٧ م ، وتجلت مواهب بيبرس الحربية من قبل فى انتصارات المنصورة وعين جالوت ، وقام ضد الصليبيين بمجهود مكثف لأعمال السلطان صلاح الدين . وتحرك بيبرس أولاً لحرب إمارة انطاكية الصليبية ، بعد أن جاءته الأخبار بأن هذه الإمارة تعمل على مخالفة المنقول الذين غدوا أصحاب دولة فى فارس والعراق ، عاصمتها بغداد .

ثم بدا للسلطان بيبرس أن يقوم بدور صلاح الدين ، وأن يصيغ جميع أعماله ضد الصليبيين بصيغة الجهاد ، وعمل بيبرس منذ أوائل عهده على محاربة بعض

الدول الأوربية لإبعادها عن المعترك الصليبي ، كما عمل على إيقاع الفرقة بين القوى الصليبية بالشام ، فضلا عن محاربة الدولة الممقولة المعروفة باسم القبيلة الذهبية ، وهي الدولة التي اعتنقت الإسلام حديثا ، وجعلت من عاصمتها سراي بركة على نهر الفلجا مركزا لبسط سلطانها على أجزاء كبيرة من روسيا الحالية .

ولقد استولى بيبرس على حصن الكرك سنة ١٢٦٣ م ، وعلى قيصرية ، وأرسوف وصفد التابعين للفرسان الداوية في سنة ١٢٦٥ م ثم سقطت يافا في يده سنة ١٢٦٧ م ، واستطاع بيبرس أخيرا أن يستولى سنة ١٢٦٨ م على انطاكية وساق كثيرا من الأسرى إلى مصر ، واختتم بيبرس هذه الأعمال الحربية السكيرة بالاستيلاء سنة ١٢٧١ م على حصن الأكراد التابع للاستتارية ، ومهد للاستيلاء على بلد في أنطرسوس والمرقب ، أملا في الاستيلاء نهائيا على طرابلس وهي المدينة السكيرة التي بقيت في أيدي الصليبيين . وفي أثناء هذه الأعمال الحربية السكيرة استطاع بيبرس أن يصد الجيوش الممقولة الزاحقة من أبلخانية فارس والعراق عن أطراف الدولة المملوكية عند نهر الفرات . ويرجع السرفى هذه الانتصارات إلى قيام بيبرس بتنظيم الجيوش المملوكية والإدارة المصرية .

(مخطط ٤٩) الواهب الشرقي لسيد القاهر بيبرس



السلطان قلاوون والصليبيون :

وقام السلطان قلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠ م) بعد بيبرس بمراصلة الحرب ضد الصليبيين ، وسار على طريقة سلفه من مخالفة بعض الدول الأوربية ، وإيقاع الفرقة بين الصليبيين . وأثبت قلاوون في ساحة الحرب أنه جدير بلقب « السلطان المنصور » ، الذي اقترن باسمه دائماً ، فاستولى على حصن المرقب التابع للاستبارية سنة ١٢٨٥ م . ثم زحف نحو مدينة طرابلس ودمرها سنة ١٢٨٩ م ، وقد شهد المؤرخ أبو الفدا هذه الواقعة ، وسجل تفصيلاتها في كتابه الذي عنوانه « المختصر في تاريخ البشر » .

الاستيلاء على عكا :

لم يبق من بلاد الصليبيين الهامة بالشام بعد ذلك غير عكا . وبدأ السلطان قلاوون يستعد للاستيلاء عليها لولا وفاته ، وبذا ترك لأبنة السلطان خليل (١٢٩٠ - ١٢٩٣ م) جميع ما أعد لذلك من قوة وجند . وحاصر خليل عكا حصاراً استمر أكثر من شهر ، وهدم معاقها بمجانيقه ، ثم استولى عليها سنة ١٢٩١ م .

وهرب كثير من الصليبيين إلى جزيرة قبرص ، التي أصبحت منذئذ ملجأ بقايا الصليبيين بالشرق .

وأدى سقوط عكا إلى تسليم المدن الصليبية الباقية في الشام ، ومنها صور وبيروت ، وبذا انسدل الستار على أهم فصول الصراع بين الصليبيين والمسلمين بالشرق . ماعدا جزيرة قبرص ، التي غدت مركزاً للمملكة الصليبية وملوكها من أسرة لوزجنان ، وجزيرة رودس التي تركزت فيها بقية الفرسان الاسبتارية ، ومملكة أرمينيا الصغرى في قليقيا بأقصى الطرف الشرق من ساحل آسيا الصغرى الجنوبي .

اغارات المغول

موطن المغول :

عاش المغول في الهضبة الآسيوية الشاسعة ، التي تمتد من أطراف الصين إلى أطراف آسيا ، وتشمل جغرافيتها عدداً من خطوط الطول والعرض ، ولذا تختلف فيها البيئة وأنواع المناخ والتضاريس وتقلب عليها الصفة السهوية ذات المراعي المتغيرة .. ومن ثم احترف المغول الرعى ، والانتقال في سرعة هائلة على ظهور الخيل ، حتى تبدو حركاتهم وراء الرزق زحفاً حريصاً سريعاً . ولم ترغب قبائل المغول في الاستقرار أو بناء المدن الكبيرة وغير ذلك من مظاهر الحضارة المستقرة . بل أخذت هذه الجوع تضرب في الأرض بين أطراف الصين ومنشوريا إلى بحيرة بيكال القريبة من تركستان الإسلامية .

جنكيز خان :

ثم استطاع أحد زعماء المغول المسمى جنكيز خان ، ومعناه حاكم الحكام أن يجعل من السكتل المغولية وقبائلها دولة مغولية واحدة رهيبية ، لها عاصمة في مدينة قرة قورم . ووضع جنكيز خان دستوراً عاماً لهذه الدولة اسمه (البَسَاق)

وفي الاجتماع المغولي السنوي العام ، وهو المعروف في اللغة المغولية بلفظ (قُورينتاى) أعلن جنكيز خان هذا الدستور الذى نص فيه على ضرورة الخضوع التام لإدارته ، والانضواء تحت رايته ، والتهاب معه في جميع حروبه ، والعقوبة الشديدة لكل مخالفة فردية أو قبلية .

واستطاع جنكيز خان أن ينظم بذلك أداة حربية ضخمة ، أساسها

العمياء ، والاحترام لقرارات الخان الأعظم .

هجوم المغول على الشرق العربي :

ثم تحول جنكيز خان بعد ذلك إلى إخضاع القبائل المغولية التي فرت من قبضته أبان عملية الإخضاع التي قام بها سابقاً لتوحيد دولة المغول . وتعقب هذه القبائل إلى بلاد الدولة الخوارزمية في تركستان ، وإلى الأطراف الشرقية من إيران وحكم الدولة الخوارزمية وقتذاك السلطان علاء الدين حمد خوارزم شاه ، واتبع جنكيز خان وسائل وحشية مغولية في حروبه في بلاد الدولة الخوارزمية في إقليم ماوراء النهر . ولقيت نجارى وغيرها من المراكز الإسلامية أشنع ألوان الدمار ، إذ أخذ المغول من مساجدها اسطبلات لخيلهم ، وفر علاء الدين خوارزم شاه إلى إحدى جزائر بحر قزوين وتوفي سنة ١٢٢٠ م حزناً على ما حل ببلاد المسلمين من كوارث فادحة .

سقوط بغداد :

وزحف المغول نحو إيران بعد اجتياحهم خوارزم ، فأوغل هولاءكو في إيران . حيث قضى أولاً على قلاع طائفة الاسماعيلية ومدنهم . ولم يسكن بإيران سوى مقاومة أولئك الاسماعيلية ، وبذا تفرغ هولاءكو للزحف على بغداد .

وأرسل هولاءكو سنة ١٢٥٧ م إلى الخليفة العباسي المستعصم يدعوه إلى التسليم قبل فوات الأوان كما أرسل إلى وزيره ابن العلقمي ليجمع منه طابوراً خامساً . وأعقب هولاءكو تهديده بحصار بغداد واعتمد على ما أحدثه ابن العلقمي

من إهمال الاستعداد اللازم ، ونشر الفرع وإشاعة القول بأن المغول قوم لا يهزمون .
وأن المصلحة في الخضوع لهم .

وظلت مجانيق المغول تقذف قلاع بغداد وحصونها مدة أربعين يوما ، حتى
أحدثت فجوة في أسوارها . وعندئذ أذن الخليفة ، وخرج لمقابلة هولاكو ،
ومعه أقاربه ، وسلمه مدينة بغداد . (خريطة رقم ٢٨)



وأضمر هولاء كوفندرك للخليفة ومدينته ، فأمر باخراج الجند الطليقي خارج بغداد بحجة إحصاء عددهم ، ثم أنزل بهم القتل جميعاً . وفي صباح اليوم التالي أباح هولاء كوفندرك لجنوده ، فانتشر المغول في أحيائها يقتلون الرجال ، ويأسرون الأطفال ، ويستحيون النساء . وظلت هذه الوحشية أربعة أيام باياليها ، حتى امتلأت خيام المغول بالأمسال والأنهاس والمفانم من الذهب والفضة والنساء ، فضلاً عن رؤوس القتلى التي عمد الجند إلى اللهب بها على شواطئ دجلة .

وأخيراً أمر هولاء كوفندرك بقتل الخليفة المستعصم ، وزالت الخلافة العباسية بذلك لكن إلى حين ، وأصبح العراق الإسلامي تابعاً للمغول سنة ١٢٥٨ م (٦٥٦ هـ) .

المقاومة الشعبية في مصر والشام ضد المغول

وقعة عين جالوت :

عزم هولاكو بعد ذلك على السير نحو الشام ، فزحف شمالا ، وأعمل السيف في سكان الموصل وحران والرها . والقصة التي رواها ابن الأثير عن مبلغ الفزع والرعب الذي استولى على الناس ، خاصة بهولاكو وجنوده قرب الموصل . ثم أرسل هولاكو إلى ملوك الأيوبيين بالشام يتوعدهم بالقضاء التام ، إذا هم لم يهدوا لرحفه بالإسراع إلى طاعته . وانتشر الذعر بالبلاد الشامية والمصرية كذلك . وجاء هولاكو فاستولى على حلب ثم دمشق وغيرها من البلاد الشامية الواقعة بينهما ، وبعث إلى السلطان قطز سفارة ، تحمل الوعيد والتهديد ، وتتطلب الطاعة المطلقة . وأجاب قطز ، الخوارزمي الأصل ، لإجابة غير منتظرة ، إذ قتل السفراء المغول ، انتقاما يأنسا لما أحدثه جنكيز خان بالدولة الخوارزمية .

غير أن هولاكو لم يستطع أن يظل بالشام لتمام ما عزم عليه ، إذ توفي أخوه الخاقان مانجو خان وتطلب ذلك رحيله من الشام للاشتراك في إقامة الخاقان الجديد . وتولى أبنا قيادة الجيوش المغولية المختلفة ببلاد الشام . أما السلطان قطز فلم يهمل استعداداته الحربية ، بل أرسل طلائعه من القاهرة بقيادة الأمير بيبرس البندقداري على يزحف أن هو بالجيش الرئيسي ، واستطاع بيبرس أن يصد طلائع مغولية قرب غزة ، مما يدل على أن الخطر المغولي أصبح قريبا جدا من مصر . ثم لحق قطز بالطلائع المملوكية ، وأخذ في مفاوضة الصليبيين

ليسمحوا له باختراق أراضيهم الساحلية ، حتى يستطيع بذلك أن يثبت المغول من ناحية غير متوقعة ، ونجحت المفاوضات برغم تفضيل بعض الصليبيين محالفة المغول على صداقة الممالك .

وبذا استطاع قطز أن يصل إلى مدينة بيسان في سهولة وسرعة ، وأن يأخذ المغول عند عين جالوت على حين غرة سنة ١٢٦٠ م .

وانتصر قطز انتصاراً كبيراً على أبداً بعد أن كادت الكثرة المغولية تغلب حملة الممالك . وفي أثناء هذه الواقعة الدامية سقط أبنا قتيلًا ، وتقهقر المغول إلى دمشق وحلب ، فتمتصبتهم الفرق المملوكية حتى أخرجتهم من الأراضي الشامية .

وانتصار الممالك على المغول في عين جالوت وقعة فاصلة في التاريخ كله ، سواء من ناحية تاريخ مصر في العصور الوسطى أو تاريخ العصور الوسطى الأوربية . إذ جاء الانتصار بعد أن عجزت الدولة الخوارزمية والدولة العباسية عن مقاومة المغول أو مدافعتهم ، وبعد أن انهارت القوى المسيحية أمام الزحف المغولي على أجزاء من روسيا وبولندا والمجر الحالية .

ثم أن وقعة عين جالوت أول صدمة في الشرق لجيوش المنغول وخاناتهم الذين ظن المعاصرون أنهم قوم لا يقبلون .

فجاءت هذه الصدمة بمنزلة المعجزة الدالة على أن في الإمكان إنزال الهزيمة بالمنغول . وما جعل وقعة عين جالوت من الوقائع الحاسمة في التاريخ الأوربي أن خطر المنغول لم يكن مجرد خطر على الشرق فحسب وإنما هدد المنغول أوروبا ، واستولت .

جيوشهم على (كييف) وغيرها من البلاد الأوربية . وبما لاشك فيه أن المنول لو تقدموا في أوروبا ، واستقروا فيها بمدنيتهم السهوية القلقة لكان تأثيرهم سميئاً بوجه عام :

ولذا حلت وقعة عين جالوت العقدة التي سادت الناس جميعاً عن خطورة المنول ، وفتحت عيونهم في كل مكان عن امكان هزيمة الجيوش المنولية مهما كانت أعدادها . وكسبت سلطنة المماليك مركز الصدارة بين سلاطين المسلمين ، كما استقامت لمصر زعامة جديدة في العالم الإسلامي .

خامساً - الغزو العثماني للبلاد

الترك ومواطنهم الأول :

يرجع اتصال الأتراك بالدولة العربية إلى أيام الخلافة الأموية ، حين دخل القائد الأموي قتيبة بن مسلم بلاد ماوراء نهر جيحون سنة ٥٠٧ م .

وفي تلك البلاد قامت منذ القرن السادس الميلادي دويلات قبلية ، أسسها الأتراك ، الذين هاجروا من مواطنهم الأصلية بأواسط آسيا .

وأخذ الإسلام ينتشر في بطن بين الأتراك في بلاد ماوراء النهر ، ويحل تدريجياً محل ديانتهم الشامانية الوثنية المستندة إلى مظاهر الطبيعة وعبادة الأصنام .

هجرة الأتراك إلى بلاد الدولة الإسلامية

ولما صار المعتصم العباسي خليفة سنة ٣١٨ هـ — ٨٣٣ م ، بدأ يحجبه الأتراك في كثرة من بلادهم الأصلية إلى العراق ، لأن أم هذا الخليفة تركية . ومال الخليفة المعتصم إلى الأتراك ، وعهد إلى تكوين حرسه الخاص منهم ، لإعجابه بحال منظرم وشجاعتهم ، ودأب على شراء المماليك الأتراك من سمرقند وفرخانه وجلبهم إلى بغداد . وفي العاصمة تلقن أولئك المماليك الأتراك اللغة العربية وآدابها وكان الواحد منهم إذا أتم تعليمه الديني دخل في حرس الخليفة الخاص ، ثم صار هذا الحرس التركي منبعا للاضطراب في بغداد ، وساءت علاقته بالبغداديين من

المغرب والفرس ، فاضطر الخليفة إلى الانتقال بحرسه وبحكومته كذلك إلى سامرا .

وأدى هذا التطور في أحوال الأتراك في أيام الخلافة العباسية إلى انتشار الإسلام بينهم في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ، إذ اعتنق الدين الإسلامي شيخ القبائل التركية ، وقبعض سائر أفراد القبائل بأعدادهم الكبيرة وحمل خانات القبائل وشيوخها تعاليم دينهم الجديد إلى مضارب الأتراك الوثنيين الذين لم يصلهم الإسلام . ففي سنة ٣٤٩ هـ — ٩٦٠ م أسلم كثير من شيوخ القبائل التركية على يد والي كشنر ، وبلغ عدد الأتراك الذين أسلموا في تلك السنة نحو مائتي ألف خيمة ، أي مائتي ألف أسرة . ثم صار الأتراك قوة هائلة في بغداد ، ففدت الخلافة العباسية ولولاياتها في أيديهم ، حتى حل محلهم البويهيون . ثم عادوا إلى قوتهم الأولى ، حين نجح السلاجقة الأتراك في الاستيلاء على بغداد سنة ١٠٥٥ م بموافقة الخليفة القائم بأمر الله العباسي .

واجتذب السلاجقة كثيراً من القبائل التركية من بنلاد ماوراء النهر نحو العراق وغيره من البلاد الإسلامية غرب آسيا .

تأسيس الإمارة العثمانية

استقرار الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى :

وفي أثناء الحروب التي وقعت بين السلاجقة والبيزنطيين في آسيا الصغرى ،
[(بلاد الروم) قامت مجموعات قبلية تركية مختلفة بغزوات مستقلة خدمة للدين ،
وطلباً للاستقرار في جزء من أجزاء الدولة البيزنطية .

ثم استقلت دولة السلاجقة الروم عن الدولة السلجوقية الكبرى واستحالت
أجزاء ، واستقر بجزء منها أرطغرل وهو أبو عثمان مؤسس الإمارة العثمانية .

الإمارة العثمانية :

وخلف أرطغرل سنة ١٢٨٨ م ابنه عثمان ، الذي بلغ من العمر وقت توليته
أربعة وعشرين عاماً ، وهو الذي انتسبت إليه الدولة العثمانية ، وهو كذلك
صاحب الفضل في توسيع مساحتها حتى شملت الأقاليم المعروف باسم فريجييا في
التاريخ القديم .

واستهل عثمان حركاته التوسيعية بالإغارة على مقاطعة بيثينيا البيزنطية ، إذ
أغرتة أطرافها الخالية من وسائل الدفاع بالتوغل في أراضيها حتى استولى على
جزء كبير منها . وتطلع عثمان بعد ذلك إلى الاستيلاء على مدن البيزنطيين الهامة
بآسيا الصغرى .

ثم توفي عثمان سنة ١٣٢٦ م في الوقت الذي بلغت فيه جيوش ابنه أورخان

مدينة بروصة . وسقطت هذه المدينة في أيدي أورخان ، ودفن بها عثمان وأصبحت بروصة العاصمة الجديدة للمملكة التي آلت إلى أورخان .

وقام السلاطين العثمانيون من أورخان فصاعداً بتوسيع الممتلكات العثمانية في آسيا الصغرى والبلقان حتى استولوا على (أدرنة) ثم استولوا على القسطنطينية وجعلوها عاصمتهم سنة ١٤٥٣ ميلادية ، وذلك على يد السلطان محمد الفاتح .

٢ - امتداد الدولة العثمانية الى البلاد العربية

تمهيد :

وفيما تمتد الفتوحات العثمانية في أوروبا من إقليم إلى آخر ، من البلقان إلى أوروبا الوسطى إلى نهر دانوب ، إذ اتجهت أبصار العثمانيين كذلك نحو البلاد الإسلامية المناخمة لهم في آسيا الصغرى ، أخذوا يحملون بالسيادة العليا في العالم الإسلامي .

وانتشرت في الدولة العثمانية منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي حماسة دينية توجّهت أولاً لحرب دوله الصفويين إيران . واشتد العداء في ذلك الوقت بين الشاه اسماعيل الصفوي والدولة العثمانية ، بعد وفاة السلطان محمد الثاني الفاتح .

ذلك أن الشاه اسماعيل انتهز فرصة النزاع الذي نشب حول السلطنة بين أبناء البيت العثماني ، وحرص الشيعة بآسيا الصغرى على الثورة على العثمانيين السنيين ، وأغرى أمراء الأطراف المجاورين لدولته بالخروج على السلطنة العثمانية .

واحتضن الشاه اسماعيل أبناء البيت العثماني الذين اضطروا إلى الفرار من آسيا الصغرى عندما اعتلى السلطان سليم الأول عرش الدولة العثمانية (١٥١٢ م) ولذا بدأ السلطان سليم سلطنته باخماد ثورة الشيعة في آسيا الصغرى ، وأنزل باتباع هذا المذهب من رعاياه الاضطهاد فهجم الشاه اسماعيل على آسيا الصغرى للدفاع عن الشيعة .

وأصبح العداء سافراً بين الدولتين العثمانية والصفوية . عندئذ أعد السلطان
حليم جيشاً كبيراً سنة ١٥١٤ م — ٥٩٢٠ . للقضاء على الشيعة ودولتهم في إيران ،
وقاد هذا الجيش بنفسه . فاستولى على ديار بكر وكردستان ، ثم توغل شرقاً في
إيران حتى التقى بجيش الشاه اسماعيل أخيراً عند تشالديران بالقرب من تبريز .
في ٢٣ أغسطس من تلك السنة ، ودازت رحى معركة انتهت بهزيمة الشاه اسماعيل
وعاد السلطان سليم إلى بلاده ؛ بعد أن أدخل ديار بكر وكردستان في أملاك
دولته .

غزو الشام ومصر

وقعة مرج دابق بالشام :

أدى استيلاء السلطان سليم الأول على أجزاء من إيران إلى امتداد أملاك الدولة العثمانية إلى منطقة الأطراف الزاوية للدولة المملوكية المصرية ، وهي المنطقة الممتدة من جبال طوروس في الشمال الغربي من الشام إلى مدينة ملطية بآسيا الصغرى . وخصمت هذه المنطقة للأمير علاء الدولة دنغافر المشعول بحماية السلطة المملوكية ، ولذا وقف من الجيش العثماني المتوجه لحرب الصنويين موقف الحياد المسلح . فاتهمه السلطان سليم الأول بالمداء للعثمانيين وقتله واستولى على بلاده سنة ١٥١٠ م .

وبذلك أضاعى العثمانيون على مقربة من الأراضي المملوكية من ناحية الشام فضلاً عن استيلائهم على بلاد الأطراف التي تدين بشيء من التبعية لسلطين المماليك .

وأحس السلطان الغورى في القاهرة بالخطر المهدد لدولة المماليك بعد هذه الاعتمادات ، فعمد إلى عقد حلف مع الشاه إسماعيل الصنوى في إيران لوقف التقدم العثماني . وازداد البغض بين الغورى وسليم الأول ، عندما فر أحد أولاد الأمير أحمد أخى السلطان سليم إلى حلب ، فراراً من بطش عمه . ومن ثم أخذ أحمد المداء يستحكم بين السلطانين ، وأخذ كل منهم يتربص بالآخر . الدوائر . فقتل صورة الغورى بمقصد على سليم استخفافه بحماية المماليك على إمارة دنغافر

وضمها إلى أملاكه دون مجاملة ، وسليم الأول يسمى الظن بالمليك لتحالفهم مع الشاه اسماعيل ، وإيوانهم أميراً عثمانياً يهدد العرش العثماني



(شكل ٥٠) السلطان قصوة النورى

وفى أوائل سنة ١٥١٦ م جاءت الأخبار إلى القاهرة باستعداد العثمانيين في القسطنطينية (استانبول) للحرب . وأدرك النورى أن الدولة المملوكية هي المقصودة بهذا الإستعداد ، وأعد جيوشه وخرج بها إلى حلب بالشام في يوليو سنة ١٥١٦ م . ثم بعث رسولا إلى سليم الأول يؤكد رغبته في الصلح وعدم الحرب ، فرفض سليم الحديث في الصلح وقال للرسول : قل لأستاذك فليفتنا على مرج دابق » ، أى داخل الأراضى الشامية المملوكية . وهى عبارة تدل — إن صحت — على عزم السلطان سليم على تسوية حساب قديم مع السلطنة المملوكية التى هزمت جيوش العثمانيين داخل الأراضى العثمانية زمن السلطان قايتباى .

وسار الغورى من حلب شمالا إلى عینتاب ، وشهد قوات العثمانيين تقترب من الأراضى المملوكية ، والتقى الجيشان فى معركة حامية عنـدمرج دابق . (٢٤ أغسطس سنة ٥٦ م) . وعند أول اصطدام بين الفريقين فر الأمير خايز بك المملوكى نائب حلب ، وكان يتولى الجناح الأيسر فى جيش الغورى وانضم إلى العثمانيين ، واستحق بذلك لقب الخائن . ثم تلا ذلك سقوط السلطان الغورى عن ظهر جواده ، وموته لساعته .

وأُسفرت وقعة مرج دابق أخيراً عن فوز ساحق للعثمانيين بفضل أسلحتهم من المدافع والبنادق ، وتبين للمالك أن تمسكهم بالشجاعة والمهارة فى الرى بالقوس والنشاب والمزارق لا يجدى شيئاً أمام أسلحة الترك الحديثة . ففرت الجنود المملوكية من الميدان ، ودخل سليم الأول مدينة حلب ، وقول بالترحاب من أهلها . وفى شهر أكتوبر من نفس السنة زحف سليم على دمشق واستولى عليها ، وبذا أخضع إقليم الشام لسيطرة العثمانيين .

الاستيلاء على مصر

هزت أخبار انتصارات سليم الأول القاهرة ، حيث أقام طومنبای نائباً عن السلطان قنصوه الغورى . ورأى طومنبای أن يسرع بالزحف لمقاتلة العثمانيين . يحبب الشام ، قبل أن يصلوا إلى الأطراف المصرية ، فأرسل حملة على رأسها الأمير جان بودى الغزالى فى ديسمبر سنة ٥٦ م للوقوف فى وجه العثمانيين شمال غزة ، وهو أحد الأمراء الذين فروا من مرج دابق .

وخان هذا الأمير ، على نحو ما فعل خايز بك ، فعرض جنده للهزيمة دون أنه

يقاتل العثمانيين قتالا جديا ، وبذا وصلت جنود العُزَازين إلى غزوة في طريقها إلى مصر .

وأعد طومنباي جيشه على عجل ، وخرج إلى الريدانية وهي الأطراف الممتدة من العباسية إلى مصر الجديدة الحالية ، وعزم على السير من الريدانية إلى الصالحية بمديرية الشرقية الحالية ليلتقي بالعثمانيين بعيداً عن القاهرة . غير أن أمراء جيشه أشاروا عليه بالوقوف عند الريدانية ، والترصد هناك للعثمانيين ، وغلبوه على أمره .

وفي ١٦ يناير سنة ١٥١٧ م جاء الخبر إلى الريدانية بأن العثمانيين وصلوا إلى العريش ، واستولوا عليها ، وهي أول البلاد المصرية . وتتابعت الأنباء بزحفهم دون مقاومة حتى وصلوا الصالحية .

عند ذلك قرر طومنباي السير إلى الصالحية أملاً في مفاجأة العثمانيين قبل أن يذهب عنهم تعب الزحف عبر الصحراء ، لكن أمراء المماليك تغلبوا على طومنباي مرة ثانية ، وآثروا البقاء في الريدانية .

وفي ٢٢ يناير سنة ١٥١٧ م نشبت المركة بين طومنباي والسلطان سليم وحى القتال حتى ثار الغبار وحميت الأبصار . غير أن المعركة انتهت باندحار المماليك ، وفر طومنباي بعد أن بقى في ميدان القتال حتى النهاية .

ولم يكن ثمة مناص من هزيمة المماليك عند الريدانية بسبب الخيانة ؛ وإفشاء الخطة المملوكية إلى العثمانيين .

وفى ٢٥ يناير نقل سليم معسكره من شمال الريدانية إلى جهة بولاق ، وجعل
محور قيادته الموضوع الذى تقوم عليه المطبعة الأميرية فى الوقت الحاضر ثم دخل
سليم القاهرة فى اليوم التالى من باب النصر .

غير أن طوم نهای بغت المعسكر العثماني ذات ليلة مظلمة ، تمهيدا لمعركة أعد
لها ما استطاع أن يجند من بقايا المقاومة المملوكية . اسكن سليمان أفسد عليه خطته ، وأزل
فيه هزيمة فز بعدها طومنبای إلى الصعيد ، ثم اختفى عند أحمد شيوخ البدو
بمديرية البحيرة الحالية ، وخاف هذا الشيخ مغبة إخفاء طومنبای وسلمه
للعثمانيين .

وفى ٢٣ أبريل سنة ١٥١٧ م أغلدم العثمانيون طومنبای ، وعلمت جثته على
طلب زويلة .

وعدت مصر بعد الشام ولاية عثمانية ، وانتقل بذلك أشرف المماليك على
الحرمين الشريفين فى مكة والمدينة إلى السلطان العثماني ، وأصبح الخطباء فى
« المساجد يدعون السلطان سليم باعتباره « ملك البرين » ، وحقاقان البحرين ، وقاهر
الجليشين ، وملك العراقيين ، وخادم الحرمين » وللمؤرخ المعاصر ن أيلس الذى شهد
هذه الحوادث عبارة تبين مدى الانقلاب الذى أصاب مصر ، وأنها صارت
ولاية تابعة ، بعد أن كان سلطانها على قوله « أعظم السلاطين فى سائر البلاد
مقاطبة ، لأنه خادم الحرمين الشريفين وحامى ملك مصر الذى افتخر به فرعون »

بعض نتائج الغزو العثماني على مصر

انتقال الخلافة إلى القسطنطينية :

أدى سقوط مصر في أيدي السلطان سليم إلى انتقال الخلافة العباسية من القاهرة إلى القسطنطينية ، عاصمة الدولة العثمانية . ذلك أن آخر الخلفاء العباسيين في القاهرة ، وهو المتوكل ، انضم إلى جانب السلطان سليم عقب انتصاره في وقعة مرج دابق ، وموت السلطان المملوكي قنصوة النوري .

ورحب السلطان سليم أول الأمر بالخليفة ، واضطجبه معه في هجومه على مصر ، ليستقيدهم مكانته في اكتساب المصريين . على أن الغرور داخل الخليفة ، واستعمل السلاطات التي نالها من السلطان العثماني أسوأ استعمال ، فأرسله السلطان سليم منفياً إلى القسطنطينية في يونيو ١٥١٧ م .

والثبات أن الخليفة العباسي نزل عن منصبه للسلطان سليم ، وأعطاه شارات الخلافة وهي البردة الثبوية التي لبسها الخلفاء العباسيون في بغداد ، وبضع شرايات من لحية النبي ، وسيف الخليفة عمر بن الخطاب .

سيطرة العثمانيين على الحجاز واليمن :

ومن النتائج الهامة التي ترتبت على فتح مصر أيضاً اقتران اسم السلطان العثماني بلقب

« خادِم الحرمين » ، وهو اللقب الذى حمله من قبل سلاطين المماليك فى مصر .
وأقر سلاطين الدولة العثمانية بهذا اللقب الجديد ، واعتبروه متمما للخلافة
وأركانها .

ومن ثم اهتم العثمانيون بالحجاز لأنه موطن الأماكن المقدسة فى مكة والمدينة
وعمدوا إلى بسط سلاطنتهم عليه .

ومهدت انتصارات العثمانيين السبيل لتحقيق أمنيتهم فى الاستيلاء على
الحجاز . إذ أرسل شريف مكة إلى السلطان سليم عقب انتصاره فى مصر يعلن
ولاءه له ، وسأله مفتاح الحرم المقدس .

وصار الحجاز كذلك ولاية تابعة للسلطان العثمانى . على أن الشريف أمير
مكة ظل محتفظا بمكانته الدينية ، وتمتع بحق تكوين قوات محلية من البدو
تخضع لأمره .

وتابع العثمانيون بسط سيادتهم على سائر شبه جزيرة العرب ، إذ خشوا
ماتعرضت له السواحل العربية من غارات البرتغاليين الأوروبيين بعد أن هددت
السفن البرتغالية بلاد اليمن وسواحل البحرين ، وبعث مشايخ العرب برسلكهم
إلى القسطنطينية يطلبون النجدة لوقف هذه الاغارات البحرية .

وبعث السلطان سليمان سنة ١٥٣٨ م حملة بحرية ، خرجت من موانئ مصر
فى البحر الأحمر ، واستولى العثمانيون على عدن ومسقط ، وحاصروا كثيراً من

الجزر والموانئ التي احتلها البرتغاليون بسواحل بلاد العرب .
على أن مجهودات العثمانيين عجزت عن صد البرتغاليين تماما ،
ولقي أسطولهم هزيمة بحرية سنة ١٥٣٨ م .
وبذا قصر العثمانيون جهودهم على إتمام الاستيلاء على اليمن ، التي
أصبحت ولاية عثمانية .

سيادة العثمانيين على بلاد المغرب

أسرة برباروسا :

وبعد أن تم للسلطان سليم غزو مصر اعتد نفوذ العثمانيين إلى تونس والجزائر بفضل أخوين من أسرة يونانية اشتهرت بالقرصنة في البحر المتوسط . وامتد نشاط هذين الأخوين إلى تونس والجزائر لأن سلطان تونس محمد السادس الحفصي استدعى أحدهما واسمه برباروسا ، وعهد إليه بحكم جزيرة جربة ليجعل منها قاعدة بحرية تمنع غارات السفن الأسبانية على السواحل التونسية ، بعد أن تكررت هذه الغارات في جرباء متزايدة .

واستنجدت بلاد الجزائر ببرباروسا كذلك ، ليدفع عنها أذى الأسبانيين الذين استولوا على إحدى الجزر الجبلية الواقعة أمام مدينة الجزائر نفسها دون أن تتحرك الدولة المراكشية لنجدها . فاستطاع برباروسا أن يمنع غارات الأسبانيين على الشواطئ الجزائرية وسط نفوذه على بلاد الجزائر .

دخول أسرة برباروسا في خدمة الملك العثماني :

وفي سنة ١٥١٨ م ، عين برباروسا الأول أخاه خير الدين على الجزائر ، ثم خرج هولييد نفوذه على منطقة تلسان ، التي عمل الأسبانيون على احتلالها ، ولكنه قتل في إحدى المعارك ، فتولى خير الدين البلاد التي خضعت لأخيه ، وعمل على إتمام رسالته في بلاد المغرب . غير أن نواب الدولة المراكشية ببلاد الجزائر ثاروا عليه ، وهددوه من كل ناحية ، فاستنجد بالسلطان سليم الذي انتهى وقتذاك من فتح مصر .

واستجاب السلطان سليم لهذا النداء ، وأدخل خير الدين في خدمته ، ومنحه لقب بكار بك « أى أمير الأمراء » ثم أمدّه بألفى جندى تركى مع مدفيعيهم وأربعة آلاف من الجند المتطوعة .

وفى سنة ١٥١٩ م وطد خير الدين سلطانه فى الجزائر ، وطرد الأسبانيىن من معاقلم القرية من هذه البلاد . وفى سنة ١٥٣٤م احتل تونس نفسها كذلك أدخل بلاد المغرب فى تبعية الدولة العثمانية .

الإستيلاء على العراق

وفي الوقت الذي عاد فيه السلطان سليم إلى بلاده بعد إتمام فتح مصر وإدخال بلاد المغرب في نفوذه ، عمد الشاه اسماعيل الصفوي إلى الهجوم على العراق متحدياً بذلك امتداد سلطان العثمانيين إلى الأطراف العراقية من ناحية الشام فاستولى اسماعيل على بغداد ، وزار مشهد الحسين في كربلاء .

على أن العثمانيين خشوا نفوذ الإيرانيين الشيعيين في العراق ، وأغضبهم الاضطهاد الذي نزل بأهل السنة من سكان بغداد . ومن ثم أخذ السلطان سليمان العثماني (١٥٢٠ م — ١٥٦٦ م) يعد العدة للقضاء على نفوذ الصفويين الشيعة ، ويزيل خطرهم نهائياً من العراق ويؤمن أطراف دولته هناك .

وجمع السلطان سليمان قواته في شمال إيران وأعدّها للزحف على العراق . ولقي السلطان سليمان متاعب جمة في زحفه بسبب شتاء نوفمبر القارس ، ونال التعب والإرهاك من جنده وبعد مشقة استطاع السلطان سليمان أن يدخل سهل العراق ومعه فرق المدفعية الثمانية ذات الشهرة الفاتكة في القرن السادس عشر الميلادي .

ودخل سليمان بغداد دون أن يلقي عليها حصاراً أو يلقي مقاومة من أهلها . واتبع السلطان سليمان سياسة حكيمة ليعيد الهدوء والطمأنينة إلى بغداد . فشجع كبار رجال المدينة على الاجتماع به ، وزار أماكن الشيعة المقدسة في حي الكاظمية ومسجد الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وأعاد بناء مسجد الإمام أبي حنيفة (شكل ٥١) .



(شكل ٥١) منظر عام لجامع الامام الأعظم أبي حنيفة

ثم عاد السلطان سليمان إلى القسطنطينية بعد أن ترك في بغداد حكومة عثمانية ،
وغدا العراق ولاية عثمانية خاضعة للسلطة المركزية في القسطنطينية .

(انظر خريطة رقم ٢٩)



(خريطة رقم ٢٩)
الامبراطورية العثمانية في أقصى اتساعها

الحكم العثماني في البلاد العربية

قسم العثمانيون العالم العربي بعد استيلائهم عليه إلى أقسام إدارية لتسهيل حكمها والاشرف على إدارتها ، واتخذوا من التقسيمات الجغرافية القديمة قاعدة لتنظيماتهم ، فجعلوا الشام ولاية ، كما جعلوا مصر ولاية أخرى ، وكذلك العراق وبلاد الحبشة واليمن ، والمغرب الأقصى وهكذا .

وأقامت السلطة العثمانية لإدارة هذه الولايات هيئات معينة ، ولكل منها اختصاصاتها وسلطاتها . وغدت الإدارة المحلية على النحو الآتي :

الباشا :

وهو نائب السلطان ، ورأس الإدارة العثمانية المحلية ، ووظيفته تطبيق قواعد الحكم العثماني ، فيتلقى أوامر السلطان ، ويرسل إلى الخزانة المال السنوي المقرض على الولاية ، دون تدخل من الحكومة المركزية في طرق جبايتها ، ويتولى الباشا كذلك رئاسة ديوان الولاية ، الذي يساعده في الحكم . وهو يعين السناجق ويعزلهم بعد أخذ رأى الديوان وموافقة السلطان .

ويساعد الباشا وكيل يعرف باسم « السكتخدا » ، يتغير مع تغير الباشا ومهمة السكتخدا التوقيع نيابة عن الباشا أثناء غيابه ، وتصريف بعض شئون الولاية . وتراوحت مدة حكم الباشا بين سنة وثلاث سنوات . ورمى السلطان إلى عدم إطالة بقاء لولاء ، للقضاء على الحركات الانفصالية ، التي يمتثل أن تبيش ببفوس الولاة ، وللميل على الاستقلال بالبلاد التي يتولون إدارتها .

ديوان الباشا :

وحكم الباشا في ولايته عن طريق مجلس يعرف بالديوان ، ويضم هذا الديوان كبار موظفي الولاية من مدنيون وعسكريين وكذلك القاضى والسناجق ، وهم حكام الأقاليم . ويدعو الباشا هذا الديوان إلى الاجتماع أربع مرات في الأسبوع غالباً ، ومهمته النظر في الشؤون المالية للولاية ، مثل فرض الضرائب ، وبحث الشكاوى القضائية أو الإدارية ، ولم يستطع الباشا تنفيذ أى عمل من الأعمال الهامة دون استشارة الديوان والحصول على موافقته .

السَّناجِقُ والكشاف :

وتولى أقسام الولاية — أى السنجقيات — حكام برتبة بك أو ميرلواء . وجاء بعض هؤلاء الحكام من أهل الولاية ، وذلك لتسهيل الإدارة ومراقبة الباشا أيضاً حتى لا يستقل بشئون البلاد . وساعد السناجق في أعمالهم طبقة الكشاف ، ومهمتهم إدارة المقاطعات في غياب السناجق ، والحفاظة على الأمن فيها وجمع الأموال الأميرية .

الحامية العثمانية :

واستقرت في كل ولاية حامية من الجيش العثمانى ، مهمتها مساعدة الباشا والسناجق في توطيد الحكم العثمانى . وأصبح قادة الحاميات العثمانية في مساعدة الباشا في تنفيذ الأوامر الصادرة إليه من القسطنطينية .

وفي جمع الأموال الأميرية . واشتملت الحامية غالباً على فرق اسمها

الأوجاقات ، لكل منها اختصاصها الحربى فى الدفاع عن البلاد ، والمساعدة فى
تصريف الشئون المدنية كذلك .

ديوان الدفتردارى الولايات العثمانية :

وتولى الدفتردار الادارة المالية فى الولاية ، وتمتع باختصاصات واسعة ،
منها جمع المال المطلوب من الولاية ، وإرساله إلى القسطنطينية ، ومراقبة
الاقطاعات التى تمنح للجند ، ومحاسبة الباشا آخر مدة ولايته .

القضاء :

ويتولى قاضى العسكر فى الولاية تنفيذ القانون ، ومراقبة العمال كذلك .
ولكن سلطة قاضى العسكر لم تلبث أن تنازلت المسائل الجنائية والمدنية
لأهالى الولاية أنفسهم ، فأصبح قاضى العسكر يعين القضاء فى سائر الولاية ،
وينظر فى المسائل التى تستعصى عليهم . واشترك قاضى العسكر كذلك فى
حضور جلسات ديوان الباشا . ومراقبة العمال فى الولاية ومدى التزامهم
لأحكام الشريعة فى أعمالهم . وانطبقت هذه النظام عموماً على مصر وغيرها
من الولايات .

أثر الحكم العثمانى فى البلاد العربية :

أدى التنظيم العثمانى الحلى إلى كثير من التنافس الداخلى بين السلاطات
الإدارية والعسكرية العثمانية فى مختلف البلاد العربية . ووضح ذلك التنافس

الداخلية في مؤامرات صرفت الحاكمين الإداريين والعسكريين عن شئون الحكم
والمصالح العامة وحماية البلاد من الأخطار الأجنبية .

وشعر أهل البلاد العربية بما نتج عن ذلك الإنحراف في شئون الحكم من
تدهور وجود في جميع نواحي الحكومة ، وتردت بينهم روح التذمر من الحكم
العثماني والسخط على رجاله ، وكثيراً ما تمتموا زواله بصورة أو بأخرى في
التقريب ، وهو ما سوف يكون موضع الدراسة في العام القادم .

أسئلة وتدريبات على الباب الثالث

١ - تتبع بإيجاز مراحل نمو الدولة العربية الإسلامية حتى بلغت أقصى إتساعها ، موضحاً بصفة خاصة موقف شعوب البلاد المفتوحة من الجيوش العربية .

٢ - اشرح العوامل الأساسية التي أدت إلى الحركات الانفصالية في الدولة العربية الإسلامية ووضح ماتقول بالأمثلة التاريخية .

٣ - ماهو الدور الذي قامت به الدول المستقلة في مصر والشام من أجل الدفاع عن الشرق العربي ضد هجوم الروم (البيزنطيين) .

٤ - أسهمت المقاومة الشعبية في الوطن العربي بدور عظيم في إلحاق هزيمة نكراء بالجيوش الصليبية والقضاء على أطماعها الاستعمارية في الشرق العربي « اشرح هذه العبارة موضحاً ماتقول بالأمثلة التاريخية من جهاد العرب في مصر والشام .

٥ - يعتبر انتصار العرب على المغول في وقعة عين جالوت مثلاً رائعاً لما يمكن أن يؤديه التضامن العربي من خدمات في سبيل الدفاع عن العربي الكبير « أكتب في هذا الموضوع كتابة تاريخية » .

٦ - ناقش نظام الحكم الذي وضعه العثمانيون للبلاد العربية ووضح الآثار التي تركها ذلك الحكم في أحوال تلك البلاد السياسية والاجتماعية

البَابُ الرَّابِعُ
الحضارة العربية الإسلامية

الفصل الأول

أصول هذه الحضارة

تمهيد :

أقام العرب المسلمون حضارة جديدة هي أعظم حضارات العالم في العصور الوسطى ، وهذه الحضارة العربية الاسلامية هي التي جعلت العصور الوسطى لا عصور مظلمة كما سماها بعض المؤرخين الأوربيين ، بل عصورا مضيئة بالقياس إلى ما سبقها في غرب أوربا منذ أواخر أيام الدولة الرومانية القديمة . ومن الواضح أن المجال الذي نهضت فيه الحضارة العربية الاسلامية هو موطن معظم الحضارات الكبرى في المشرق القديم إلى مناطق من حدوث تجاوب بين القديم والجديد في هذه الحال . ومع أن العرب المسلمين أخذوا من الحضارات التي سبقتهم أو عاصرتهم شيئا غير قليل ، فانهم تناولوا ما أخذوه من هذه الحضارات بالتنوير والتبديل والحذف والاضافة . ونَجَمَ عن هذا كله حضارة جديدة ، لها طابعها الخاص ، وهو طابع الاسلام والعروبة واللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم .

ويمكن ارجاع الحضارة العربية إلى أصول ومؤثرات هي (١) الأصل الاسلامي . (٢) الأصل العربي . (٣) المؤثرات الفارسية . (٤) المؤثرات اليونانية الرومانية .

(١) الدين الاسلامي :

الاسلام عقائدُ وأعمالُ . فالعقائدُ يعظمُ الايمانُ بالله واحد هو رب العالمين ، والايمانُ بالبعث بعد الموت ، وبالنواب والعتاب في الدار الآخرة . وأما الأعمالُ فمنها أعمالُ تنزلُ منزلةُ العقائد ، وهي الصلاة والزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلاً ، ومنها أعمالُ تنصلُ بالأخلاق وهي التحلى بمكارم الأخلاق وآداب الآيافة ، والوفاء بالعهد ، والصبر في الشدائد ، والعدل مع من أحببت أو كرهت ، وعفة النفس ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ومنها أعمالُ هي عبارة عن تطبيق ما جاء به الشرع خاصاً بالأسرة ، أو المعاملات التي تجري بين الناس ، والجنايات التي تقع في المجتمع ، وشئون السلم والحرب وهكذا .

والاسلام أثر بالغ في الحياة العقاية للمسلمين ، وبفضله نشأت بين المسلمين من عرب وغير عرب وحدة فكرية رائعة ومن آياتها علومُ التفسير والحديث والفقه ، والتأويل والمغازي أو علم التاريخ . والاسلام يُبحث على النظر والتفكير في الكون الذي نعيش فيه ، وفي ظواهره المختلفة ، فإدى ذلك إلى الاشتغال بالعلوم الكونية على اختلافها ، وهي الجغرافيا والكيمياء والفيزياء (الطبيعة) والفلك والطب والرياضيات . فأنت ترى أن الاسلام هو ينبوعُ الأول والأعظم للنقمة الاسلامية ، وهو الذي انطعت حياة المسلمين بطابعه ، سواء في ذلك نظمهم العامة والسياسية والإدارية والمالية وأحوالهم الخاصة والعامة وكذلك فنونهم وآدابهم .

(٢) الحضارة العربية :

يأتى بعد الدين الاسلامى يديوع ثائر أقل مُنة شأنا بطبيعة الحال ، ولكنه ذو أثر كبير فى بناء الحضارة العربية الاسلامية ، ذلك هو الثقافة العربية ، اذ المعروف أن العرب هم العنصر الفعّال فى الدول الاسلامية ولا سيما فى صدر الاسلام . ول هؤلاء العرب ثقافة انفرادوا بها ، ومثال ذلك أن حرصهم على أنسابهم أدى إلى قيام علم النسب لمعرفة أنساب القبائل والأفراد ، وظهرت فى الأنساب كتب كثيرة لابن السكبي وابن حزم وغيرهما . وللعرب فى الجاهلية والاسلام شعراء هم حملة لواء الشعر العربى على العموم ، وهذا الشعر فوق كونه الفن العربى الممتاز ، هو كذلك ديوان أخبار الحرب وسجل أحداثهم وكنز لغتهم وبلاغتهم . ومن أجل ذلك جمعه أهل الأدب وشرحوه لبراغتهم الفنية من جهة ، وللإستشهاد به فى تحديد معانى الألفاظ الغامضة ، فضلا عن جلاء الحوادث التاريخية الهامة من جهة أخرى .

وللعرب حظ موفور من الأمثال والكلام الجامعة ، يردونها فى المناسبات . وعنى العلماء بجمع هذه الأمثال العربية فى كتب خاصة ، ومنها كتاب الأمثال للميدانى ، كما عنت طائفة أخرى من العلماء بأيام العرب فى الجاهلية وتاريخ ممالكهم قبل الاسلام ، وفتوحهم العظيمة بعد أن أضحوا مسلمين .

وأسهم العرب فى بناء الحضارة الاسلامية بالأدب والعادات التى اتصفوا بها ، من حيث الشجاعة والأنفة من الضيم ، وحفظ الجوار ، واحترام المرأة ، وأكرام الضيف ، والولع بالشعر وفصاحة اللسان . وشاعت هذه الآداب فى المجتمع الاسلامى ، حتى بعد ذهاب نفوذ العرب السياسى ، وغنم انتقلت

إلى أوروبا في أعقاب الحرب الصليبية ، فامتزجت بالنظام المعروف في أوروبا بالفروسية :

(٣) الحضارة الفارسية الهندية :

وهناك ينبوع ثالث استمدت منه الحضارة العربية الاسلامية ، وهو حضارة بعض الأمم القديمة المتحضرة التي دخلت في الاسلام ، ولا سيما الفرس والمنود المسلمين .

والفرسُ أمةٌ ذاتُ حضارة قديمة إزدهرت زمن الدولة الساسانية . ونبغت دولة الساسانيين في فنون السياسة والادارة والحروب ومظاهر الترف والرفاهية . وكان لها دينٌ رسمي هو الدين الزرادشتي ، ولغة ذات أدب وحكمة هي الفهلوية . فلما فتح العرب بلاد فارس وقوضوا عرش الدولة الساسانية ، دخل الفرس في الاسلام أفواجا ، وصاروا موالى للفتاحين من العرب . و بدخولهم في الاسلام طرحوا الزرادشتية والفهلوية ، وأقبلوا على الاسلام يدرسونه ، وعلى اللغة العربية يحصلونها ، ولم يمض طويلُ زمن حتى أسهموا في الحركة العلمية والتأليف في مختلف العلوم . وأفادت الحضارة الاسلامية من ذلك فوائد جمة ، فكثير من الألفاظ الفارسية التي تعبر عن مظاهر الحضارة والتي ليس لها مقابل في العربية نقلت بذاتها إلى اللغة العربية ودخلت في بنيتها . وكذلك فن الغناء ، انتقل من الفرس إلى العرب في صدر الدولة الأموية ، ونبغ كثير من موالى الفرس ، أمثال عبد الحميد الكاتب وابن المقفع في الكتابة ، وإسماعيل بن يسار وبشار وأبي نواس في الشعر : وكل هؤلاء أدخلوا على الفن العربي والشعر العربي أساليب وتعبيرات وأخيلة كثيرة .

ثم استفادت في العصر العباسي حركة تأليف الموالى في مختلف العلوم الإسلامية على الإطلاق . وانتقلت إلى الحضارة العربية الإسلامية عن طريق هذه الحركة بعض معارف الهندود وغيرهم من الشعوب الآسيوية المتحضرة .

(٤) الحضارة اليونانية الرومانية :

والمؤثر الأجنبي الثانى هو الحضارة اليونانية الرومانية . واليونان أمة عريقة في الفلسفة والعلوم والفنون والآداب ، ظهر فيها أساطين الفكر في العالم القديم ومنهم سقراط وأفلاطون وأرسطو وانتشرت ثقافتهم في الشرق على أثر فتوح الإسكندر وقيام أسرى يونانية حاكمة في الشام ومصر خاصة بوقى للقرون السابقة على محيى الإسلام نقل السريان للشام والعراق إلى لغتهم السريانية كثيراً من تأليف اليونان في الفلسفة والطب والرياضات والكيمياء والذك والجغرافية ، وعلقبوا عليها وشروحها . ثم أنشأوا المدارس لتعليم هذه العلوم في الجواضر الكبرى ومنها أنطاكية وقيصرية ونصيبين والرها ، كما قامت بالإسكندرية مدرسة لتعليم الطب اليونانى وأخرى بمنديسابور في إقليم خوزستان . وبذلك انتشرت الحضارة اليونانية في أقطار الشرقين الأدنى والأوسط . وامتزجت بتلك الحضارة مؤثرات رومانية ولاسيما في تشريع القوانين وهندسة العارق الواصلة بين مختلف الأقاليم .

وفي العصر العباسي عهد خلفاء العباسيين ولاسيما المأمون إلى طائفة من السريان أن ينقلوا المكتب اليونانية المعتمدة في العلوم المذكورة إلى اللغة البرية فنقلوا الكثير منها إلى العربية عن السريانية ، وبعضها عن اليونانية رأساً وبذلك انتقلت الثقافة اليونانية إلى المسلمين وهي أساس علوم الفلسفة والطب

والكيمياء والرياضيات والفلك والجغرافية عقدم . ومما يحسن التنبية إليه أنهم لم ينقلوا شيئاً من ملاحم الأغر يق ومسرحياتهم العظيمة ، ذلك لأن العرب اعتزوا بشعرهم واعتقدوا أنه فوق كل شعر آخر ، وربما صرفهم عن نقل هذه الآداب ما فيها من ذكر آلهة اليونان وأساطيرهم مما ينبو عنه ذوق العربي المسلم في ذلك الزمان .

الفصل الثاني

مظاهر الحضارة العربية الإسلامية

(أولاً) الأحوال السياسية

الخلافة :

الخلافة نظام إسلامي لم يوجد عند غير المسلمين . فالخليفة ينظر في مصالح الناس الدنيوية والاخرية طبقاً لأحوال الشريعة الإسلامية . وقام نظام الخلافة يوم السقيفة ، ووضع لها الفقهاء فيما بعد خمسة شروط استنبطوها من سير كبار الخلفاء وهي ، العلم والعدالة والسكافاية وسلامة الخواص والنسب القرشي .

وظلت الخلافة زمن الخلفاء الراشدين انتخابية شوروية . وغلبت البساطة على مراسم الخلافة ، فبايع أهل المقد والحل ؛ وهم إذ ذاك أهل المدينة ، كل خليفة من الخلفاء الأربعة على العمل بالكتاب الكريم والسنة النبوية خاصة . وكان الانتخاب يتم مصالحةً بالأيدى كما يفعل المتبايعان عند العرب ، ولذا يسمى هذا الانتخاب باسم البيعة وطريقة الخلفاء الراشدين تجمع بين الجمهورية والشورى والملكية . أما الجمهورية فلأن الخليفة يختار من قريش بلا حصر ولا تعيين ، وهي شوروية لأن الانتخاب يتم بالشورى ، بين أهل المقد والحل ، وهم إذ ذاك جمهور المهاجرين الأنصار ، ثم هي ملكية محدودة ، لأن الخليفة يتهيد بأحكام القرآن الكريم والسنة النبوية . ثم انقلبت الخلافة إلى ملكية مطلقة تقريباً

على يد معاوية ، ولا سيما بعد أخذ البيعة بولاية العهد لابنه يزيد ، فسُن بذلك سنة الملك الموروث .

وجرت العادة في الدولتين الأموية والعباسية على أنه متى برع الخليفة أُنقل من دار الخلافة في موكب حافل ، ثم ترد عليه وفود المهنيين من البلاد ، ثم جد في الدولة العباسية أنه متى تمت البيعة أختار الخليفة لقباً من الألقاب كالرشيد والأمين والمأمون والمعتصم بالله وهكذا :

الوزارة :

تأتى الوزارة بعد الخلافة من حيث الأهمية السياسية والإدارية في الدولة الإسلامية . والوزير وسيط بين الخليفة وبين الرعية فهو من ناحية يعين الخليفة في تصريف شؤون الدولة ومباشرة مهامها كما أنه من ناحية أخرى يطلع الخليفة على أحوال الرعية بوجه عام . واختلف اللغويون في لفظ وزير أهو عربي أصلاً أم أعجمي ؟ ومهما يكن أصله فهو مذكور في القرآن ، وعرفه المسلمون واستعملوه بمعناه أجمالاً في صدر الإسلام . قال ابن خلدون ، « فكان صلى الله عليه وسلم يشاور أصحابه ويفاضهم في مهماته العامة والخاصة ، ويخص مع ذلك أبا بكر بخصوصيات أخرى ، حتى كان العرب الذين عرفوا الدولة وأحوالها في أيام كسرى وقيصر والنجاشي يسمون أبا بكر وزيره وكذا عمر مع أبي بكر وعلى وعثمان مع عمر .

وأطارد الأمر على ذلك زمن بنى أمية مع تغيير يسير . فاختار خلفائهم مستشارين يرجعون إليهم في مهام الدولة . وفي العصر العباسي صار معظم

الوزراء من الفرس ، حتى بدأ أن الفرس حرصوا على أن تكون الوزارة لهم على حين اقتضت الخلافة على العرب . ثم أن الوزارة احتكرتها أسر معينة مددا مختلفة ، كالبرامكة وآل خاقان وآل الفرات : واختلقت أحوال الوزارة باختلاف حال الخليفة ، ففي العصر العباسي الأول ظل الوزراء منفذين لأوامر الخليفة ، واسكن حين ضعف شأن الخلفاء زاد نفوذ الوزراء وصار الخليفة يفوض إلى وزيره النظر في شئون الدولة عامة ، ومن هنا جاء تقسيم الفقهاء الوزارة إلى وزارة تنفيذ ووزارة تفويض .

ويدل تاريخ الوزراء العباسيين على أن العمل اليومي كان شاقاً مجهدا لصاحب الوزارة ، يقول الصابي عن الوزير ابن الفرات (سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢م) « كان من رسم الوزير أن ينفذوا إليه الكتاب فيوافقهم على الأعمال ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ويوصيه بما يريد وصايته به . ثم يروحون إليه بما يعطونه من أعمالهم فيوافقهم عليه ، — وإذا خف العمل نهض من مجلسه ، وانصرف الجماعة بعد قيامه . » ويذهب الوزير إلى دار الخلافة في أيام معينة من كل أسبوع للمثول بين يدي الخليفة وإطلاعه على شئون الدولة ، وتلقى الأوامر منه .

القضاء :

احتكم العرب في الجاهلية إلى رجال منهم عرفوا بإصالة الرأي وكثرة التجارب وكانوا يسمونهم الحكماء . ونشأ القضاء في الإسلام بعد أن هاجر الرسول إلى المدينة وأخذ ينظم الجماعة الإسلامية بها . فكان عليه السلام يلى القضاء في المدينة ، وأكثر أقضيته أن يسأل عن الحكم فيجيب ، فهي أشبه

بالفتاوى منها بالحكم القاضى المعروف .

ولما انتشر الاحلام في شبه جزيرة العرب في زمنه عليه السلام عهد إلى رجال من الصحابة بالقضاء في الأقاليم النائية بحسب اجتهادهم . وانبغ أبو بكر سنة الرسول ، فاستقضى عمر معه في المدينة ، وترك الفصل في الخصومات في الامصار للعمال نيابة عنه .

القضاء إلى ظهور المذاهب الأربعة

تولى القضاء مناصيهم زمن الأمويين والعباسيين من قبل الخلفاء وتارة من قبل أمراء الأمصار ، وفي كلتا الحالتين روعيت في اختيار القاضى صفات يجمعها قول عمر ابن عبد العزيز : « إذا كان في القاضى خمس خصال فقد كل : علم ما كان قبله ، وتزاهة عن الطمع ، وعلم عن الخصم واقتداء بالائمة ومشاورة أهل الرأي » وجرى القضاء على أن يعملوا بالنصوص فيما نعن عليه ، أو للرأى الذى هو أقرب إلى تلك النصوص ، فإذا لم يظهر لهم وجه الصواب في قضية استشاروا من معهم في بلدهم من المفتين ، وربما استأوا الخلفاء وأخذوا رأيهم في بعض المسائل .

وأختص القضاء في ذلك العصر بالفضل في الخصومات المدنية والأحوال الشخصية ، ثم أضيف إلى اختصاصهم هذا مع الزمن اموال المحجور عليهم ، والأوقاف وترويج اليتامى عند فقد الأولياء ، أما النظر في الجرائم وإقامة الحدود فلم تدخل في اختصاصهم .

ويظهر نوايغ الأئمة إبتداء من القرن الثانى الهجرى وبتدوين مذاهبيهم
وانتشارها أخذ القضاة يتقيدون فى قضائهم بمذهب مشهور ، فانتشر مذهب
أبى حنيفة فى العراق والمذهب الشافعى فى مصر والشام ، والمللى فى الحجاز .

النظر فى المظالم والحسبة :

وهى أمور من ملاحقات القضاء ، أما النظر فى المظالم فيشبه محكمة النقض
فى أيامنا من بعض الوجوه ، والغرض منه الاستماع إلى ظلامات الناس من القضاء
أو غيرهم . وأفراد خلفاء بنى أمية وبنى العباس يوماً خاصاً للنظر فى ظلامات
المتظالمين . وعنى الخلفاء عناية بالغة بالنظر فى مظالم الرعية وبذلوا الجهد فى رفعها
ولو كان المتظالم منهم أو من أولادهم .

وأما الحسبة فنظام أساسه الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وصاحبها
يقال له الختسب ، وعمله أن يبحث عن المنكرات ، ويؤدب على قدرها ،
ويحمل الناس على المصالح العامة فى المدن ، مثل المنع من المضايقة فى الطارق ،
ومنع الجمالين وأصحاب السفن من الاكثار فى الأحمال والحكم على أهل المباني
المتداعية للسقوط بهدمها ، والنظر فى الفس والتدليس فى المعاملات ، واختيار
الموارىن والمساكيل

الجيش

تمهيد :

استفاد العربي من بيئته صفات الشجاعة الفردية وقوة الحس ونشاط الجسم والصبر على الجوع والظلم وشدة الحر والبرد ، وكان قتال العرب في حروبهم وغزواتهم في العصور القديمة أدنى إلى السذاجة ، فيبدأون المعركة عادة بالمبارزة الفردية تكون بين بطالين من أبطال القبيلتين ثم يكون الالتحام فيكرونها على العدو ، وهذا هو الأسلوب المعروف بالسكر والفر .

على أن هذه الحال تغيرت ، إذ فرض الإسلام الجهاد على المؤمنين دفاعاً عن الدين والنفس والوطن والمال ، ووعد المجاهدين إحدى الحسنين ، أما النصر والعزة في الدنيا أو الشهادة ودخول الجنة في الآخرة . ومن ناحية أخرى حل النظام في القتال محل السذاجة الحربية القديمة ، فكان الرسول يستعرض الجيش قبل المعركة ، ويسوى الصفوف ، ويضع الخطة العامة التي يجرى عليها القتال . ثم أن أسلوب القتال تغير من السكر والفر إلى قتال الصف أو الزحف ، وهو الذي وردت فيه الآية الكريمة : « إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص »

واستعمل العرب المسلمون قتال « التعبئة » ، وذلك أن يسير الجيش للقضاء العدو منقسماً إلى قلب وميمنة وميسرة ومقدمة وسانة ، وظل نظام الجيوش على ذلك في الدولة الأموية والعباسية ، مع تعديلات في أشكال التعبئة .

السلاح

سلاح العربي في الأصل القوس والرمح والسيف ، فاقوس للرمى بالسهم . أول القتال ، فإذا تدانت الصفوف بدأ التطاعن بالرمح ، فإذا وقع الالتحام كنّ التضارب بالسيوف ، وهي أشهرها عندهم . ومن الأسلحة الموثقة عند العرب النخوة والبيضة لوقاية الرأس والعنق ، والدراج لوقاية الجذع والأطراف ، والترس لاتقاء ضربات الخيـم ، واستعمل العرب الجمل والحصان في حروبهم ، فالجمل أداة انتقامهم في الصحارى ، والحصان وسيلة السرعة في السهول حينما تكون السرعة الكبيرة مطلوبة في الحرب . وعرف العرب فيما بعد كثيرا من الأسلحة ومنها البارود ، فيؤخذ من كلام لابن خلدون ، أن عرب المغرب اخترعوا البارود ، واستخدموه في حروبهم سنة ٦٧٣ هـ (١٢٧٣م) أي قبل أن تعرف أوروبا هذا السلاح بنحو نصف قرن من الزمان .

الأسطول

لما استقر العرب في الشام ومصر وأدركوا خطر الأساطيل البيزنطية عليهم أخذوا يملكون على تكوين قوة بحرية يدفعون بها عدوان الأعداء من ناحية البحر وأول من عمل على ذلك معاوية بن أبي سفيان مدة ولايته الشام لعثمان بن عفان ، فانه استأذن الخليفة في غزو البحر فأذن له ، فأنشأ أسطولا ركبه في سنة ٢٨ هـ وافتتح به جزيرة قبرص . وسام أهل مصر والشام وبلاد المغرب في بناء السفن وتجهيزها وسمى العرب مجموعة السفن الفازية في البحر باسم « الأسطول » .

ثم أكثر العرب من انشاء دور لصناعة السفن في سواحل مصر والشام

وافريقية، ومن كلمة دار صناعة « العربية أخذت أوربا كلمة (Arsenal)
وهي تحريف للفظ العربي .

وبلغت البحرية العربية الإسلامية مبلغا عظيما من القوة في البحر المتوسط
في القرون الأربعة الهجرية الأولى . ففزت أساطيل العرب رؤوس واقريطش
(كريت) .

وكان للأسطول قائد يدبر أمر الحرب والقتال في البحر، ورئيس يدبر أمر
إجراء السفن وإرسائها، ونوادية يعملون بأمر الرئيس . فاذا اجتمعت جملة
أساطيل الحرب ولوا عليها كميها من رجال الدولة يسمونه « أمير البحر » ومن
هذا اللفظ جاء لفظ (أميرال) الأوربي .

ثانيا - الحياة الاجتماعية

عناصر المجتمع العربي الاسلامى :

تألف المجتمع فى أزهى عصور الدولة الإسلامية من عناصر أو طبقات مختلفة الأندار الاجتماعية . فالطبقة الأولى تشمل الخليفة وأهل بيته ، وكبار رجال الدولة .. وأفراد البيت الهاشمى ، ثم جم غفير من أتباع هذه الطبقة ، من الجند والحراس والأهـل دقاء والندماء والموالى والخدم .

وغالبية الخدم فى الدولة الإسلامية من الرقيق المجلوب من الشعوب غير الإسلامية ، وهم إما أسرى حرب ضرب عليهم الرق أو اشتروا بالمال زمن السلم وجاء معظم الرقيق الأبيض من بلاد اليونان والصقالبة والأرمن والبربر ، وبعض هؤلاء كانوا خصياناً يقومون بخدمة الحريم داخل قصور الخلفاء وكبار رجالة الدولة .

أما الأثالث من الخدم فكان جوارى يحسن الغناء والرقص وعلى قدر موفور من الثمافة . وغدا لبعض هؤلاء الجوارى نفوذ على موالين . واقتنيت الجارية

لجلالها أو لما تحسن من فن أو علم أو رواية ، وربما بلغ ثمن الجارية الموفورة الحظ من هذه الصفات نحو ١٠٠.٠٠٠ درهم ، أى نحو ٨٠٠٠ جنيه ذهباً .

ويلى هذه الطبقة الأولى طبقة تشبه أن تكون طبقة أرستقراطية ، وهى تتألف من العلماء والأدباء والشعراء ورجال الفن وكبار التجار وأصحاب المهن والصناعات الكبرى ، وكان لأفراد هذه الطبقة رجحان فى الميزان الاجتماعى بما أوتوا من مواهب أو من ثراء عريض .

ثم تأتى الطبقة الثالثة وهى طبقة العامة وسواد الأمة من الفلاحين سكان القرى ، والغالب على هؤلاء أول الأمر أنهم كانوا من أهل الذمة ثم شاع فيهم الإسلام .

أهل الذمة (المسيحيون واليهود) :

ويقال لهم أيضاً « أهل العهد » وهم الذين بقوا على دينهم سواء كان النصرانية أو اليهودية ، على شريطة أن يؤدوا الجزية للدولة . أما النصارى فكان أغلب أهل القرى منهم ، وكما سمح لهم بالاحتفاظ بدينهم سمح لهم كذلك بالاحتفاظ بلغتهم ، من ارامية وسريانية فى الشام والعراق ، وميرانية فى فارس وقبطية فى مصر ، ثم غلب عليهم الإسلام واللغة العربية فى القرنين الثانى والثالث الهجريين ، وكان من يعتنق منهم الإسلام يهجر الريف وينتقل إلى المدن الكبيرة

وعاش أهل الذمة فى الدولة العربية فى طمأنينة وأمان على حقوقهم وأرواحهم ودينهم ، ولم يمنع بتاتاً كونهم غير مسلمين من وصول بعضهم إلى مناصب الوزراء أو مناصب

أخرى هامة في شئون الدولة المالية يكون والسكرابية ، بل يكاد جميع الأطباء المختصين بالخلفاء العباسيين الأوائل من النصارى . وأثرى كثير من أهل الذمة ثراء كبيراً ، على أن ذلك لم يؤثر في الحرية الدينية ورعاية شئون النصارى حينما كانوا . وكان لهم رئيسهم الروحى الذى يسمونه الجائليق ، وهو تعريب كلمة لاتينية تطلق في العصر الحاضر على الكاثوليك .

أما أهل الذمة من اليهود ، فكانوا أقل عدداً وأحسن حالاً من النصارى على وجه التعميم لأنهم تعاطوا أعمال الصرافة المالية . وكان لليهود في بغداد جالية مشهورة وكثيرة العدد ، وتولى شئونهم الدينية رئيسهم الأكبر فى كثير من الحرية والاستقلال .

طوائف أخرى (الصائبة والمجوس والبوذيون)

الصائبة أول هذه الطوائف الأخرى ، وكانوا ينزلون سواد العراق ، ولهم عقيدة مختلطة من اليهودية والنصرانية ، ولا تزال بقيتهم فى العراق إلى اليوم . والطائفة الثانية المجوس ، وهم أتباع الدين الزرادشتى ولا يزالون موجودين فى الهند . والطائفة الثالثة البوذيون أتباع ، بوذا ، وكانوا فى السند والهند . وأنزلت الدولة الإسلامية هؤلاء جميعاً منزلة أهل الذمة ، من النصارى واليهود ، وتفاقت منهم الجزية وتركهم أحراراً فى ممارسة عقائدهم وشؤونهم الدينية .

لكن طائفة واحدة لم تنظر بهذه الماملة السمحة ، وهى طائفة المانوية ، أتباع مذهب مانى ، الذى ينزع بأصحابه إلى الزهد المطلق فى الحياة وإلى عدم الإنتاج المطلق . وأدلى المسلمون على أتباع هذا المذهب فى العصر العباسى خاصة اسم

الزنادقة ، وحاربوه كما حاربوه الساسانيون من قبل ، واشتد عليهم الخلفاء الهدى
يوالهادى والرشيده ، وأنشئ لذلك ديوان خاص يعرف بديوان الزنادقة للبحث
عنهم والضرب على أيديهم .

الأسرة العربية الإسلامية :

ظلت المرأة في العصر العباسي الأول تنعم بالحسرية التي نعمت بها المرأة
العربية المسلمة في العصر الأموي ، بل إنا لنسمع عن نساء من أهل الطبقة العليا
في العصر العباسي الأول المزن بقوة الشخصية وسعة النفوذ في شئون الدولة ،
أمثال الخيزران زوجة الخليفة المهدي ، والسيدة زبيدة زوجة الرشيد ، وبوران
زوجة المأمون ، بل نسمع عن نساء عربيات قدن الجيوش وباشرن القتال ،
ومنهن الفارغة أخت الوليد بن طريف الخارجي الذي خرج في زمن الرشيد ،
كما نقرأ عن نساء أخريات يقرضن الشعر ، ويتقن الغناء ، ومنهن عبيدة الطنبورية
التي اشتهرت زمن المعتصم بحالها وبراعتها في فن الغناء .

لكن هذه الحرية أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً بتكاثر الإمام والجواري ،
وانتشار التمسرى وانحطاط الآداب ، فحضر الحجاب على المرأة ولم يأت عصر
الدولة البويهية حتى أمسى الفصل تاماً بين الجنسين .

ومهما يكن من شيء فقد ظل الزواج في المجتمع الإسلامي أمراً واجباً على
الرجل ، وأحب للمسلمون كثرة النسل ، وكانوا يمتدحون الزوجة التي تقوم على
خدمة زوجها ، ورعاية أولادها ، وتدبير شئون بيتها ، فإذا بقي لها بعد ذلك شيء
قضىته في العمل بمنزلها أو منسجها .

وكانوا يعدون الرجل ظريفا مهذبا إذا كان وافر الأدب ، جهم المروءة ، قليلي الضحك والمزاح ، نظيف الثياب ، حسن الأكلة إذا أكل ، وفيما بوعده ، كقوما للسر ، متعجبيا لقرناء السوء .

(ثالثاً) الحياة الاقتصادية :

الفلاحة والزراعة :

احتوت الدولة العربية الإسلامية فيما احتوت عليه من الأراضي الشاسعة بضعة أقاليم تعد من أخصب أقاليم العالم تربة وأكثرها إنتاجا ، وهي أولا مصر وبقاع الشام التي استولى اسلمون عليها من البيزنطيين ، وثانياً العراق وخراسان وما وراء النهر وسجستان التي كانت تابعة للدولة الفارسية الساسانية قبيل ظهور الإسلام . وسامت الأحوال الاقتصادية في هذه الأقاليم جميعاً بسبب الحروب الكثيرة بين الدوائين البيزنطية والساسانية ، وما ترتب على تلك الحروب من قلة الأيدي العاملة في الزراعة ، وإهمال شئون الري ، وندرة المحاصيل ، مع ثقل الضرائب وشدة وسائل جبايتها من الناس . فلما فتح العرب هذه الأقاليم ، أخذوا في تأمين أحوالها الاقتصادية ، كي تصبح الدولة العربية الإسلامية غنية بمراقها ومنابع ثروتها .

وقاموا في كل من هذه الأقاليم بإصلاح طرق الري خاصة . مثال ذلك أن عمرو بن العاص استخدم نحو ١٠٠.٠٠٠ عامل من المصريين في إصلاح طرق الري في مصر صيفا وشتاء ، وأن العباسيين الأوائل جددوا حفر قنوات قديمة

واستحدثت قنوات جديدة بالعراق ، وذلك فيما بين الفرات ودجلة ، حتى أضحي
ما بين هذين النهرين شبكة من القنوات ، بعضها قديم مجدد ، وبعضها الآخر
جديد مستحدث ، وأطلقوا عليها كلها اسم النواظم ، لأنها نظمت توزيع مياه
بين الأراضي ، وبذلك أعاد العباسيون إلى العراق شهرته القديمة في الخصب والثمار
ولاسيما الجزء الجنوبي المعروف عندهم بالسواد .

وأنتجت مصر من الحبوب الشعير والقمح والأرز والسمسم والبدس والفول ،
والألياف القطن والسكتان ، ومن الثمار الحمضيات وقصب السكر ، ومختلف
أصناف الفاكهة والعسل والتمور وأنواع المقاتي (الخيار والقضاء) :

أما العراق فأهم حاصلاته التمر والقمح والشعير والمقاتي والفاكهة والأرز
والسكتان والورد والبنفسج .

ويقال أن البطيخ حمل من خوارزم إلى بلاط المأمون والرائق في أوعية من
الرصاص مبطنة بالثلج . فتباع الواحدة منها في بغداد بثمن يبلغ بضعة مئين من
الدراهم ، والحق أن أكثر الفاكهة والخضر التي تنمو في غرب آسيا في وقتنا هذا
كانت معروفة فيه إذ ذاك ، عدا المانجو والبطاطا والطماطم (البندورة) التي
جاءت من العالم الجديد في أمريكا أو من المستعمرات الأوروبية في آسيا ، ففي
ذلك الزمن انتقلت شجرة النارج (البرتقال) من شمال الهند إلى غرب آسيا ،
ومن ثم نقلها العرب إلى الأندلس .

زرع الفرس قصب السكر وصنعوا منه السكر ، فانتقل منها إلى مصر
وسواحل الشام ، حيث عرفه الصليبيون فيما بعد ، ونقلوه وصناعة السكر كذلك

إلى أوروبا ، وأصبح مادة لا يستغنى عنها الإنسان المتحضر في غذائه اليومي .
وعنى العرب عناية فائقة بتربية الأزهار ، فزرعوها في مزارع واسعة بقصد
تصدير أعطارها وأدهانها ومياها . وراجت من أجل ذلك في دمشق وشيراز وغيرها
صناعة استخراج الأدهان العطرية من الورد والنيلوفر وزهر البرتقال والبنفسج .
وحمل العرب المسلمون ماء الورد من إقليم جور في فارس إلى الصين شرقاً
ومراكش غرباً ، ومن ماء الورد وعطره جاء في خراج فارس كل سنة ٣٠.٠٠٠ ر.
زجاجة إلى قصر الخليفة في بغداد .

الصناعة والحرف الصناعية :

لم تكن الصناعة أقل تقدماً من الزراعة في هذه الأقاليم ، ولا سيما بعد أن
خلقت الحياة الاجتماعية في الدولة العربية أنواعاً من الترف ، فانتشرت في غرب
آسيا صناعة السجاجيد والبسط والطنافس ، والمنسوجات الحريرية والقطنية
والصوفية ، وأغطية الأرائك والوسائد ، وأنتجت أنوال فارس والعراق بسطاً
ومنسوجات نفيسة غالية الثمن ، ومنها النسيج المخطط الذي يقال له « العنابي »
الذي اشتهر به حتى عتاب ببغداد ، نسبة إلى أمير أموى اسمه عتاب .

وأعجب هذا النسيج العنابي أهل أسبانيا وفرنسا وإيطاليا وغيرها من بلاد
أوروبا حتى صار معروفاً عندهم باسمه العربي ، ومنه لفظ (Tapis) ومعناها
البساط في اللغة الفرنسية في العصر الحاضر .

وصنعت الكوفة مناديل الحرير (الكوفية) التي تتخذ غطاءً للرأس ،
واشتهرت مدن فارس مثل شيراز وأصفهان بصناعة البسط والمطرزات والثياب

السلطانية الخاصة ، واشتهرت سوريا ومصر بصنع الأواني الخرفية وأدوات المطبخ والصاييح ، وبصنع المنسوجات الحريرية المعروفة بالدمياطى والديبقي والتنيسى نسبة إلى دمياط وديبقي وتنيس ، وهى المدن الصناعية المصرية التى أضحت ذوات شهرة عالمية إذ ذاك . (شكل ٥٢ ، ٥٣)



(شكل ٥٢) صحن من الخزف من القرن الرابع الهجرى

واشتهرت مدن صيدا وصورا وغيرها من مدن الشام صنع الزجاج الذى ضرب به المثل فى الصفاء والرقّة ، واشتهرت دمشق بضمّة غة الفسيفساء والقاشانى الذى تزين به جدران الجوامع والبيوت الكبيرة من الداخل والخارج



(شكل ٥٣)

أبريش من العصر الأموي

وانتقلت صناعة ورق السكتابة أو أوسط القرن الثامن الميلادي من الصين إلى سمرقند ، ومنها إلى بغداد ، ومن بغداد إلى مصر ومراكش والأندلس ، وبمكتبة جامعة أيدن أقدم كتاب عربي مكتوب على الورق ، وهو كتاب الحديث لأبي عبيد القاسم بن سلام ، وتاريخ نسخة الكتاب سنة ٢٥٢ هـ (٨٦٦ م) .

التجارة والطرق التجارية .

وبتقدم الزراعة والصناعة واتساع الدولة نشأت تجارة عالمية واسعة على أيدي اهل الزمة من النصارى واليهود وغيرهم من شعوب الدولة العربية الإسلامية، ثم تحولت هذه التجارة العالمية شيئاً فشيئاً إلى العرب المسلمين ، ولا سيما العرب الذين عرفوا التجارة قديماً ، ، وكانت لها عندهم مكانة مرموقة ليست للزراعة ولا للصناعة . وسرعان ما استحوطت مراكب بحرية وبحرية إلى مراكب كزحافة بمظاهر التبادل التجاري البرى والبحرى ، وأهمها بغداد والبصرة وسيراف والقاهرة والاسكندرية .

ووصل تجار العرب شرقاً إلى الصين من أجل المشاركة في تجارة الحرير ، وسافروا إليها عن « طريق الحرير العظيم » الذى يمر من سمرقند وتركستان ، وورد في بعض الوثائق الصينية القديمة اسم أمير المؤمنين أبى العباس واسم الخليفة هارون الرشيد ، مما يدل على قدم الصلة بين الدولة العربية والصين، ووصل تجار العرب الأولين غرباً إلى مراكش وأسبانيا ، وجنوباً إلى سواحل أفريقيا الشرقية وجزيرة مدغشقر . وأخبر المسعودى المؤرخ أن الخليفة هارون الرشيد فكر فى الوصول بين البحر الأحمر والمتوسط بقناة ، وذلك قبل ديلبس بأكثر من ألف سنة ، وأما شمالاً فوصل تجار العرب فى القرن العاشر الميلادى إلى الأقاليم التى يمر بها نهر الفلجا ، وغدا بحر قزوين والجهات المحيطة به مجالاً لنشاطهم بصفة خاصة .

وحملت قوافل التجار العرب وأساطيلهم التجارية أحمال التمر والسكر والقطن والمنسوجات الصوفية والسيوف وآنية الزجاج إلى أقاصى آسيا وأفريقيا ، وعادت منها محملة بالتوابل والكافور والحرير من أقاصى القارة

الاسيوية والعاج الأبنوس والرقيق الأسود من القارة الأفريقية ..
(أنظر خريطة رقم ٣٠)



(خريطة رقم ٣٠) طرق التجارة في الدولة الإسلامية

وكذلك وصل التجار العرب إلى أقصى شمال أوروبا ، حيث وجدت في شبه جزيرة اسكندنافيا ثلاث عشرة قطعة نقود عربية . .

وقصص السندباد البحري وغيرها من قصص كتاب ألف ليلة تمعنى صوراً لمغامرات هؤلاء التجار في سبيل الثراء ، كما تلقى ضوءاً على أسواقهم ومعاملاتهم التجارية . وظهر غير واحد في الدولة العربية من كبار التجار ممن تقدر ثرواتهم بملايين الدنانير ، وذلك في بغداد والبصرة خاصة ، على نحو ما نشهد في الولايات المتحدة الأمريكية في العصر الحاضر .

٣١٦ - الموارد المالية

الأموال التي استمعتها الدولة العربية من رعاياها نوعان :

- (١) مال تقاضاه الدولة من المسلمين خاصة ، وهو الزكاة .
 - (٢) مال تقاضاه الدولة من أهل الذمة ومن اعتبروا في حكمهم من الطوائف ، وهي جزية الرؤوس وخراج الأرض .
- الزكاة :

ويقال للزكاة أيضا الصدقة ، وهي تؤخذ من الأغنياء في كل جهة إسلامية وتفرق في فقرائها .

والأموال التي تكون فيها الزكاة أربعة أنواع (١) الماشية (٢) والذهب والفضة (٣) والثمار (٤) والزروع .

والماشية تشمل الإبل والبقر والغنم ، ولها حد أدنى لا تؤخذ فيها دونه زكاة ، ثم تزداد الزكاة فيما فوق الحد الأدنى بزيادة عدد الماشية ، كل ذلك وارد بالتفصيل في أحكام السنة .

وأما الفضة فليس فيها فيما دون ٢٠٠ درهم زكاة ، وأما ما بلغ ٢٠٠ درهم فأكثر فتؤخذ زكاته بنسبة ٢ في المائة ومثل ذلك الذهب فليس فيما دون العشرين مثقالا زكاة ، وما زاد فيؤخذ عن كل عشرين مثقالا نصف مثقال . ومثل الذهب والفضة أموال التجارة .

وأما الثمار وتشمل ثمار النخل والكرم والزيتون وغيرها من أشجار الفاكهة فتختلف زكاتها باختلاف نوع سقايتها . فإذا سقيت بغير مشقة ، أي بماء المطر أو الأنهر الجارية ، فزكاتها العشر ، وإذا سقيت بمشقة ، فنصف العشر . وأما الزروع وهي ، الحبوب بأنواعها من القمح والأرز واللوبياء والمحس

والمدس ونحوها ، فحكمها في الزكاة حكم الثمار

جهات الزكاة :

عن القرآن أنواع الجهات التي تُصرف فيها أموال الزكاة ، وذلك في قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين ، والعاملين عليها ، والمؤلفة قلوبهم ، وفي الرقاب ، والغارمين ، وفي سبيل الله وابن السبيل » . ولذا جرى تقسيم مال الزكاة ثمانية أسهم : السهم الأول للفقراء وهم الذين لا يملكون شيئاً بشرط أن يأخذ الفقير الواحد أقل من ٢٠٠ درهم ، حتى لا تستحق عليه الزكاة ، والسهم الثاني للمساكين ، وهم الذين لا يجدون ما يسكنهم ، وقيل بل هم فقراء أهل الذمة ، كما ورد عن عمر بن الخطاب ، والسهم الثالث للعاملين على الزكاة ، أي الذين يتولون جبايتها ، فيأخذون أجورهم منها ، والسهم الرابع يفرق في المؤلفة قلوبهم ، وهم الذين تتألفهم الدولة ، إما لكف أذاهم عن المسلمين أو لترغيبهم أو ترغيب عشائهم في الإسلام ، والسهم الخامس يذهب في شراء الأرقاء وعتقهم ، والسادس للغارمين وهم العاجزون عن وفاء ديونهم ، فيعطون منه ما يقضون به ديونهم ، والسابع ينفق في سبيل الله ، أي يعطى منه للفرقة المجاهدين نفقة ما يحتاجون إليه من عدة الحرب ، والسهم الثامن لأبناء السبيل ، وهم المسافرون الذين لا يجدون نفقة سفرهم .

الأموال المقررة على أهل الذمة :

فأنت ترى ، مما تقدم أن الدولة مقيدة في جباية أموال الزكاة وانفاقها بالكتاب والسنة ، فمن أين تأتي الدولة بالمال اللازم للمصالح العامة من عمارة

المباني العامة وصيانة الطرق ، وحفر الآبار ، وكبرى القلاع ، وإنشاء الخلدجان .
ومن أين تأتي بنفقات الجند ورواتب العمال وغيرها . والجواب أن الدولة حصلت
على المال اللازم لسكل ذلك من الفىء والغنائم ، أى غنائم الحرب .

والفىء لفظ يطلق على الأموال التى تجبىها الدولة من أهل الذمة وأشباههم
من الطوائف ، على هيئة جزية أو خراج بصفة خاصة ، ذلك أنه لما فتح العرب
العراق وغيره من الأقطار ، أراد الجند تقسيم الأراضى الزراعية عليهم قسمة
أموال الغنائم ، فأبى عمر بن الخطاب عليهم ذلك . وجرى فى الأمر جدل ونقاش
كثير . ثم استقر رأى كبار الصحابة على أن تكون الأرض ملكاً للدولة ،
وأن يعهد إلى من عليها من أهل الذمة باستغلالها على أن يؤدوا عنها للدولة
الجزية عن رؤوسهم والخراج عن الأرض التى يزرعونها ، وأن يعوض الجند
بأعطيات أو رواتب تصرفها لهم الدولة .

وعلى ذلك وضع عمر الجزية على الرؤوس والخراج على الأرض . ودون
ذلك فى سجلات ، كما فعل الفرس والبيزنطيون ، وعوام المعبر عنه بتدوين الدواوين
وكانت السجلات تكتب أول الأمر باللغات الأجنبية ، ثم عربت زمن
عبد الملك بن مروان .

ويطلق لفظ الجزية على عهد الرسول وأبى بكر ومدة خلافة عمر على المال
الذى يؤديه أهل الذمة للدولة ، سواء كان ضريبة رؤوس أو ضريبة أرض .
فلما فتح المسلمون أقاليم الفرس والبيزنطيين ووجدوا أن لسكل من النوعين أسماء
خاصة ، تخصص لفظ الجزية بضريبة الرؤوس ، ولفظ الخراج بضريبة
الأرض .

أما الخراج فالغالب أن المسلمين اتبعوا في تقديره النظام الذى كان مقبلاً
فى كل إقليم قبل أن يفتحوه ، وهو فى بعض الجهات نظام المقاسمة للمحصول بعد
تمام نضجه ، أى أن تأخذ الدولة حصة لا تزيد على النصف ولا تقل عن الخمس ،
وتترك الباقي لصاحب الزراعة . وفى جهات أخرى جرى تقدير الخراج على نظام
المساحة ، أى أن تأخذ الدولة الخراج باعتبار مساحة معينة ، كالقندان فى مصر ،
والجريب فى العراق .

وقد يكون الخراج على نظام المقاطعة ، أى أن تقدر الدولة حصتها تقديراً
ثابتاً لا يتأثر بزيادة المحصول أو نقصانه ، بخلاف الحال فى النوعين الآخرين
على ما يظهر .

وفرضت الدولة عدة ضرائب أخرى ثانوية تلاحق بالخراج ، ومنها لعشار
السيفن التى تمر ببعض الثغور الإسلامية ، فيؤخذ منها العشرُ أما عينا أو نقداً ،
وأخماس المعادن المستعينة فى باطن الأرض ، فيؤخذ عنها الخمس .

أما غنائم الحرب ، فهى ما يستولى عليه المسلمون من أعدائهم بالحرب ،
أى (١) الأمرى (٢) والسبى (٣) والأموال المنقولة (٤) والأراضى .

فاما الأسرى ؛ وهم رجال العدو المغناولون الذين يقومون فى الأسر ، فولى
الأمر مخير بين أن يمن عليهم ويطلقهم ، وبين أن يأخذ الفداء عنهم ، والمسال
المأخوذ على هذه الصورة يضم إلى باقى الغنيمة . وأما السبى فالقصد به النساء
والأطفال الذين يقومون فى أيدي المسلمين أثناء الحرب ، فلا يجوز قتلهم وإنما
يفرقون فى جملة الغنيمة ، ويجوز قبول الفداء عنهم .

وأما الأموال المنقولة ، وهى الماشية وعتاد الحرب الذى يصير بعد الوقعة إلى المسلمين ، فيدخل فى جملة الغنيمة ويفرق كما سيأتى . وأما الأراضى التى يكسبها المسلمون بالحرب فلا تدخل فى جملة الغنيمة ، بل تُعامل على نحو ما تقدم فى الكلام عن الفىء .

تقسيم النفسام :

وعَنِ الْقُرْآنِ طَرِيقَةً تَقْسِيمُهَا ، وَذَلِكَ فى قَوْلِهِ تَعَالَى «وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ ، وَلِذِى الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» ، فَتَقْسَمُ أَمْوَالُ الْغَنِيمَةِ مِنْ فِدَاءٍ وَسَبْيٍ وَأَمْوَالٍ مَنْقُولَةٍ خُمُسَةً أَفْصَافًا ، أَرْبَعَةٌ مِنْهَا لِلْمَقَاتِلَةِ تُوَزَعُ عَلَيْهِمْ بِالنِّسْبَةِ ، ثُمَّ يَقْسَمُ الْخُمُسُ الْبَاقِي الَّذِى هُوَ لِلرَّسُولِ ، إِلَى خُمُسَةِ أَصْهُمٍ ، سَهْمٌ يَفْقُ مِنْهُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى أَزْوَاجِهِ وَفِي مَصَالِحِ الْمُسْلِمِينَ ، وَسَهْمٌ يَفْرَقُ فِي ذَوَى قُرْبَى الرَّسُولِ وَهُمْ بَنُو هَاشِمٍ وَبَنُو عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَبَنُو عَبْدِ مَنَافٍ ، وَسَهْمٌ لِلْيَتَامَى مِنْ ذَوَى الْحَاجَاتِ ، وَسَهْمٌ لِمَسَاكِينِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَكْفِيهِمْ ، وَالسَّهْمُ الْخَامِسُ لِأَبْنَاءِ السَّبِيلِ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نَفَقَةَ السَّفَرِ .

ديوان الجهد :

تَفْهِيمًا لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ جَعْلِ الْأَرْضِ الزَّرَاعِيَةِ فِي الْبِلَادِ الْمَفْتُوحَةِ مِلْكًا عَامًّا لِلدَّوْلَةِ ، وَمَصْرَفَ أُعْطِيَّاتِ الْجُنْدِ مِمَّا يَبْقَى مِنْ مَالِ الْفَيْءِ بَعْدَ طَرَحِ جَمِيعِ نَفَقَاتِ الْإِدَارَةِ أَنْشَأَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ دِيْوَانَ الْجُهْدِ ، وَدَوَّنَ فِيهِ أَسْمَاءَ جَمِيعِ الَّذِينَ يَسْتَحِقُّونَ عَطَاءً ، وَرَتَّبَ الْأَسْمَاءَ بِحَسَبِ الْقَبَائِلِ ، وَجَعَلَ عَطَاءَ كُلِّ مُسْتَحِقٍّ بِحَسَبِ قَرَابَتِهِ لِلرَّسُولِ أَوْ بِحَسَبِ سَابِقَتِهِ فِي خِدْمَةِ الدَّوْلَةِ وَالِدَعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَوْ دَرَجَتِهِ فِي الْجَيْشِ

أو مبالغ حفظه للقرآن ، وتراوح أقل عطا للجندى العادى بين ٥٠٠ ومن ٦٠٠ درهم فى العام .

جباية الخراج :

حدث فى أثناء القرن الأول الهجرى أن دخل كثير من أهل الذمة فى الإسلام ، وأصبحوا من الموالى ، فسقطت عنهم الجزية . صارت أرضهم زراعية ، أرض زكاة لا أرض خراج . وهجر كثير من أولئك الموالى الداخلين فى الاسلام الريف إلى المدن الكبرى ليلتحقوا بالجيش وصار لهم عطاء ، يقتضى النظام الذى وضعه عمر بن الخطاب وترتب على ذلك أن تناقص دخل بيت المال من الجزية والخراج ، وهما أهم ايراد الدولة المالية .

ثم حدث ابتداء من عهد الخليفة عثمان بن سمحة الدولة للعرب أن يضعوا أيديهم على أراض زراعية خراجية فى الأقاليم المفتوحة ، فأصبحت بمثابة كسبهم لها تؤدى الزكاة فحسب ، وهى فى الجملة أقل من الخراج ، فازداد تأثراً المال بتلك الحال . لما جاء الحجاج عمل على تسلا فى كل ذلك بأن ألزم الموالى العودة إلى الريف وأداء الجزية برغم اسلامهم ، كما ذهب إلى فرض الخراج على العرب الذين وضعوا أيديهم على أراضى فى الأقاليم المفتوحة . غير أن الشكوى عمت من هذه المعاملة فلما جاء الخليفة عمر بن عبد العزيز أنفى الجزية عن أسلم من الموالى ، واعتبر الخراج حقاً مدينياً ثابتاً على الأرض لا يتأثر باسلام صاحبها وذلك بأن تضم الأرض إلى أرض القرية ولصاحبها أن يستأجرها بعد ذلك على شريطة أن يؤدى عنها الخراج ، كما نهى عن أن تصبح أرض خراجية إلى عربى

بعد سنة ١٠٠ هـ ، وبذلك أصبحت الأرضُ الزراعية في الدولة الإسلامية من ذلك الوقت أما خراجية يؤدي عنها الخراج ، وأما عشرية يؤدي عنها الزكاة .

ويمكن أن يقال بوجه عام أن الأرض في الدولة الإسلامية كانت مملوكة للدولة وأن الناس استغلوا على قاعدة أن يكون للحكومة نصيب من غلتها ، وذلك إلى أوائل القرن الماضي ، إذ تقرر تملك الفلاح الأرض التي يزرعها ، على نحو ما حدث في مصر خاصة .

رابعاً - الحياة الفكرية

غلبت الأمية كما غلبت البداوة على عرب الحجاز ونجد في جاهليتهم ، فلم يكن لهم علوم بالمعنى الذى يدل عليه اللفظ ، بل كانت لهم معارف متنوعة اكتسبوها بالمشاهدة والتجربة ، او اقتبسوها من جيرانهم من الفرس والبيزنطيين والسريان . ومن هذه معلومات بدائية في طب الأسنان ومعرفة جسم الإنسان وعلاجه وطب الحيوان ولاسيما الخيل والإبل . ومعلومات أخرى تتعلق بالطواهر الجوية ، وهو ما عبروا عنه بالأنواء ومهاب الرياح ومساقط النيث ، ومعلومات فلسفية بمواقع النجوم الثوابت والسكواكب السيارة وأوقات طلوعها وغروبها ، وهذه فادتهم في أسفارهم خاصة .

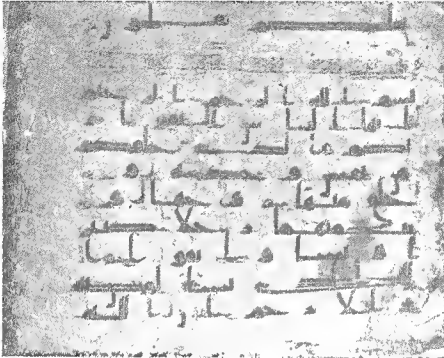
واشتغل العرب بمعرفة ما كان أو يكون من الحوادث ، وهو ما يسمونه العرافة والسكمان ، ومهروا في تتبع آثار الإنسان والحيوان ، والاستدلال بها على أصحابها ، وهو ما أطلقوا عليه قيافة الأثر ، أو تبيين النسب بين شخصين من علاقة خلقية مشتركة بينهما ، وهو قيافة البشر .

فلما جاء الإسلام وحد كلمة العرب ، فتفتحت بذلك مواهبهم وانطلقت إمكانياتهم وندفوا يخطوات سريعة في ميادين العلم والمعرفة ، ومهد لهذه الحال الجديدة أمران جليлан تم كل منهما في عهد الخلفاء الراشدين :

١ - جمع القرآن من الصحف التى كتب فيها الوحي زمن الرسول ، ومن صدور الرجال ، وذلك بتدوينه في مصحف واحد ، أرسلت نسخ منه إلى الأمصار

الكبرى ، وبذا أصبح للمسلمين نص واحد معتمد لكتابتهم المقدس ينسخونه ويقرؤونه ويتدبرونه دون اختلاف في نصه .

٢ — نمو الخط العربي وانتشاره بين المسلمين ، وقد أخذ العرب الخط أصلاً عن الحيرة القريبة من السكوفة ، ولذا اشتهر هذا الخط باسم السكوفي ، ثم أخذوا عن الانباط . بشمال شبه الجزيرة نمطاً آخر ، وهو المسمى بخط النسخ . وبذلك لم يعد العرب أميين ، بل أصبح كثير منهم يقرأ ويكتب ، وهو ما لا بد منه في التمهيد لكل حركة فكرية عامة . (شكل ٥٤)



(شكل ٥٤)

صفحة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط السكوفي من القرن الثالث الهجري

ومن الطبيعي أن يأخذ العرب من علوم الحضارات التي امتدت إليها فتوحهم ما تنس إليه حاجتهم ، وأن تنمو بينهم علوم اقتضهاها الإسلام نفسه ، من تفسير

القرآن وجمع وتدرين للحديث واستنباط. للأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، وهو المسمى بعلم الفقه . فلما دخل كثير من الأعاجم في الإسلام ، وصاروا موالى في الدولة الإسلامية ، أقبلوا على الاشتغال بالعلم والتأليف فيها :

ونشأ عن اشتغال العرب الموالى بمختلف العلوم حركة فكرية أخذت تقوى وتعضم حتى بلغت الغاية حوالى منتهى القرن الرابع الهجرى ، وهى فى الواقع من أعظم الحركات فى تاريخ الفكر الإنسانى بوجه عام .

وأتخذت هذه الحركة مراكز مختلفة باختلاف محور الارتكاز السياسى والفكرى فى الدولة الإسلامية وأقاليمها ، وهذه المراكز بحسب ترتيبها الزمنى هى :

- (١) فى الحجاز مكة والمدينة (٢) وفى العراق البصرة والكوفة وبغداد
- (٣) وفى الشام دمشق (٤) وفى مصر الفسطاط . وازدادت هذه الحركة نشاطاً وقوة منذ القرن الثالث الهجرى ، حين ظهرت مراكز أخرى فى فارس وخراسان وماوراء النهر وفى شمال أفريقية والأندلس .

علوم اللغة

علم النحو :

ينبغي أن يكون واضحاً كل الوضوح في هذا الموضوع أولاً ، أن العرب الذين غلبت عليهم الأمية والبداوة في جاهليتهم أسهموا في الحضارة الإسلامية وعلومها كلها في العصور المختلفة بسهم عظيم ، هو اللغة العربية الفصحى التي نزل بها القرآن الكريم ، واحتواها الأدب العربي القديم وما فيه من نظم ونثر ، يشرح كل منهما مستويات الفكر والدق الفنى والخلق والسلوك عند العرب .

ثم اختلط العرب بالأعاجم من الفرس والبيزنطيين والسرريان ودخل كثير من أولئك لأعاجم في الإسلام ، فظهر اللحن في اللغة ، ومست الحاجة إلى وضع قواعد تعصم اللغة العربية من الخطأ وهذا هو الباعث على وضع علم النحو . والرأى السائد أن أبا الأسود الدؤلى هو الذى وضع علم النحو ، أو أنه بوجه أصح هو البادى بوضعه ، ويقال أنه بدأ بوضع النحو بإشارة من الإمام على نفسه وعاش أبو الأسود الدؤلى في البصرة .

واشتغل علماء البصرة بالنحو في العصر الأموى وصدر الدولة العباسية ، ثم جازهم في الاشتغال به علماء الكوفة ، غير أنهم خالفوا البصريين في بعض قواعده ، وصار لكل من الفريقين مذهب في النحو ينسب إليه .

ثم استوى النحو علماً جليلاً مستقلاً بنفسه ، بعد أن وضع قواعده الخليل بن أحمد الفراهيدى وبعده سيبويه ، وأخذ العلماء بعدها يؤلفون في البصرة والكوفة

وغيرها من الأبعاد . علم اللغة :

واستحدثت الشريعة الإسلامية والنظم السياسية والإدارية في الدولة والمجتمع ألفاظاً ومصطلحات لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، وازدادت هذه الألفاظ والمطلحات بما نقل المسلمون عن اليونانية والفرنسية من مختلف العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية ، ثم أدى ذلك السيل من المفردات الجديدة في لفظهم واستعمالها إلى البحث في مفردات اللغة العربية ، من حيث معانيها وأصولها واشتقاقها ودارق تعريب الدخيل عليها . وتناول المسلمون ذلك أول الأمر على شكل مجموعات منها مصطلحات موضوع واتخذ ، كالخيل والشجر ، والنخيل ، والسكر ، وخلق الإنسان ، وغريب القرآن ، وغريب الحديث ، والمياه ، والجبال ، فصارت عندهم بذلك مادة لغوية عظيمة استفادوا منها المعاجم اللغوية .

علوم الدين

تفسير القرآن :

نزل القرآن بلفظة العرب وعلى أساليب كلامهم ، ومع ذلك لم يكن القرآن كله في مستناول جميع الصحابة ، يستطعون فهمه أجمالا وتفصيلا ، بل احتاج بعضهم أن يسأل عن معاني بعض ألفاظه أو شارته أو عن سبب نزول آية من آياته . واشتدت هذه الحال بدخول الأعاجم في الاسلام ، فلم يلبث أن اشتهر بعض كبار الصحابة بالقول في تفسير القرآن ، وأكثر من روى عنهم تفسر له على بن أبي طالب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود . ثم اشتهر بعض التابعين بالرواية عن هؤلاء الصحابة .

وبعد انقضاء عصر الصحابة والتابعين أخذ العلماء يؤلفون الكتب في تفسير القرآن ، وأعظم تفسير للقرآن هو تفسير ابن جرير الطبري ، المتوفى سنة ٣١٠ هـ . ثم تعددت التفسيرات وتوزعت بين موجزة ومفصلة ، ولكل منها مزية يعرف بها .

علوم الحديث :

يراد بالحديث ما يروى عن رسول الله عليه السلام من قول أو فعل أو تقرير . وأخذ الناصر الحديث عن الصحابة ، ولا سيما الذين طال اتصالهم بالرسول ، ومنهم السيدة عائشة زوجة ؛ وعمر بن الخطاب ، وأبو هريرة

ثم ظهرت طبقة التابعين الذين أخذوا الحديث عن الصحابة . ولم يدون الحديث أول الأمر ، كما دون القرآن ، بل ظل غير مدون في الجلفة مدة القرن الأول ، يتناقله الخدثون مشافهة وحفظاً في الذاكرة ، لأنهم كرهوا أن يكون إلى جانب القرآن كتاب آخر يشغل المسلمين عن تلاوته وتدبر معانيه . فلما ظهرت أحاديث موضوعة لا يبرها أعلام الصحابة والتابعين ، وتجراً الواضعون على الرسول فنسبوا إليه أحاديث غير صحيحة ، اشتدت الرغبة في تدوين الأحاديث الصحاح . ثم أمر الخليفة عمر بن عبد العزيز بمض من يشق به من علماء الحديث بجمع الأحاديث ، فكتبت ردونت في دقائر ، وأرسلت منها نسخ إلى أنحاء الدولة الإسلامية ، ثم استفاض التأليف في علم الحديث ، وظهرت الكتب الستة المشهورة ، وأشهرها وأكثرها تداولاً « الجامع الصحيح » لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري المتوفى سنة ٢٥٦ هـ . وأفادت اللغة العربية من تدوين الحديث فائدتين كبيرتين ، وهما أن لغة الحديث النبوي طبقة عالية من البلاغة ، ثم أن السنة هي المصدر الثاني للتشريع الإسلامي بعد القرآن ، وتدوينها هو الذي سهل لرجال الفقه والتشريع عملهم .

علم الفقه : —————

وهو العلم بالأحكام الشرعية العملية المستنبطة من الأدلة التفصيلية ، والمراد بالأحكام لشرعية العملية كل ما يتعلق بالعبادات والمعاملات والأحوال الشخصية والجنائيات والنظم العامة . واستنبط كبار الصحابة أحكام الشريعة من الكتاب والسنة ، فإن لم يجدوا نصاً صريحاً لجأوا إلى الفياس ، أو الرأي أو الإجماع ، وعبروا عن ذلك بالاجتهاد . غير أن فقهاء المذهب ————— از ما والوا إلى

لاستمسك بالكتاب والسنة ، لاستفاضة الحديث عندهم ، ولم ينجحوا إلى الأخذ بالقياس والإجماع إلا عند الضرورة القصوى ، أما فقهاء العراق ، فقلقلة رواية الحديث عندهم صاروا إلى الأخذ بالقياس والرأى فيما ليس فيه نص صريح في كتاب أو سنة مشهورة . ولذلك عرف فقهاء الحجاز بأهل الحديث ، وفقهاء العراق بأهل الرأى والقياس ، وزعيم الأولين الإمام مالك بن أنس ، وزعيم الآخرين الإمام أبو حنيفة .

في القرن الثاني من الهجرة ابتداء ظهور نوابغ الفقهاء ، ومن آرائهم نشأت المذاهب السنية الأربعة المعمول بها حتى يومنا هذا . وأصحاب هذه المذاهب على حسب ترتيب وفياتهم هم الإمام أبو حنيفة المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، والإمام مالك المتوفى سنة ١٧٩ هـ ، والإمام الشافعى الذى مزج في مذهبه بين طريقة أهل الحجاز وطريقة أهل العراق ، وأتم مذهبه في مصر ، حيث توفى سنة ٢٤٠ هـ ، والأيام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١ هـ وهو إمام أهل الحديث في عصره . ولكل من هؤلاء الأئمة تلاميذ أخذوا الفقه عن أمامهم وألقوا الكتب على مذهبه وعملوا على نشره في البلاد .

علم أصول الفقه :

ولم يكتف الفقهاء باستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة ، بل وضعوا لذلك من القواعد ما يضبطها ويحكمها ، وأطلقوا على مجموع هذه القواعد اسم « علم أصول الفقه » ، وأول من كتب في هذا العلم الإمام الشافعى .

والخلاصة أن المسلمين استنبطوا الأحكام والشرائع ، ودونوا فقههم قبل انقضاء القرن الثاني الهجرى من قيام دولتهم وهو ما لم يتفق للدولة من الدول السابقة ، فالقانون الرومانى مثلاً لم يستقر أمره ويضبط إلا زمن الامبراطور جستنيان ، أى بعد تأسيس الدولة الرومانية بأكثر من عشرة قرون .

التاريخ

عنى المسلمون عناية شديدة بالتاريخ ، فألفوا فيه كتباً كثيرة ، وصلنا منها ما يبعد بالآلآت ، فضلاً عما ضاع ولم يصل إلينا . ونشأت رغبتهم فى التاريخ من حرصهم على معرفة سيرة الرسول وأخبار الفتوح . ونهجوا أول الأمر فى تدوين التاريخ منهج المحدثين ، فأوردوا الخبر مسبوفاً بسلسلة إسناده ، ثم صاروا يرتبون الحوادث بالسنين مع استبقاء الأسناد ، كما فعل الطبرى . ثم أسقطوا الأسناد ، ورتبوا الحوادث بالسنين فقط ، كما فعل ابن الأثير ، ثم أخذوا يؤرخون اسكل دولة من الدول على حدة ، كما فعل ابن خلدون وتلميذه المقرئى المصرى .

ومن أشهر الكتب التاريخية التى وصلت إلينا « سيرة الرسول » تأليف محمد بن اسحق المتوفى سنة ١٥٠ هـ ، وهذه السيرة وصلت إلينا مهذبة على يد عبد الملك بن هشام المتوفى سنة ٢١٨ هـ ، وسميت لذلك باسم سيرة ابن هشام .

ومن هذه الكتب كذلك سيرة عمر بن عبدالعزيز لابن عبد الحكم من أهل القرن الثانى الهجرى ، وكتاب « فتوح البلدان » لابن الأثير المتوفى سنة ٢٧٩ هـ ، وهو أفضل كتاب فى موضوع الفتوح .

وألف المسلمون فى الطبقات ، وأشهر كتبهم فى ذلك كتاب « الطبقات الكبير » لمحمد بن سعد المتوفى سنة ٢٤٠ هـ ، وهو فى طبقات الصحابة والتابعين . أما مؤلفات المسلمين فى التاريخ العام فأولها تاريخ ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ . وهو أوسع وأعظم تأليف فى تاريخ الدولة الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى ، وكتاب « مروج الذهب » للمعتمد المتوفى سنة ٣٤٦ هـ ، ثم كتاب « تجارب الأمم » لمسكويه المتوفى سنة ٣٦٩ هـ . ولهذا الكتاب ذيل من تأليف الوزير

أبي شجاع المتوفى سنة ٤٨٨ هـ . ومن المادة المتجمعة في هذه السكتب وكثير غيرها
استقى ابن الأثير المتوفى سنة ٦٣٠ هـ كتابه المسمى « الكامل في التاريخ » وأبو
الفداء المتوفى سنة ٧٣٢ هـ كتابه المسمى « المختصر في تاريخ البشر » ، وابن
خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ كتابه المسمى « المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم
والبربر » .

ويؤخذ على مؤرخي المسلمين عامة أنهم قصرُوا همهم على أخبار الخلفاء
والملوك والأمراء والحروب والفتن ، وأنهم لم يتعدوا ذلك إلى وصف الأحوال
الاجتماعية والشئون الاقتصادية والأدبية وأنهم قليلاً ينفقون خليفة أوحاكما مهما
بلغ من الظلم والطفيان ، على أنهم على العموم توخوا الصدق في روايتهم ، وهي
مزية ولاشك عظيمة ، قدرها لهم مؤرخو الغرب .

الاجتماع

الاجتماع هو دراسة ما تنصف به الجماعات والشعوب من مواصفات في معاشها ومحافلها ، وأعيادها ومواسمها ، وفي كتب الرحلات والخطوط والجموعات التاريخية الجغرافية معلومات كثيرة عن هذه الأحوال .

كوصف ابن حوقل أحوال جزيره صقلية وطباع أهلها عندما زار هذه الجزيرة وفعل مثل ذلك ابن جبير للأقطار التي زارها في رحلته ، وكذلك وصف ابن بطوطة في رحلته ما شهد من عادات الشعوب التي زار بلادها في الشرق والغرب والشمال والجنوب .

ووصف المقرئى (توفى سنة ٨٤٥ هـ) في كتاب الخطط الشهير ، الأعياد والمواسم والاحتفالات الدينية للمعربين ، زمن الفاطميين خاصة .

وكذلك أورد المقرئى (توفى سنة ١٠٤١ هـ) في كتابه « نفع الطيب » فصولا متنوعة في عادات أهل الأندلس ، في مأكلاتهم ومشربهم وملبسهم ومختلف أحوالهم .

وإذا أردنا الاجتماع العلم الذى يبحث في تطور الجماعات ، ونشوء الدول وعوامل قوتها ونضجها ثم عوامل ضعفها واضمحلالها وسقوطها ، وبعبارة أخرى « فلسفة التاريخ » فأبن خلدون في مقدمته العظيمة خاض غار

هذا العلم ، وكتب فيه بتفصيل تام في أسلوب علمي فأوفى
على الغاية .

وهو في الواقع للمؤسس لعلم الاجتماع في الشرق والغرب ، إذ سبقت
آراؤه في هذا المجال معظم ما جاء به علماء أوروبا الحديثة من نظريات
علمية مستمدة من دراسات طويلة .

تقويم البلدان

بلغ تجار المسلمين في أسفارهم خلال القرنين الثاني والثالث من الهجرة بلاد الصين براً وبحراً ، وجزيرة زنجبار وأقامى سواحل أفريقية الجفوية ، وأوغاوا في روسيا شمالاً ، ووصلوا إلى سواحل المحيط الأطلسي غرباً . ورجع أولئك التجار بكثير من أخبار الأنطار والشعوب التي زاروها ، فأثارت هذه الأخبار رغبة واسعة في معرفة هذه الأنطار وشعوبها .

ومن هؤلاء الرائدین المسلمين سليمان التاجر ، وأصله من سيراف الواقعة على الخليج الفارسي ، إذ سافر غير مرة إلى الصين وسواحل الهند ؛ ودون وصف أسفاره مؤلف مجهول الإسم في كتاب مشهور ، وذلك في منتصف القرن الثالث الهجري ، وهذا الكتاب أقدم وصف باللغة العربية للصين وسواحل الهند .

ثم أن الخليفة المقتدر بالله العباسي أوفد أحمد بن فضلان سنة ٣٠٩ هـ إلى ملك البلغار الفارزين على ضفاف نهر الفلجا ، وكاتب ابن فضلان وصف رحلته هذه ، وأورد هذا الوصف ياقوت الحموي في معجمه في مادة « بلغار » وهو أقدم نص عربي عن روسيا في العصور الوسطى .

وكذا ابتدأت كتب الجغرافيا الإسلامية المتعلقة بالأنطار والشعوب الأجنبية أما جغرافية الأقاليم الإسلامية نفسها ، فأنشأتها عوامل أخرى ، وهي الحاجة إلى وصف الطرق المتشعبة التي تسلكها قوافل الحجاج والتجار وغيرهم ، وإلى معرفة إبعادها ، ومراحلها ومفازلها والمدن التي تمر بها .

ثم أن توظيف الخراج على كل إقليم اقتضى مسح هذا الإقليم وبيان عامره وغامره ، وأنواع غلاته وحاصلاته ، فبعث ذلك على الكتابة فى وصف أقاليم الدولة الإسلامية فى تفصيل . ولذا دار أكثر الكتب الجغرافية التى كتبت فى القرنين الثانى والثالث من الهجرة حول الوصف الجغرافى لكل إقليم ، ومن هذه كتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة ، و « كتاب الخراج » لقدامة بن جعفر .

ثم نقل بعض المترجمين كتاب « الجغرافية » لبطليموس من اليونانية فى صدر الدولة العباسية ، فتأثرت الجغرافية الإسلامية به تأثراً كبيراً . ونسخ على منوال بطليموس محمد بن موسى الخوارزمى فى كتابه « صورة الأرض » ثم طلب الخليفة المأمون إلى الخوارزمى أن يضع لكتاب هذا مصوراً جغرافياً ، فقام بهذا العمل مع تسعة وستين عالماً فيما يروى ، وهو أول مصور جغرافى عربى للدولة العربية بأقاليمها .

وأثر كتاب الخوارزمى بدوره فى جغرافى العرب فى القرن الرابع الهجرى ، ولاسيما الاصطخرى فى كتابه « مسالك الممالك » ، وابن حوقل فى كتابه « المسالك والممالك » وكذلك المقدسى فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » وزود هؤلاء الجغرافيين كتبهم بانحرائط ، وذكروا العروض والأطوال ، والأقاليم السبعة ، وغير ذلك .

ويعد ياقوت الحموى المتوفى سنة ٦٢٦ هـ خاتمة كبار الجغرافيين الإسلاميين بالشرق ، فهو مؤلف « معجم البلدان » الذى يعتبر أعظم قاموس

جغرافى فى المصور الوسطى ، لأنه كنز معلومات جغرافية واسعة . وذلك
فضلا عما فيه من معلومات تاريخية وأدبية فريدة .

واعترف أهل الأندلس والمغرب غنى كبيرة بالجغرافية
والرحلات خاصة ، وظهر فيهم جغرافيون لا يقلون شأنًا عن جغرافى
المشرق .

علم الكلام

قام إلى جانب المحدثين والفقهاء طائفة ثالثة من علماء الإسلام هي جماعة « المتكلمين » أصحاب علم الكلام ، وسرعان ماظهر الخلاف واشتدت الخصومة العلمية بين فروق المحدثين والفقهاء من جهة وفريق المكالمين من جهة أخرى . وقيل في تسمية هذا العلم الجديد أنه سمي بذلك ، لأنه علم نظري لاعلى ، وسمى أيضاً بعلم التوحيد لأنه يقوم على القول بالتوحيد المحض للخالق ونفى الصفات عنه سبحانه وتعالى ، ويسمى علم الكلام أيضاً بعلم أصول الدين ، لأنه يبحث في أصل العقائد من إثبات وجود الله ، ومسألة القضاء والقدر وغيرها . والمعترلة هم مؤسسوا علم الكلام وهم الذين حملوا لواءه قرابة قرن ونصف قرن من الزمان (١٠٠ — ٢٤٠ هـ) .

ويرجع أصل تسميتهم إلى واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس أستاذه الحسن البصري بمسجد البصرة لاختلافه معه في الرأي ، ولزم هذا الإسم أتباع واصل بن عطاء وفرقة الجديدة ، وأطلق عليهم في صدر الدولة العباسية اسم المتكلمين وتناخض آراء المعتزلة في القول بعدم تكفير مرتكب الكبائر ، واعتباره في منزلة بن المؤمن والكافر . وقالوا بالقدر أي أن الله لا يخلق أفعال الناس ، وإنما هم الذين يخلقون أفعالهم ، وأنهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون ، على عكس ما نال به خصومهم من المحدثين والفقهاء الذين تعالوا في سلب الإنسان قدرته وحريته في التصرف .

وقال المعتزلة بسلطان العقل وقدرته على معرفة الحسن والقيح ، ودعاهم إلى

وضع هذا المبدأ مارأوا من جمود بعض الفقهاء على ماورد من حديث ولو موضوع ، ووفهم عدد النصوص ، فاذا لم يجدوا نفعاً لم يجرؤوا على إبداء رأى خيائهم فيه .

وقال المعتزلة كذلك بالتوحيد الخالص ، فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدر وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل أن الله عالم وقادر وحى وسميع وبصر بذاته ، وايسر هنالك صفات زائدة على ذاته . وتمام دعاهم إلى هذا القول ماشاع في عصرهم من إلهاب قوم إلى التحسيس بالله تعالى وإثبات صفات له كصفات المخلوقين من بصر وسمع ومكان وغير ذلك .

ونزل الاضطهاد بالمعتزلة أول الأمر في الدولة الأموية . غير أنهم أخذوا يميلون على نشر آرائهم بدعاة لم . فتقدست حالهم حتى اعتق ١٨٠ هـ بهم الخليفة تان الأمويان يزيد بن الوليد مروان بن محمد الذي لقب بالجله .ى ، لأخذه القول بالقدر عن الجعد بن درهم المعتزلى وذلك أواخر الدولة الأموية .

ثم انتشر الاعتزال من البصرة إلى سائر العراق وصار له في العصر العباسي فرعان أحدهما بالبصرة نفسها بزعامة واصل بن عطاء (المتوفى سنة ١٨١ هـ) وأبو الهزبل العلاف ، والنظام والجاحظ ، وثانيهما ببغداد بزعامة بشر بن المعتز (المتوفى سنة ٢٠١ هـ) وتمام بن الأشرس واحمد بن أبى دارد .

واستمد هؤلاء جميعاً من كتب المنطق والفلسفة اليونانية الى ترجمت في العصر العباسي الأول ، واتفقوا بها في الجدل والاحتجاج لآرائهم ، وفي الإقتصار للاسلام والرد على الملاحدة الزنادقة الذين رفعوا ردهم عنهم وقتذاك ، وبلغ أو تلك

المتكلمون المعتزلة قمة نفوذهم زمن الخلفاء العباسيين الثلاثة : المأمون والمعتصم والواثق . ذلك أن المأمون أخذ بقولهم بخلق القرآن ، أى أنه مرتبط بالحوادث التى اقتضت نزوله ، وذلك رداً منهم على الحديثين والفقهاء الذين قالوا بأن القرآن كلام الله . وكلام الله قديم قدمه سبحانه وتعالى . وبالجملة المأمون فى الأخذ بنظرية المتكلمين واضطهد وهذب من لم يقل بخلق القرآن . وتابعه فى ذلك المعتصم والواثق وعظمت الفتنة واشتدت الحنة . ثم وضع الخليفة المتوكل حداً لتلك الحال ، إذ هبى الناس عن الخوض فى هذه المسألة ، وأمرهم بالعودة إلى السنة والجماعة والأخذ بالتسليم والتقاييد .

والخلاصة أن المعتزلة وعلماء الكلام أطلقوا لعقولهم عنان البحث فى حدود الدين . وأنهم قاوموا بذلك جمود خصومهم وأنهم ردوا على التنويه والدهرية والملاحدة ، وأنهم فى سبيل إقناع خصومهم وإلزامهم الحجة أسسوا قواعد البحث والمناظرة ، ووضعوا أصول علم البيان والبلاغة العربية .

غير أنه يؤخذ عليهم أنهم صدموا العامة بأراء تقصر عقولهم عن فهمها . فلم يخذلوا أحداً منهم إلى جانبهم . وأخذ مذهب المعتزلة فى الإنهيار عندما انفصل عنهم أحد كبارهم وهو أبو الحسن الأشعري (المتوفى ببغداد سنة ٣٣٣ هـ) إذ عاد إلى السنة وحمل على المتكلمين حملة شعواء فلم تقم للاعتزال أو علم الكلام قائمة بعد ذلك .

الفلسفة

تأخرُ نضجُ الفلسفة عند المسلمين بالقياس إلى العلوم الأخرى ، لأن الفلسفة اليونانية التي استندوا إليها في فلسفتهم لم تنقل كتبها إلى اللغة العربية إلا في عصر المأمون على وجه العموم . وحرص فلاسفة المسلمين على التوفيق عموماً بين الفلسفة والدين ، الا انتصاراً لأحدهما على الآخر ، وأشهر فلاسفة الاسلام في المشرق الكندي ، والفارابي ، وابن سينا ، وجماعة اخوان الصفا .

فالكندي (المتوفى حوالي منتصف القرن الثالث) هو أبو يوسف يعقوب بن اسحق ، العربي الأصل ، يتصل نسبه بملوك العرب الأقدمين من سكتة لذلك سمي « فيلسوف العرب » ، ونشأ الكندي بالكوفة مسقط رأسه ، وأثره المأمون والمعتصم والواثق عندهم منزلة عظيمة :

وحاول الكندي في مذهبه الفلسفي أن يجمع بين آراء أفلاطون وأرسطو ، واعتبر الرياضيات الفيثاغورية أساس العلم كله . ولم يكن الكندي فيلسوفاً محسوباً ، بل اشتغل بالنجوم والكيمياء والموسيقى النظرية والبصريات .

أما أبو نصر الفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩ هـ بدمشق) ، فهو تركي الأصل أصله من مدينة فاراب ، بأقليم ماوراء النهر ، وازدانت به حاشية سيف الدولة الحمداني بحلب ، ومذهبه الفلسفي هو المزج بين الافلاطونية والأرسطوطاليسية والتصوف الإسلامي ، مما جعل العلماء يسمونه المعلم الثاني (والأول هو أرسطو) وللفارابي في السياسة « رسالة في آراء أهل المدينة الفاضلة » ، و « كتاب

السياسة المدنية » . وكلاهما متأثر بكتاب الجمهورية لأفلاطون ، وكتاب السياسة لأرسطو . ويتخلص آراء الفارابي للسياسية في أن المدينة الفاضلة تشبه في تكوينها جسم الإنسان ، فالخاكم يشبه القلب بخدمة موظفون دونه ، وهؤلاء يخضعون لهم دونهم . والغرض من الاجتماع في المدينة الفاضلة هو اسعاد أهلها . وللفارابي مثل السكندري كعب في الرياضيات والنجوم والكيمياء والموسيقى ، ويحكى عنه أنه حضر مرة مجلس سيف الدولة ، فأخرج عودوه عزف عليه فأضحك كل من في المجلس ، ثم عزف ثانية فأبسكاهم ، ثم عزف ثالثة فأغابهم ، ثم تركهم نياماً وانصرف .

وابن سينا (المتوفى سنة ٤٢٨ هـ بهمدان) هو الشيخ الرئيس أو على الحسين إمام الفلسفة والطب في عصره ، ومولده بالقرب من بخارى سنة ٣٧٠ هـ . واتفق أن مرض نوح بن منصور ملك الدولة السامانية ، فاستقدم الطبيب بن سينا فبرىء على يده . وكان لهذا الملك مكتبة عظيمة ، فاستوهم بن سينا ما فيها من الكتب قراءة ودراسة ، ثم جعل يتنقل في البلدان ويؤلف التأليف المتنوعة ، وأشهرها كتاب « القانون » الذي حوى أهم ما عرف عن أصول الطب وخصائص العقاقير والشرائح وغيرها عند العرب . ومن تأليفه الفلسفية شرح كتاب النفس وما بعد الطبيعة لأرسطو ، وله كعاب الإشارات ، والقصيدة العينية المشهورة في الروح . واشتهر ابن سينا عند الأوربيين باسم أفسينا ، وذاعت مؤلفاته بينهم في الطب والفلسفة بعد ترجمتها إلى اللاتينية .

أما جماعة أخوان الصفا ، فهم جماعة فلسفية سرية لها ميول باطنية سياسية . وتكونت هذه الجماعة في البصرة حوالي منتصف القرن الرابع الهجري ، ثم صار لها فرع في بغداد ، ومن أخبارها أن أعضاءها وضعوا اثنتين وخمسين رسالة في الرياضيات والفلك الجغرافية والموسيقى والأخلاق والفلسفة . وتعتبر هذه

الرسائل خلاصة أبحاث الفلاسفة المسلمين بعد إطلاعهم على آراء اليونان والفرس والمنوذج ، وتمثيلها على ما يقتضيه الإسلام . ولكتابات هذه الجماعة تأثير كبير في أبي العلاء المعري ، وأبي حيان التوحيدي ، وأبي حامد الغزالي ؛ وغيرهم من مفكرى القرنين الرابع والخامس من الهجرة .

وتجرد أبو حامد الغزالي (المتوفى سنة ٥٠٥ هـ) لمحاربة الفلاسفة والرد عليهم بمحجهم ومنطقهم ، بعد أن أحاط بكل علوم عصره ، فهاجمهم دون هوادة في كتابه « مقاصد الفلاسفة » ، ثم كتاب « تهافت الفلاسفة » ولم تزدهر الفلسفة بعد ذلك في المشرق برغم لعان وميضها في المغرب والأندلس ، بفضل ابن رشد وغيره من الفلاسفة الأندلسيين ، وابن رشد هو الذي سماه الأوربيون أفيروس ، وأطلقوا على مذهبه اسم الأفيروسية ، ذات الأثر الكبير في التطور الفكري في جامعة باريس وغرب أوروبا في القرن الثاني عشر الميلادي .

الفلك والرياضيات

ابتدأ اشتغال المسلمين بالفلك بعد أن أطلعوا على ترجمة كتاب «سند هند» الذى جلبه عالم هندى إلى بلاط المنصور العباسى (حوالى ٧٧١ م). وأصبح هذا الكتاب مرجع الباحثين فى الفلك بعد ترجمته على يد محمد بن ابراهيم الفزارى، الذى يرجع إليه الفضل كذلك فى استخدام الاسطرلاب اليونانى الأصل فى رصد الكواكب والأجرام السماوية. ثم وصلت التقاويم الفهلوية إلى المسلمين مترجمة إلى العربية فى عصر الدولة السامانية، ولكن المسلمين تأثروا بالفلك اليونانى.

وأنشأ المسلمون المراصد لدراسة الفلك دراسة علمية عملية، وأولها مرصد جند بسابور أوائل القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) ثم أنشأ الخليفة المأمون داراً للرصد فى بغداد لدراسة حركات الاجرام السماوية، تفق الفلكيون المسلمون مسائل كثيرة، ومنها تقدير الدرجة العرضية بمسافة طولها $\frac{٧}{٣٠} ٥٦$ ميل. وأمكنهم بذلك معرفة محيط الكرة الأرضية ونصف قطرها، وأسهم الخوارزمى السالم الرياضى المشهور فى هذه العملية.

ثم تعددت المراصد الفلكية فى الدولة العباسية، فصالح أبو عبد الله البستانى، وهو من صابئة حران، فى مرصد مدينة الرقة، حساب مدارات القمر وغيره من الكواكب، وحدد طول السنة المدارية والفصول ومدار الشمس الحقيقى والمتوسط.

وبعد أبو الرّيحان البيروني (٩٧٣ - ٩٨٤ م) ، أعمق المتكبرين الاسلاميين في ميدان العلوم الفلسفية والطبيعية ، فألف لمولاه السلطان مسمود بن محمود الغزنوي كتابا في الفلك سماه « القانون المسمودي في الهيئة والنجوم » . وألف البيروني كذلك كتاب « الآثار الباقية عن القرون الخالية » ، وهو دراسة في تقاليم الشعوب القديمة ، وبحث في غير هذا الكتاب من مؤلفاته نظرية دوران الأرض حول محورها ، ووصل إلى تحديد دقيق لخطوط الطول والعرض .

وطاف البيروني في بلاد الهند ، ودرس أحوالها وعادات أهلها وعقائدهم ، ووضع في ذلك كتابه العظيم « تحقيق ما للهند من مقوله » ، وهو الكتاب الذي لم يؤلف مثله في أى لغة من اللغات غير العربية .

وأما الأرقام العددية والحساب ، فكان وصولها من الهند زمن الخليفة العباسي المنصور ، مع كتاب السند هند ، بدأ دخل علم الحساب الهندي بنظامه وأرقامه المعروفة في المربية بالأرقام الهندية ، وكذلك نظام الصفر .

غير أن المسلمين ظلوا زمنا يعبرون عن الأرقام بالحروف ، ثم اهتموا إلى تقسيم الكسور واستخراج الجذور التربيعية ، فأحلوا الأرقام الهندية نهائيا لسهولة محل الحروف .

وأعظم علماء المسلمين في تاريخ الرياضيات محمد بن موسى الخوارزمي (٧٨٠ - ٨٥٠ م) ، وهو مؤلف أقدم كتاب عربي في الحساب ، وكذلك أقدم كتاب في علم الجبر ، وهو معروف « بكتاب الجبر والمقابلة » الذي حمل معه اسمه العربي وهو (الجبر) إلى الجامعات الأوروبية ، بعد ترجمته إلى اللاتينية .

المعلوم الطبيعية

الكيمياء:

ايتسكر العرب في الكيمياء نظام التجربة ، بيد أنهم لم يصلوا في الكيمياء إلى نظريات ونتائج حاسمة كالتي وصلوا إليها في الرياضيات .

وأسس علم الكيمياء العربي جابر بن حيان بمدينة الكوفة حوالي سنة ٧٧٦ م ، وأتضح من الكتب التي ألفها بنفسه أنه أدرك قيمة التجربة في الكيمياء ، وأنه وصف كلا من التكليس والتحويل وصفاً علمياً ، وأنه أدخل تحسينات جديدة على الطرق القديمة للتبخير والتعصيد والاذابة والبلورة ، وأنه عرف تركيب حمض الكبريتيك وحمض النيتريك ، وكيف يمزجها ليخرج منهما ما يعرف بالماء الملكي الذي يمكن أن يذاب فيه الذهب والفضة .

وبالاختصار عدل جابر بن حيان نظرية أرسطو في تركيب المعادن ، وظلت طريقته قائمة مع شيء من التغيير حتى أوائل عهد الكيمياء الحديثة في غرب أوربا في القرن الثامن عشر الميلادي

وحذا جابر حذو من سبقوه من الكيميائيين المصريين واليونانيين في افتراض أن المعادن الخسيسة يمكن تحويلها إلى ذهب أو فضة ، ولم يزد الكيميائيون المسلمون بعد جابر بن حيان على ذلك .

إلا ليسر ، وظلوا يواصلون البحث عما كانوا يرجون تحقيقه وهو حجب الفلاسفة واكسير الحياة من مختلف المعادن والعقاقير .

الفيزياء (علم الطبيعة) :

أسهم العلماء العرب كذلك في تقدم الفيزياء وأضافوا إلى ذلك العلم دراسات جديدة مبتكرة ، ولا سيما في ميدان البصريات . ذلك أن نظريات أقليدس وبطليموس وأفلاطون تقول بأن الرؤية تتم بواسطة أشعة ترسلها العين على الأشياء . ولكن غالبية العلماء العرب كانوا من انصار نظرية أرسطو التي ترى أن المرئيات هي تأثير خطوط الضوء المنبعثة من الأشياء إلى العينين .

وصرف العلماء العرب همهم إلى دراسة المرئيات ، أى كيفية ظهور الأشياء في مختلف الظروف وأين يتكون الشكل . فبحثوا فى عناية المرئيات الخادعة ، التي يحدثها انكسار الأشعة وغيرها .

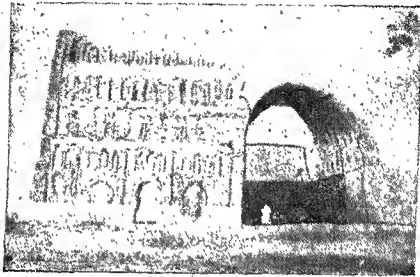
ووضع ابن الهيثم ، الذى عرفه الأوروبيون بأسم « الهازن » نظرية عن مرئيات حل هذه المسألة . وظلت تلك النظرية هي السائدة فى ذلك الميدان حتى المعصور الحديثة . .

وقام ابن الهيثم كذلك بتجارب على المرايا الكروية والمثلثة ، وابتكر طريقة صحيحة لايجاد البعد البؤرى ، وكذلك قام بأبحاث أخرى فيما يسمى ..
الفرقة المظلمة (أو التصوير) ، ويعزى إليه أيضاً اكتشاف التمييز بين الظل وشبه الظل .

خامساً : الحياة الفنية

الفنون والعمارة

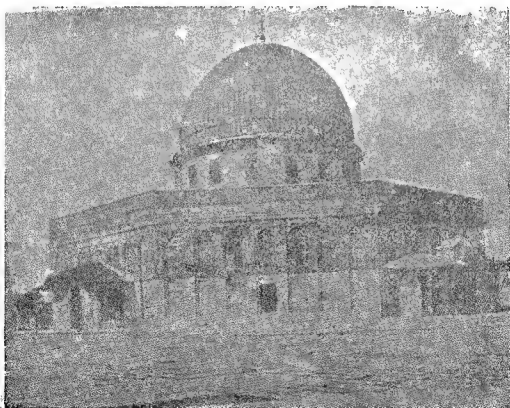
لم تكن للعرب في جاهليتهم فنون بالمعنى الذى يدل عليه هذا اللفظ ، ماعدا الشعر والخطابة فى اللغة العربية للفصحى ، إذ تدل أوصاف قصورهم فى اليمن وأوصاف مبانيهم فى الحيرة على أنها جميعا شيدت على الفن الفارسى أو الفن البيزنطى . ثم شهد العرب خلال فتوحهم الكبرى من آثار الفرس والروم ما أدهشهم ومن هذه إيوان كسرى بالمداين (شكل ٥٥) وكنايس الشام ومصر .



(شكل ٥٥) إيوان كسرى بالمداين

فحفزهم كل ذلك إلى أن يشيدوا فى حواضر دولتهم أفخم المباني على نمو بلادهم مزاجهم العربى ويوافق دينهم الإسلامى . فأنشأ الوليد بن عبد الملك المهجد الأموى بدمشق : واختط سليمان بن عبد الملك مدينة الرملة بفلسطين ، وبنى

جامعها المشهور . وسبق على هذا وذلك تشييد عبدالملك ابن مروان مسجد قبة
الصخرة بيت المقدس . (شكل ٥٦)



(شكل ٥٦) قبة الصخرة

ونشأ في كل إقليم إسلامي كبير مسجد جامع على نموذج المسجد النبوي بالمدينة
وذلك من حيث التصميم والتكوين لأن حيث الزخرف وأحكام البناء . والمحمود
في عمارة الأمويين عموماً أنها تأثرت بالفن البيزنطي . بل تذكر المصادر التاريخية
صراحة أن الخلفاء الأمويين استعانوا بالمهندسين والعمال البيرنطيين في إنشاء
المساجد والقصور . ومن هذه القصور القبة الخضراء التي شيدها معاوية بدمشق .
وقصور المشتى وقصور عمرة والرصافة التي بناها خلفاء معاوية في شرق الأردن
وبادية الشام بالقرب من مدينة الرقة وهي القصور التي اكتشفت مواضعها وأثارها
من عهد قريب .

ولم يسكن العباسيون أقل إهتماماً من الأمويين بالعارة ، فبنى المنصور بغداد وزاد فيها هو ومن جاء بعده من خلفاء العصر العباسي عدداً من المباني والمساجد والقصور ، وقد زلت جميع هذه المباني ولم يبق منها شيء إلا وصف الجغرافيين والمؤرخين لها .

أما سامرا التي اختطها المعتصم ، ونزلها بمجده التركي ؛ فلا يزال مسجدها قائماً بمئذنته الشهيرة لادلالة على مدى تأثير الفن العراقي القديم في مباني العباسيين ، وذلك فضلاً عن الفنون الساسانية والهندية والصينية .

ويأتي بعد مدينة سامرا من حيث الأهمية في العارة الإسلامية مدينة الفسطاط بمصر والقيروان في تونس والسكروبة والبصرة بالعراق .

التصوير والنحت :

والمعروف أن علماء المسلمين الأولين اعتبروا تصوير الإنسان والحيوان مكروهاً ، دون أن يفتقوا بتحريمه :

والظاهر أن خلفاء بني أمية وبني العباس ترخصوا في ذلك ، إذ توجد بميدران قصر المشتى صور آدمية متقنة ، وكذلك بميدران القصر الذي بناه المعتصم في سامرا حسبما ورد في أوصاف المؤرخين .

وبنى الخليفة الأمين قوارب لنزهته في دجلة على هيئة الأسد والنسر والدلفين ؛ كما اشتمل قصر المتندر بالله على تماثيل فرسان معحركة بخيائها تتقدم

وتتأخر كما في الحرب ، بل وصل إلينا بعض الكتب العربية موصحة بالصور ، ومنها كتاب كليلية ودمنة ومقامات الحريري .

الزخرفة والخط العربي :

استعاض جمهور المسلمين عن النحت والتصوير بالزخرفة التي لم يكن عليهم فيها جناح احتراماً لما اتزمه الفقهاء في هذا الصدد ، فزخرفوا المساجد والمباني بأشكال هندسية أو نباتية مؤلفة على نحو يجعلها جميلة في عين الناظر إليها ، كما وجدوا عوضاً ثانياً في الخط العربي بعد أن صار فناً جليلاً على يد خطاطين مشهورين ، ومنهم ابن مقلة وابن هلال وابن الجواب وياقوت المستعصي ، وبفضل العناية بالخط العربي لأغراض الزخرفة أصبح نسخ المصاحف وتجليدها وتذهيبها فناً قائماً بذاته ، واستمر ذلك إلى أوائل القرن الحالى (شكل ٥٧)

الفنون الصناعية :

وبرع المسلمون في النسيج وصناعة الخزف والقاشاني والزجاج وغير ذلك من صناعات البلاد التي تم لهم فتحها . وفي متاحف العالم الكبيرة ، والمتحف العربي بالقاهرة ، ومتحف دمشق ، مجموعات من كل صنف رائعة ، وهي تدل على درجات متفاوتة من تأثير الفنون للصناعية البيزنطية والفارسية والقبليّة في فنون المسلمين ، في عصر ازدهار الدولة الإسلامية .

الموسيقى :

عرف العرب في جاهليتهم نوعاً من الفناء هو الحدااء يستعملونه في أسفارهم

بناهای تاریخی و آثار مساجد (۸۵)



في البوادي والقفار ، استحدثناك للآبل وطرداً للوحشة ، كما عرفوا الإنشاد في إلقاء الشعر خاصة . وورد في كتب السيرة أنهم عرفوا كذلك النقر على الدف ، وهو لون بدائي من الموسيقى ، فلما جاءت الأمري من الفرس البيزنطيين والسريريان في صدر الإسلام إلى المدينة نقلوا معهم غنائهم وموسيقاهم ، فتلقها منهم بعض الرجال والنساء من العرب ، وانتقلت الألحان الفارسية إلى الغناء العربي . وظهر في العصر الأموي نوايع في الغناء على هذا النحو بين رجال وقيان ، ومنهم المغني معبد ، والمغنية ذات الخال ، وكثير غيرهم .

وذاعت الموسيقى العربية حتى بلغت الغاية في العصر العباسي الأول على يد إبراهيم الموصلي وابنه اسحق ، وذلك بتشجيع الخلفاء لهذا الفن الجميل ، ورغم معارضة الفقهاء . وتعددت آلات الموسيقى وتنوعت في البلاد الإسلامية ، ومنها الدف والطبور والعود والرباب والصنج والناي والقيثار والأرغول . وبرع في الموسيقى من المسلمين الكندي والفارابي ، واكتملت بهما الموسيقى الغربية من الناحيتين العملية والنظرية . غير أنه مما يؤسف له أن هذه الموسيقى العربية ذهبت أسرارها ، ولم يبق منها إلا رموز غامضة في كتاب الأغاني ونحوه ، وذلك لأن الموسيقيين المسلمين لم يدونوا ألحانهم « بالنوتة » كما هي الحال في الموسيقى الحديثة .

حركة الترجمة في الدولة العربية

لم تقم الترجمة في تاريخ الفكر الإنساني كله بمثل الدور الذي قامت به في الدولة العربية ، في مرحلتين متباعدتين من الزمن ، الأولى مدة العصر الأموي والعصر العباسي الأول ، أي القرنين الثامن والتاسع ، والثانية مدة القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين .

وفي المدة الأولى اتصل المسلمون بالفرس ، وشهدوا مداهمهم في انطاكية وقيصرية ونصيبين والرها زمن الإنويين . فلما كان زمن العباسيين الأوائل ازداد إقبال المسلمين على دراسة العلوم المتكثرة بهذه المدارس ، فترجمت لخليفة المصور كتب في الطب والنجوم عن السريانية .

ثم شجع البرامكة نقل المؤلفات الفارسية والسريانية إلى العربية . وجاء المأمون فسلك مسلكاً جديداً بإنشاء « بيت الحكمة » في بغداد للدراسة والبحث على مثال مدارس السريان ، ثم أنه أحب أن تنقل كتب الفلسفة اليونانية وأساساً دون وساطة لغة أخرى كالسريانية أو غيرها ، فأرسل إلى إمبراطور الدولة البيزنطية وقتذاك يسأله أن ينفذ إليه ما يختار من الكتب القديمة ، فأجابته إلى ذلك بعد امتناع .

وأمر المأمون بنقل هذه الكتب إلى العربية في أسرع وقت وجعل يعرض للناس على قراءة تلك الكتب المترجمة ،

واقتردى بالمأمون كثير من رجال الدولة ، وجماعة من أهل الوجاهة والثر من المسلمين ، فتقاطر المترجمون من أنحاء العراق والشام وفارس إلى بغداد ، ومنهم المنساطر واليمامة والصائبة والجوس والهنطيون والبراهمة ، وترجموا من اليونانية والفارسية والسريانية والهندية والنبطية إلى اللغة العربية ، وأقبل الناس على هذه الكتب والبحث فيها أيما إقبال .

وترتب على حركة الترجمة وذبوع الكتب المنقولة إلى اللغة العربية أن أتيح للمسلمين تصحيح أغلاط القدماء في كثير من المواضع ، كما أضافوا من عندهم إضافات وابتكارات قيمة ، ولاسيما في الطب والكيمياء والفلك والرياضيات .

وانتقل هذا التراث العربي إلى الأندلس ، فقام كثير من اليهود والأندلسيين بترجمة كتب المسلمين في الفلسفة وغيرها إلى العبرانية واللاتينية . ولاسيما زمن الفونس السادس ملك قشتالة (بأسبانيا) بعد استيلاء هذا الملك على مدينة طليطلة من بعض ملوك الطوائف المسلمين سنة ١٠٨٥ م .

وكان كبير أساقفة طليطلة رجلا واسع الفكر ، اسمه ريموند فأحب أن ينتفع المسيحيون بفلسفة المسلمين ؛ فأنشأ في طليطلة معهدا لترجمة من العربية إلى اللاتينية ، فترجمت كتب ابن رشد وفلاسفة المشرق .

وفي سنة ١٢٢٤ م أسس الامبراطور فردريك الثاني المعروف بشدة ميله إلى الثقافة الاسلامية جامعة نابلي ، لنشر الكتب العربية الاسلامية في العالم الغربي المسيحي .

وانتشرت هذه الكتب في ترجمتها اللاتينية بين أمهات الجامعات
الفرنسية والإيطالية والإنجليزية ، وأحدثت أثراً قوياً في تفتيق الأذهان
وتحريرها من قيود رجال الكنيسة وخاصة في إيطاليا ، وبذلك تمهد
الطريق إلى النهضة الأوروبية الكبرى ، وحركة الإصلاح الديني ، وبهذا
تبتدىء الحضارة المالية الحديثة .

جزء مَعِينُ التَّارِيخِ لِأَهْلِ التَّارِيخِ

الفصل الثالث

مقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات الأخرى.

أولاً — التراث البشرى القديم وبلاد العرب :

انفردت الحضارة العربية الإسلامية بعبقرية فريدة يعرفها التاريخ والمؤرخون والجغرافيا والجغرافيون ، وهى الصحراء . ذلك أن الصحراء لاتستطيع أن تكون موطناً مستقراً للجاعات البشرية الكثيرة النفوس ، بل هى وسيلة حافزة لتلك الجماعات للانتقال إلى ما وراء الصحراء من أرض ووديان خضراء بعيدة . وكان البحر الأبيض المتوسط هو الوسيلة الطبيعية للاتصال بين أفريقيا وأوروبا وآسيا ، فان الصحراء العربية هى كذلك واسطة الاتصال بين اليمن والشام أو بين الحبشة وقارس أو بين مصر والعراق .

ولهذا السبب جاءت لغة العرب وهى اللغة الفصحى ، غنية بمفردات مستمدة من اللغات القديمة التى نشأت ونمت فى تلك البلاد المختلفة . واللغة العربية التى تتكلمها فى الحاضر فيها ألفاظ كثيرة من المصرية والحبشية واليمنية والأشورية والبابلية وهكذا .

ولهذا السبب نفسه كانت الحضارة العربية الإسلامية خلاصة الحضارات المجاورة السالفة عليها . وهى لم تحارب تلك الحضارات السابقة عليها يوماً من الأيام .

بل أقبلت عليها ووقت بين كلم أصنافها وألوانها بذوق عربي خبير بها أقدم خيرة .

ووجد العرب المسلمون عناصر الحضارة اليونانية أمامهم في الشام ومصر والعراق ، كما وجدوا الحضارة الفارسية في إيران ، وكانت الحضارة الفارسية قديمة الصلة بالحضارة الهندية ، فعرفوا العرب المسلمون أول ما عرفوها عن طريق الفرس .

وتولى العرب بالرعاية والعناية ما آل إلى أيديهم من ثمار تلك الحضارات وقطوفها ، ولم يلبثوا أن قدموا منها للعالم غذاء جديداً . وتناول العرب تراث الحضارة الهلنستية بالبحث والدراسة وكادوا يحققون للعالم فكرة « العالم الواحد » بفضل التعاليم الإسلامية القائلة بأنه لا فرق لعربي على عجمي إلا بالتقوى ، وبأن « أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وقدمت الحضارة العربية كثيراً من نتاج حضارات اليونان والفرس والهنود للعالم ، بعد أن هذبها وأضافت إليها . فلو لا اهتمام العرب بتلك الحضارات لضاعت معالمها بين ظلمات التعصب المشهور في أوربا في العصور الوسطى .

ومن الخدمات العربية الخالدة في هذا السبيل ترجمة مؤلفات أرسطو في السياسة والفلسفة والمنطق ، وجالينوس وأبقراط في الطب ، وبطليموس في الفلك والرياضيات ، وأقليدس في الحساب .

وهكذا جعل العرب أجزاء كثيرة من مؤلفات اليونان وعلومهم في متناول المغاربةين باللغة العربية . ومن أجل هذه المؤلفات المترجمة والبحوث التي قام العرب

أنفسهم بتأليفها في هذه العلوم وفد علماء إنجلترا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا إلى إسبانيا الإسلامية وصقلية ومصر الفاطمية وتعلموا في معاهدها العلمية .

وهكذا حفظت الحضارة العربية ما وصلت إليه أجيال العلماء الأقدمين في مختلف العلوم ، كما أضاف العلماء العرب إلى تلك العلوم تهذيبات ومؤلفات جديدة . وما زالت هذه التهذيبات والمؤلفات تحتل مكانة السبق والابتكار بين مؤلفات الحضارات الأخرى .

تأثير الحضارة العربية في بناء الحضارات الحديثة :

ولم يقتصر فضل الحضارة العربية الإسلامية على تهذيب التراث الحضارى والاضافة إليه ، بل أسهمت كذلك بأبحاثها ودراساتها في وضع الحجر الأساسى للحضارة الأوروبية وغيرها من حضارات العصر الحديث . وانتشرت أضواء الحضارة العربية إلى أوزبا من ثلاث مراكز رئيسية كبرى هي : الشرق العربى ، زمن الحروب الصليبية ، والأندلس ، زمن الخلافة الأموية به . ثم صقلية حيث نشأت دولة عربية ظلت حضارتها قائمة بين العماليق زمناً طويلاً بعد زوال تلك الدولة .

وتركت الحضارة العربية في اللغات الأوروبية ألقاظاً تدل على مقدار ما أفادته الحضارات الحديثة من تراث العرب في شتى العلوم وأعظم الأمثلة البرهانية على ذلك أن معظم أسماء النجوم فى اللغات الأوروبية لا تزال تنطق بصنعها العربية ومنها العقرب والجدى والطنير والذئب والفرقد . ولا تزال المصطلحات الفلسفية والرياضية حافظة أصيغتها العربية فى اللغات الأوروبية ومنها السميت والنظير والجيب

والجبر والكيمياء والصنعة ونقلت أوروبا أيضاً الكثير من أبحاث العلماء العرب في ميدان الطبيعة . فنقل روجر بيكون إلى الغرب الأوربي دراسات ابن الهيثم ونظرياته في البصريات وعلم الضوء . إذ قام هذا العالم العربي بتجارب على المرايا الكرية والمثلثة وابتكر طريقة صحيحة لإيجاد البعد البؤري . ويعزى إلى ابن الهيثم كذلك التمييز بين الظل وشبه الظل . وأفاد من أبحاث ابن الهيثم بمسدد ترجمتها إلى اللاتينية العالم الأوربي كبلر ، واتخذها مرجعاً اعتمد عليه في بحوثه الفلكية وعرف ليونارد وفنش العالم والفنان الايطالى أعمال ابن الهيثم واستخدمها أيضاً .

واعتمدت الدراسات الطبية في أوروبا من مؤلفات الأطباء والعلماء العرب ومنهم الرازى وابن سينا والزهرائى ، واعتبروا الرازى حجة في الجراحة والكيمياء . ومن أهم مؤلفاته كتاب (الحاوى) الذى ترجمه إلى اللاتينية أحد أطباء صقلية وهو أبو فرج بن سالم اليهودى ، وصار هذا الكتاب مرجعاً في دراسات الطب في جامعات أوروبا قرونًا عديدة .

وكذلك ترجم حيراد الكريمنى إلى اللاتينية كتاب « القانون » في الطب لابن سينا وظل هذا الكتاب دليل المشتغلين بالطب في أوروبا كذلك حتى القرن السابع عشر الميلادى .

أما الزهرائى فكان من أشهر الجراحين العرب بالأندلس ، فهو صاحب كتاب كبير عنوانه (التصريف لمن عجز عن التأليف) والجزء الأخير من هذا الكتاب في علم الجراحة الطبية .

وترجم هذا الجزء الأجنبي جيرار الكريمتوني وكذلك وجماعته جامعة أكسفورد بانجلترا المرجع لدراسة الجراحة حتى القرن الثامن عشر الميلادي .

وعلى هذا النحو اعتمدت جميع قواعد الحضارة الأوروبية الحديثة منذ عصر النهضة الأوروبية الكبرى وإحياء العلوم .

والواقع أنه لولا الكنوز العربية الأولى في الطب والفلك والرياضيات والكيمياء والفيزياء والبيطرة والزراعة لاستحالت حركة إحياء العلوم المشهورة .

ولا يزال كثير من المؤلفات العربية هي المرجع الوحيد الذي يمكن أن يستمد منه أوصاف كثير من بقاع الأرض التي كان للعرب الفضل الأول في ارتيادها .

ومن هذه المراجع الخالدة كتاب البيروني (وصف الهند) وكتاب ياقوت الحموي (معجم البلدان) وكتاب (رحلة ابن بطوطة)

ومن هنا نستطيع أن ننقل إلى شرح فضل العرب في ميدان الكشف الجغرافي فكان العرب هم الذين اكتشفوا أسرار الملاحة في المحيط الهندي وجزر الهند الشرقية وشواطئ الصين ، والراجح أنهم بذلوا محاولات لعبور الأطلس إلى ما هو معروف الآن باسم أمريكا . ولا شك أن ما كتبه الجغرافيون العرب الذين عاشوا في صقلية والأندلس كان مادة استرشد بها البرتغاليون في كشف طريق رأس الرجاء الصالح وخرستوف كولمبس في اكتشاف أمريكا .

مقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية

والحضارات الأخرى

الاسلام وزوال التفرقة العنصرية بين البشر :

تفوقت الحضارة العربية الإسلامية على ما سبقها ولحقها من حضارات في الأمور الآتية .

أولا : إلغاء نظام الطبقات الجامد ، الذى قسم أبناء المجتمع الواحد إلى طبقة من السادة والأحرار . والأخرى من العبيد المسلوقة حقوقهم فى الحياة الحرة . ذلك أن الحضارات القديمة قامت على أساس التفرقة بين البشر ، وأنهم مختلفون فيما بينهم فى اللون وحقوق الحياة وطبيعة العمل . وعبر أرسطو نفسه عن هذه النظرية القديمة حيث قال ما معناه أن العبد شئ من المتاع ويشه أثاث المنزل . غير أن الحضارة العربية الإسلامية أزالته بفضل تعاليم الاسلام السمحة الحاجز العالى الذى فرق بين السادة والعبيد وأعتبرت الناس جميعا متساوين كأسنان المشط ، ولا فرق بين شخص وآخر الا بالتقوى والعمل الصالح .

ثم كان تقسم الناس فى الحضارات القديمة إلى أجناس يتفاضل بعضها على بعض من حيث المقدرة العقلية والمواهب الشخصية ، ثم تبادت بعض تلك الحضارات ووضعت حاجز اللون وأدبجت أصحاب البشرة السمراء مع أصحاب البشرة السوداء من باب الاستعلاء والانفراد بحسبيتها ، وعلى أساس هذه النظرية

الزائفة جملة التفرقة في الحقوق السياسية والاجتماعية . غير أن الحضارة العربية الاسلامية أغفلت هذه النظريات الباطلة .

ثانياً - واضردت الحضارة العربية باحترامها لأصحاب العقائد الدينية المخالفة لها ، وتركهم يمارسون شعائرها حسب تعاليمها . وتجلّى ذلك في نظام التسامح الذى شرعه الخليفة عمر بن الخطاب فى معاملته أهل الذمة ، وهم أهل الكتاب المسيحيين واليهود وكذلك فتمتع أهل الذمة بقسط كبير من الحرية ، ولم يدفعوا إلا الجزية مقابل حماية الدولة لهم .

ثم أنهم خضعوا لقوانينهم الخاصة فى مسائل الأحوال الشخصية ، حيث تولى رؤساؤهم الروحانيون تطبيقها دون تدخل أو ضغط من السلطات العربية .

ونال أهل الذمة كذلك حق بناء المعابد والكنائس والهيكل الخاصة بكل منهم ، مع حماية الدولة لها من كل اعتداء .

وكشفت أحوال اليهود خاصة عن مدى ما نعموا به من حرية ورفاهية بالقياس إلى أحوال إخوانهم اليهود فى أوروبا منذ أيام الدولة الرومانية القديمة إلى القرن التاسع عشر الميلادى .

ثالثاً - كان علماء اليهود والنصارى والصابئة موضع رعاية وتشجيع من جانب السلطات العربية والمجتمع العربى ، بل كان منهم الوزراء وحكام ورجال الإدارة وأطباء القصور وغيرهم من أرباب الثقافة التى ساعدتهم الدولة العربية الاسلامية على نشرها بمختلف وسائل التشجيع والمعونات المالية .

ومن الأدلة الواضحة على ذلك كله أنه بينما امتلأت أرجاء أوروبا بمشاريع الحملة الصليبية المعروفة بالأولى ، اتجهت جماعات من جنود تلك الحملة إلى كولونيا بألمانيا الحالية وأوقصوا مذبحه هائلة باليهود إعتقاداً منهم أن الدماء اليهودية خير تمهيد لنجاح القضية الصليبية في فلسطين على حين كان اليهود أنفسهم يمشون في المجتمع العربي الاسلامي عبثة راضية ، ويشتركون في الحياة العامة إشتراكاً فعلياً في كثير من الاطامئان .

رابعاً — المدالة الاجتماعية . وقام آخرون من جنود الصليبيين وهم بخرقون بلاد البلقان الحالية بمذابح متعددة في السكان المسيحيين أصحاب المذهب الأرثوذكسى المختلف عن مذهبهم الكاثوليكي المسيحي وظنوا بذلك أنهم يمهّدون لنجاح المسيحية وتوحيد الكمئلين تحت القاج البابوى الكاثوليكي .

أما المسلمون فعاملوا الكاثوليك والأرثوذكس سواء بسواء على أنهم جميعاً أصحاب كتاب . وفى هذا دليل إضافى على عمق مبدأ التسامح العربى الاسلامى نحو أصحاب الديانات الأخرى أينما كانت وفى أى عصر من العصور .

خامساً — وبما هو جدير بأن يكون خاتمة طيبة لهذه المقارنات التاريخية التى لا سبيل إلى إنكارها أن الحضارة العربية الاسلامية ألتمت هذه القواعد السابقة كلها إلزاماً كريماً منذ نزل بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة حتى الوقت الحاضر .

أسئلة وتدرّيات على الباب الرابع

- ١ - اشرح مشاهير التقدم العلمى فى الدولة العربية الإسلامية .
- ٢ - وبين مدى ما حققه العلماء العرب من نتائج فى هذا الميدان .
- ٣ - أسهمت حركة الترجمة فى الدولة العربية الإسلامية مساهمات جليلة فى المحافظة على التراث البشرى القديم وتنميته . اشرح هذه العبارة موضحاً ما تقول بالأمثلة التاريخية .
- ٣ - ناقش الأصول التى استندت إليها الحضارة العربية الإسلامية ثم اذكر مدى ما نقلته هذه الحضارة من تلك الأصول :
- ٤ - إلى أى حد تفوقت الحضارة العربية الإسلامية على ما سبقها وما تلاها من حضارات .
- ٥ - يقول احد المؤرخين الأوربيين « لولا الحضارة العربية لتأخرت حضارة أوربا فى العصور الحديثة عدة قرون » اشرح هذه العبارة شرحاً وافياً موضحاً ما تقول بالأمثلة التاريخية .

فهرست الخرائط

رقم	صفحة
١ حضارات الشرق العربي القديم	٤
٢ انتقال الحضارة من الوطن العربي إلى أوروبا	٥
٣ الإقليم الجنوبي ما بين النوبة والبحر المتوسط	١٠
٤ الدولة المصرية السورية في عهد تحتمس الثالث	١٣
٥ بعض المدن المصرية القديمة ومعبوداتها	١٨
٦ اقناة القديمة بين النيل والبحر الأحمر	٣٧
٧ بسلاد الرافدين (العراق)	٤٠
٨ سورية زمن الآموريين والكنعانيين	٦١
٩ فينيقية	٦٥
١٠ توسع فينيقية التجارية في البحر المتوسط	٦٨
١١ الامبراطورية الرومانية	٧٠
١٢ الممالك الآرامية والكنعانية بسورية قبيل ظهور الأنباط	٧٣
١٣ الدول العربية في سورية قبل الاسلام	٧٥
١٤ إمارة الفساسنة	٨١
١٥ حضارات اليمن القديمة	٩٥
١٦ مراكز الحضارات القديمة في الجزيرة العربية	١٠٥
١٧ أرض الترك (بلاد ماوراء النهر)	١٧٨
١٨ الدولة العربية الاسلامية منذ نشأتها إلى سقوط الدولة الأموية	١٧٩

- ١٩ تفكك الدولة العربية الإسلامية في القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) ١٩١
- ٢٠ اسبانيا في زمن الحكم الأسباني ١٩
- ٢١ الدولة الفاطمية في أقصى اتساعها ٢٠٧
- ٢٢ دولة صلاح الدين الأيوبي ٢١٨
- ٢٣ دولة المماليك في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي ... ٢٢٣
- ٢٤ حروب سيف الدولة الحمداني مع البيزنطيين ٢٣٢
- ٢٥ الامارات اللاتينية في الشام سنة ١١٤٠ م « ٥٣٥ هـ » .. ٢٤١
- ٢٦ الامارات اللاتينية بعد انتصارات صلاح الدين ٢٤٨
- ٢٧ الحروب الصليبية في مصر ٢٥١
- ٢٨ إغارات المغول ٢٥٩
- ٢٩ الامبراطورية العثمانية في أقصى اتساعها ٢٨٢
- ٣٠ طرق التجارة في الدولة الإسلامية - المواصلة الرئيسية في العصور الوسطى ٣١٤

فهرست الخرائط النمنية

دلم	صفحة
١	خريطة زمنية لتاريخ الاقليم الجنوبي من الجمهورية العربية المتحدة في الصور القديمة ١٤
٢	خريطة زمنية لتاريخ الاقليم الشمال » » » » ٧١
٣	خريطة زمنية للحركات الانفصالية في المغرب ... ٢٠٩
٤	خريطة زمنية للحركات الانفصالية في مصر والشام ... ٢٣٥
٥	خريطة زمنية للحركات الانفصالية في المشرق ... ٢٣٦

جزوب
مَعِينُ التاريخ
لأهل التاريخ

فهرست الصور والى سوم

رقم	صفحة
١	الوزير يقدم تقريره إلى فرعون ١٦
٢	محاكمة الميت ٢٠
٣	اخفاتون وزوجته يتعبدون لإله الشمس ٢١
٤	إهرامات الجيزة ٢٣
٥	معبد الدير البحري بطيبة ٢٤
٦	معبد أبوسنبل الكبير بالنوبة ٢٥
٧	تمثال خفرع ٢٦
٨	أبو الهول ٢٧
٩	رسم لست أوزات ترمى ٢٧
١٠	رسم لقطة تلتهم سمكة ٢٨
١١	ساعة مائية ٣١
١٢	مفاظر زراعية ٣٣
١٣	بعض الحرف والصناعات ٣٥
١٤	سوق محلى ٣٦
١٥	بقايا مدينة أور السومرية ٤١
١٦	بقايا مدينة بابل ٤٣
١٧	لوح القوانين من عهد الملك حمورابى ٤٧
١٨	حلى سومرية فوق تمثال حديث ٥٠
١٩	رأس تمثال حجرى الملك سومرى ٥٧

رقم	صفحة
٢٠	٥٧
٢١	٦٢
٢٢	٦٤
٢٣	٦٤
٢٤	٦٧
٢٥	٦٩
٢٦	٧٦
٢٧	٧٦
٢٨	٧٨
٢٩	٨٠
٣٠	٨٤
٣١	٨٦
٣٢	٩٣
٣٣	١٠١
٣٤	١٧٦
٣٥	١٩٩
٣٦	٢٠١
٣٧	٢١٠
٣٨	٢١٢
٣٩	٢١٤
٤٠	٢١٦

رقم	صفحة
٤١	جزء من تحفة من الخشب من العصر الأيوبي يبدو فيها البسملة بالخط الكوفي ٢١٧
٤٢	قبعة الصالح نجم الدين أيوب ٢١٩
٤٣	قلادة من الذهب مما كانت تنزين به نساء مصر في عهد المماليك ٢٢٢
٤٤	مشكاة من الزجاج من العصر المملوكي . . . ٢٢٤
٥١	منظر عام للجامع الإمام الأعظم أبي حنيفة . . ٢٨١
٥٢	صحن من الخزف من القرن الرابع الهجري . . ٣١١
٥٣	أبريق من العصر الأموي ٣١٢
٥٤	صفحة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي من القرن الثاني الهجري ٣٢٤
٥٥	إيوان كسرى بالمدائن ٣٤٩
٥٦	قبعة الصخرة ٣٥٠
٥٧	مخروط خشب عليه كتابات كوفية . . . ٣٥٣
٤٥	قطعة من القماش بزخارف ترجع إلى العهد المملوكي ٢٢٥
٤٦	سبيل قايتباي بالصليبية ٢٢٦
٤٧	منارتي قايتباي بالأزهر ٢٢٧
٤٨	طابية قايتباي بالاسكندرية ٢٢٨
٤٩	الواجهة الشرقية لمسجد الظاهر ببغداد . . ٢٥٤
٥٠	السلطان قنصوة الغوري ٢٧١

فهرست الكتاب

فهرست الكتاب

الصفحة

١	مقدمة :
٢	المهيج :
١	الباب الأول :
١	الحضارات القديمة في الوطن العربي :
١	تمهيد : نشأة الحضارة الأولى :
٩	الفصل الأول : الحضارة القديمة في وادي النيل :
٩	لحة تاريخية :
١٤	مظاهر الحضارة المصرية القديمة :
١٤	أولاً : التنظيم السياسي
١٧	ثانياً . العقائد الدينية
٢٢	ثالثاً . الفنون والحارة
٢٩	رابعاً . العلوم والآداب
٣٢	خامساً . الحياة الاقتصادية
٣٩	الفصل الثاني . الحضارة القديمة في وادي الرافدين

الصفة

٣٩	لمحة جغرافية وتاريخية .
٤٥	مظاهر الحضارة في وادي الرافدين .
٤٥	أولاً : الحياة السياسية — تأسيس حكومات المدن
٤٩	ثانياً : الحياة الاقتصادية .
٥١	ثالثاً : الحياة الدينية .
٥٣	رابعاً : الحياة الفكرية .
٥٥	خامساً : الحياة الفنية .

الفصل الثالث : الحضارة القديمة في الشام .

٥٩	لمحة جغرافية وتاريخية .
٧٢	حول العرب في الشام قبل الإسلام .
٧٢	دولة الأنباط .
٧٤	دولة تدمر .
٧٧	دولة الفلسفة .
٨٢	مظاهر الحضارة في بلاد الشام .
٨٢	أولاً : الحياة السياسية :
٨٣	ثانياً : الحياة الاقتصادية .
٨٥	ثالثاً : الحياة الدينية .
٨٧	رابعاً : الحياة الأدبية — الكتابة وأصول الأبجدية

الفصل الرابع ، الحضارة القديمة في الأقاليم الجنوبية من الجزيرة العربية ٩١

٩١	لحة تاريخية .
٩٢	دولة معفين .
٩٢	دولة سبأ .
٩٤	دولة حمير .
٩٦	مظاهر الحضارة اليمنية عامة .
٩٦	الدولة والمجتمع .
٩٨	ال عمران ونظام الري والسدود .
١٠١	الديانة اليمنية .
١٠٣	العلاقات بين اليمن والحضارة .
١٠٥	علاقات اليمن باليونان والرومان .
١٠٦	اليمن والحبشة .
١٠٧	السمات المشتركة بين الحضارات القديمة في الوطن العربي ..
١٠٧	وحدة الطبيعة .
١٠٨	وحدة الجنس البشري العربي (
١٠٩	وحدة اللغة .
١٠٩	التوحيد في الديانات :
١١١	استثانة وتدرجات .

صفحة

١١٣	الباب الثاني .
١١٣	<u>الوطن العربي قبل الاسلام .</u>
١١٥	<u>الفصل الأول أحوال العرب في الجزيرة العربية قبيل الاسلام .</u>
١١٥	أولاً - الأحوال السياسية .
١٢٨	ثانياً - أحوال العرب الاجتماعية قبيل الاسلام
١٣٤	ثالثاً - أحوال العرب الاقتصادية قبيل الاسلام
١٤٣	رابعاً - الأحوال الفكرية قبيل الاسلام
١٤٥	الشعر
١٥٠	الفصل الثاني النزاع بين الفرس والروم
١٥٠	أولاً - أسباب النزاع :
١٥٨	ثانياً : أثر هذا النزاع في الوطن العربي
١٦٣	أسئلة وتدریبات
١٦٥	<u>الباب الثالث .</u>
١٦٥	<u>العرب والإسلام :</u>
١٦٦	<u>الفصل الأول : ظهور الاسلام</u>

الصفحة

١٦٦	تمهيد
١٦٧	الجماعة الإسلامية في مكة
١٦٧	الجماعة الإسلامية في الدور المدني
١٦٨	قيام الخلافة الإسلامية
١٧٠	نمو الدولة الإسلامية
١٧٠	العوامل التي دفعت المسلمين إلى التوسع
١٧١	سياسة الحكومة الدينية
١٧٢	مجل حال الأمة العربية

الفصل الثاني موجز لتكوين الدولة الإسلامية حتى بلوغها أقصى اتساعها ١٧٣

١٧٣	التوسع العربي
١٧٣	حرب الردة وآثارها
١٧٤	اتساع الدولة الإسلامية زمن الخلفاء الراشدين
١٧٦	التوسع الإسلامي من الأمويين

الفصل الثالث أولاً - تحرير العرب للشعوب الخاضعة لدولتي الروم والفرس ١٨٠

١٨٠	١ - ترحيب هذه الشعوب بالفتح العربي
١٨٢	٢ - انتشار الإسلام

صفحة

١٨٥	ثانيا - ميلاد الأمة العربية
١٨٥	عناصر الأمة العربية بعد الفتوح
١٨٧	الفصل الرابع - العالم العربي منذ ضعف الخلافة العباسية حتى الغزو العثماني					

١٨٧	أولا - عوامل التفكك السياسي
١٩٢	ثانيا - قيام الدولة المستقلة في الأندلس
١٩٤	الامارة الأموية في اسبانيا
١٩٧	ثالثا - قيام الدول المستقلة في مصر والشام
١٩٧	الدولة الطولونية ✓
٢٠٢	الدولة الأخشيدية ✓
٢٠٥	قيام الدولة الفاطمية ✓
٢١٥	الدولة الأيوبية ✓
٢٢١	دولة المماليك ✓
٢٣١	الدولة الحمدانية ✓
٢٣٧	رابعا - جهاد العالم العربي ضد الصليبيين والمغول ✓
٢٣٧	أطماع الأوربيين في الشرق العربي (تمهيد)
٢٤٠	زحف الصليبيون على الشرق العربي
٢٤١	المقاومة الشعبية ضد الصليبيين في الشرق العربي

صفحة

٢٤١	حركة اليقظة العربية الاسلامية على عهد عماد الدين زنكى
٢٤٢	انتقال القيادة العربية إلى الشام
٢٤٢	استباق نور الدين والصليبيين للاستيلاء على مصر
٢٤٥	صلاح الدين الأيوبي
٢٤٥	توحيد الشرق العربي
٢٤٦	سحق الصليبيين في واقعة حطين
٢٤٩	جهاد سلاطين البيت الأيوبي ضد الصليبيين بعد صلاح الدين
٢٤٩	هزيمة الصليبيين في دمياط
٢٤٩	هجوم الصليبيين على مصر — الاستيلاء على دمياط
٢٥٠	حملة لويس التاسع ملك فرنسا على مصر
٢٥٣	المماليك والصليبيون
٢٥٣	السلطان بيبرس والصليبيون
٢٥٥	السلطان قلاوون والصليبيون
٢٥٥	الاستيلاء على عسكا
٢٥٧	أغارات المغول
٢٥٧	مواطن المغول
٢٥٧	جنگيزخان
٢٥٨	هجوم المغول على الشرق العربي

الصفحة

٢٧٨	دخول أسرة يرباروسا في خدمة الملك العثماني
٢٨٠	الاستيلاء على العراق
٢٨٣	الحكم العثماني في البلاد العربية
٢٨٣	الباشا
٢٨٤	ديوان الباشا
٢٨٤	السناجق والكشاف
٢٨٤	الحامية العثمانية
٢٨٥	ديوان الدفتر دار في الولايات العثمانية
٢٨٥	القضاء
٢٨٥	أثر الحكم العثماني في البلاد العربية
٢٨٧	أسئلة وتدريبات
٢٨٩	<u>الباب الرابع</u>
٢٨٩	<u>الحضارة العربية الإسلامية</u>
٢٩٠	<u>الفصل الأول : أصول هذه الحضارة</u>
٢٩٠	تمهيد
٢٩١	الدين الإسلامي
٢٩٢	الحضارة العربية

الصفحة

٢٩٣	الحضارة الفارسية الهندية
٢٩٤	الحضارة اليونانية الرومانية
٢٩٦	..			<u>الفصل الثانى : مظاهر الحضارة العربية الإسلامية</u>
٢٩٦	أولا : الأحوال السياسية
٢٩٦	الخليفة
٢٩٧	الوزارة
٢٩٨	القضاء
٢٩٩	القضاء إلى ظهور المذاهب الأربعة
٣٠٠	النظر فى المظالم والحسبة
٣٠١	الجيش
٣٠٢	السلح
٣٠٢	الأسطول
٣٠٤	ثانياً : الحياة الاجتماعية
٣٠٤	عناصر المجتمع العربى الإسلامى
٣٠٥	أهل الذمة (المسيحيون واليهود)
٣٠٦	طوائف (إحدى الصابئة والمجوس والبوذيون)
٣٠٧	الأسرة العربية الإسلامية

الصفحة

٣٠٨	ثالثاً : الحياة الاقتصادية
٣٠٨	الفلاحة والزراعة
٣١٠	الصناعة والحرف الصناعية
٣١٣	التجارة والطرق التجارية
٣١٦	..	٠	..	المواد المالية
٣١٦	الزكاة
٣١٧	جهات الزكاة
٣١٧	الأموال المقدرة على أهل الذمة
٣٢٠	تقسيم الغنائم
٣٢٠	ديوان الجند
٣٢١	خيانة الخراج.
٣٢٣	رابعاً . الحياة الفكرية
٣٢٦	علوم اللغة
٣٢٧	علم اللغة
٣٢٨	علوم الدين
٣٢٨	علوم الحديث
٣٢٩	علم الفقه
٣٣٠	علم أحوال الفقه

الصفحة

٣٣٢	التاريخ
٣٣٤	الاجتماع
٣٣٦	تقويم البلدان
٣٣٩	علم الكلام
٣٤٢	الفلسفة
٣٤٥	الفلك والرياضات
٣٤٧	العلوم الطبيعية
٣٤٨	الفزياء
٣٤٩	خاصة : الحياة الفنية
٣٤٩	الفنون والعبادة
٣٥١	التصدير والنحت
٣٥٢	الزخرفة والخط العربي
٣٥٢	الفنون الصناعية
٣٥٢	الموسيقى
٣٥٥	حركة الترجمة في الدولة العربية

الفصل الثالث : مقارنة بين الحضارة العربية الاسلامية والحضارات الأخرى ٣٥٨

٣٥٨	التراث البشرى القديم وبلاد العرب
-----	----	----	----	----	----------------------------------

الصفحة

٣٦٠	تأثير الحضارة العربية في بناء الحضارات الحديثة .
٣٦٣	مقارنة بين الحضارة العربية الإسلامية والحضارات الأخرى
٣٦٣	الإسلام وزوال التفرقة المنصرية بين البشر .
٣٦٩	فهرست الخرائط
٣٧١	فهرست الخرائط الزمنية
٣٧٣	فهرست الصور والرسوم
٣٧٩	فهرست الكتاب

(تم بحمد الله)

جزوب معین التاریخ لأهل التاریخ

مطبعة النصر - شارع البشير
تليفون ٥٥٦٦١